خالد الخميسي

الشمندر

دار الشروق

الشمندر

خالد الخميسي

الطبعة الأولى ٢٠١٨

تصنيف الكتاب: رواية

© دار الشروق

خالد الخميسي

الشمندر
روايـــــــة

دار الشروق

بعد أن ظهرت له خريستيانا في حلم ليلة صـيف؛ رسم شهاب الشمندر شذرات عمره على الورق وضمَّها بخيط الألم. ولما أتمَّ لوحته النهائية؛ أسلم روحه إلى بارئها.

في ذكرى
شهاب الشمندر
١٩٥٨ - ٢٠١٨

كتب الفنان التشكيلي شهاب الشمندر سيرته دون فصول أو فقرات؛ فقمت بتقسيم النص لتسهيل القراءة ومنحت لكل فصل اسم لوحة من لوحاته مستندا إلى قائمة لوحاته الكاملة التي نشرت في العام السابق لتكون سيرته معرضا من معارضه التي أتحفنا بها عبر تاريخه. لم أتدخل في النص فلوحته/سيرته تمثل اعترافاته الأخيرة.

خالد الخميسي

في الطريق إلى مبعث السرور
قبالة منزل سيد الخلود
يوم كيل الكلمات
أقول ولا أكذب أمام من يصنع الضياء
عسى أن أرتحل فوق الأرض دون عائق
لأنظر قرص الشمس
وأرى القمر بلا انقطاع
كل يوم
كل يوم
كل يوم.

شهاب الشمندر

(من نص مصري قديم

تطلعت لأعلى.
تأملت ساعد امرأة تقبض بأصابع من فولاذ أذن تمثال ضخم وتشد جسدها لتتسلق البرونز الأملس. وراءها صعدت نساء نجحن بعد جهد في الجلوس فوق رأس التمثال.
لفت واحدة منهن حول العنق المعدني المفتول حبالا غليظة.
صرخت النساء اللاتي يقفن من حولي في هستيريا يطالبن بالإسراع في تحطيم هذه الكتلة الصماء.
أسقطوا هذا الفاسد.
تيقنت - وأنا أحمد الله - أنهن لا يعرفن أن هذا التمثال لي. رنوت إلى رأسي البرونزي وثلاث يقفن فوقه وهن يرفعن علامة النصر.
حطموا هذا الفاسق الداعر العاهر.
نظرة من تقف فوق أذني اليسرى أرعبتني. ارتعشت خوفا وتراجعت خطوتين. رفرف غراب فوق رأسي وعلا ومال ناحية النيل.
رمت فتاة بالحبال إلى أسفل. دفعتني شابة صغيرة لتمسك بطرف حبل.
ـ فتتوا هذا الجسد.
ـ حطموا هذا الحيوان.
تحمسن جميعا وعلت هتافات الغل. بدأن يدفعن بكل قوة حتى سقطت على أم رأسي. تهشم وجهي تماما وطارت قطعة من جمجمتي وسط صيحات الفرح والغبطة. طارت عيني النحاسية ورفرفت حتى لامست الغراب العائد.
لمَسَت كتفي من الخلف كف.
لمحت أصابعها فعرفت.
نظرت خلفي فوجدتها.
* * *
استيقظت مذعورا. زفرت وكأني أُخرج من روحي سحابا أسود. صدرت رغما عني صرخة مكتومة أخذت شكل تنين مخيف. ظللت أحدق في الظلام ملتاعا حتى تسلل من بعيد صوت أذان الفجر.
هو كابوس.
نعم، كابوس مريع أن أحلم بوجهها.
جاءني من حيث لا أعلم صوتها العميق خارجا من بوق خشبي مصنوع في عصور ما قبل التاريخ.
تردد جرس طرق أذني منذ أكثر من عشرة أعوام.
ـ أنا يا بني لا أظهر في الأحلام؛ ولو تجليت لك يوما؛ فهذا نذير شؤم.
تجلت الليلة في منامي وهي ترتدي السواد. وجهها جامد وكأنه من شمع. لم تتكلم. اكتفت بالنظر إليَّ.

أبلغتني بلا صوت:
- أتت ساعتك يا بني فرتب أمورك.
الموت في الأحلام خير وعمر مديد.
لكن من سقط هو تمثالي وليس أنا.
أسوف أموت؟
أعرف أنها عندما تقول تصدق.
شعرت تجاهها بكراهية تسللت بهدوء إلى كل كياني فملأته حتى انتفخت عروقي. كرهت عجزي وخوفي، واضطراب ذهني.
سوف أموت إذن.
لم أحل قطُّ مشكلتي مع الموت، ولا مع المجهول. أما هي فقد عاشت معهما منذ مولدها.
ارتسم على شفتي شبح ابتسامة هازئة.
ما فائدة الأسئلة؟
الموت كلمة تقتل كل الكلمات.
في أي ساعة يا ترى سوف أقابل الحضور المباغت لعزرائيل؟
جلست على الفراش أسترجع وجهها.
لكم أحتاج الآن إلى ضحى ومحب. احضرا أرجوكما.
لكن هل هناك معنى لمواجهة القدر؟
جاءني صوتها العميق مرة جديدة:
ـ الحذر لا يمنع القدر. لا تعاند فيما لا يجوز العناد فيه.
* * *
عرفت أنه حان موعدي عندما فقدت القدرة على الفرح وتبخر الحزن الشريف ولم يتبقَّ سوى القلق غير المبرر. ستون عاما كانت كافية لابتلاع ذرات التوهج التائهة وسط شراييني. لم ألمح وميضا يتيما تلتمع أطرافه داخلي منذ فترة.
أهذا البريق هو من يصنع أيامنا القادمة؟
ملأتني حالة سكينة مفاجأة. شعور بالارتياح وكأن هموم الدنيا قد انزلقت خفية من فوق أكتافي.
ابتسمت في استرخاء وأسلمت روحي للطُّمَأْنينة.
لكن هيهات لتلك الدعة أن تستقر ولو قليلا.
تلألأ سؤال رجَّ بنياني:
أكنت خيرا، أم شريرا؟
أأنت جدير برحمة إله العالمين؟
أسيرفق بي الرب ويدخلني جنته، أم أن كلمة العذاب سوف تحق عليَّ؟

أسوف أتهشم كما تحطم تمثالي أمام عينيَّ؟
وإلى جحيم الخلد يا شهاب.
هل من إجابة أيتها العرافة القديمة؟
ماما رفيعة. كان هذا اسمها.
أتقمصت يا ماما رفيعة دور أنوبيس وجئت لتسيري معي على الصراط القويم حتى أصل إلى محكمة العدل؟

* * *

لم يعد أمري في يدي.
سبقني الزمن.
شكَّلني وسار بي في ممرات ملتوية، وها هو يتركني الآن.
طلبتِ مني أن أرتب أموري. أي أمور تلك التي عليَّ أن أرتبها؟
أظهرت يا ترى في أحلامي كي أعدل من ميزان حسناتي في أيامي الأخيرة؟
أين أنتِ الآن؟ أمت؟
ربما تكون قد ماتت. وربما ما زالت تدب على الأرض بقدميها، وتنثر بخورها القادم من العالم الآخر في عالمنا.
ملأت رائحة بخورها الحجرة حتى أثملتني.
جاهدت داخل دروب ذاكرتي الهرمة ما وسعني من جهد لأعود ليوم لقائي بها لأول مرة مع جدتي بستان.
أكره ذاكرتي، كما أكره تذكر ما عشته من أيام.
ذكرياتي هي ألد أعدائي.
أجدني الآن أكره القادم كراهيتي للماضي.

* * *

لم أستطع الإمساك ببداية الخيط، ولكنني أمسكت بالخيط نفسه.
انسابت وسط ظلمة الحجرة الذكريات البعيدة.
تتالت أمام عيني المنمنمات والزخارف التي لازمت جميع لوحاتي. عناصر شكلت فني كما شكلت حياتي.
مرت في لمح البصر لحظات محفورة من عمري وكأنها شريط تمَّ تسجيله في مكان قصي داخل الروح.
هل يمكنني يا ترى أن أقصَّ ما مرَّ قدامي أمام المحكمة الإلهية عندما تحين الساعة؟ وجدتني أدخل معرض لوحاتي. وراء كل لوحة رسمتها حكاية، وخلف كل عنوان لحظة فارقة في خريطة أيامي. سيرتي أعيدها لأتأمل كيف يمكنني أن أتدبر أمري عندما تحين ساعتي وأقف أمام بيت سيد الخلود.

* * *

خشب الماهوجني والمزهرية وخريستيانا تجيب

«ماما رفيعة بصّارة، لكن ليست مثل كل البصّارات».

أتاني رجع صوت جدتي بستان وهي تخبرني بحقيقة الأمور.

تعرجت هذه العرافة داخل منحنيات روحي منذ وعيت على الدنيا.

ماما رفيعة صعيدية قح. رفيعة كالمسمار، صلبة كالمسمار، ورأسها كرأسه صغير حقّا، ولكنه يدق ككل المسامير أعين من أمامه في جبروت لا يفل. تتحدث هي بلكنة أبناء جنوب الوادي. هذه اللكنة التي تحمل موسيقى، تتلون بطلاوة مبهجة أحيانا، وتكفهر في جهامة أحيانا أخرى. رائحتها ممزوجة دائما برائحة ليست من هذه الأرض.

قصتها عجب في عجب. كيف تاهت تفاصيلها وسط متاهات الطرقات؟

لا، هي لم تته، بل دفعت بها دفعا خارج الضفتيْن لأعود إلى نهر الأمان. فقصتها ممنوعة من النشر، كما هي ممنوعة من الصرف. تخرج عن قانون المكتوب وتدخل في ملكوت الشفاهي.

ماما رفيعة.

جاءت إلى الدنيا في قرية «ساقلتة» أو سواقي قلتة. لم يكن اسم رفيعة هو اسمها يوم مولدها، بل اسم اختارته وهي في العشرين من عمرها. كان الاسم الذي أطلقته عليها والدتها وهي تلدها: «خريستيانا»؛ تيمنا باسم راهبة وطبيبة فرنسية وهبت حياتها لخدمة المرضى في سوهاج ونواحيها، وهي التي ساعدت الأم في عملية ولادة الطفلة. لكن على الرغم من خبرة الطبيبة فإن الأم فقدت حياتها بعد ساعات قليلة من ميلاد طفلتها. تزاوج الفرح والحزن، الميلاد والموت، وأعلن الأب الحداد على محبوبته الفقيدة. في يومها الثامن توجهت الطفلة الرضيعة مع والدها السيد «جرجس» وأفراد العائلة إلى الكنيسة للمعمودية. أمطرت سحابة يتيمة قطرات من ماء مبارك على رءوس الفوج المتوجه للكنيسة. تهلل الجميع فرحا واستبشروا خيرا وفيرا، وارتفعت الأمنيات للأم المتوفاة وللرضيعة اليتيمة. مطر في سوهاج في النصف الثاني من أكتوبر هو أمر لا يحدث إلا في القرن مرة واحدة. اعتادت عائلة خريستيانا تعميد الأطفال في اليوم الثامن من ميلادهم كما في الختان في العهد القديم؛ حتى لا يُسمح للشر بأن يجد فرصة للتسلل داخل الروح؛ ولتتقدس وتتكرس بالروح الرضيعة منذ نعومة أظفارها.

في مساء المعمودية نام الوالد جرجس ولم يستيقظ من نومه. تنيح ولحق بزوجته، ومع المسيح ذاك أفضل جدّا. كان ذلك في نفس يوم وفاة عدلي يكن باشا رئيس الوزراء الأسبق. ما أهمية ربط الحادثتين؟ لا أهمية على الإطلاق. ولكن هذا ما تكرر على سمعها وهي طفلة.

اضطر الجد العجوز إلى أن يدير محل البقالة الذي كان يمتلكه ابنه، وانتقلت الطفلة إلى الحياة في المنزل الكبير لجدها وجدتها.

مرت أيامها كما تمر عادة الأيام، وبلغت الطفلة عامها الثالث. لاحظ حينها الجد أن خريستيانا دائما ما تكون في يديها حلوى لا يعرفون مصدرها. استفسر من زوجته فقالت له إنها لم تلاحظ هذا الأمر، وعندما سألاها، أجابت الطفلة أن أصدقاءها يمنحونها دائما هذه المأكولات الطعمة. كانت حلوى لا يعرفون لها مثيلا. حاولا أن يتتبعا حركة الطفلة ليستكشفا الأمر، لكن لم يجدا أثرا لمن تتحدث عنهم. وبتكرار السؤال عرفا منها أن هؤلاء الأصدقاء يزورونها ليلا في حجرة نومها.

حجرة نومك!

صدمة الجد والجدة كانت كبيرة.

من يجرؤ من أبناء القرية على أن يتسلل ليلا إلى غرفة الفتاة؟

ثارت الدماء الصعيدية في عروق الجد. قرر أن يتسلل خفية وينام تحت فراش الطفلة، وينتظر القادم ليهشم رأسه.

بعدما نامت خريستيانا دخل الرجل الغرفة الواسعة. أحكم إغلاق الشيش وإغلاق النافذة. فتح الدولاب الخشبي القديم المرصع بالصدف والعاج وتأكد أن لا أحد يختبأ فيه، ثم أغلقه بالمفتاح الكبير. غطى حفيدته بلحاف قطني ثقيل كان قد ورثه عن المرحومة أمه. ونزل على الأرض بهدوء رجل في الستين من العمر. دخل بسهولة تحت السرير النحاسي العالي، وفرد جسده الضخم، واستغرق في نوم عميق. استيقظ الجد قبل الفجر على أصوات مبهمة. خرج في صمت من تحت الفراش. ثبت في مكانه لوهلة غير مصدق ما يرى، ثم رفع حذاءه من على الأرض وصفع الهواء. صرخت الطفلة:

لا تضربهم يا جدي. إنهم أصدقائي الذين حدثتك عنهم.

تحجرت حدقتا عيني الجد، توقف الهواء في رئتيه وسقط على الأرض كقطعة خشبية أُلقيت من أعلى.

صرخت خريستيانا رعبا وهي تجلجل ملتاعة:

- الحقي جدي. يا جدتي. الحقي جدي.

عندما وصلت الجدة إلى حجرة الطفلة كان زوجها قد فارق الحياة.

* * *

اختلى القس بخريستيانا في اليوم التالي، وسألها عما حدث. قالت له إنها كانت تلعب مع أصدقائها كعادتها. ثم ظهر جدها فجأة خارجا من تحت الفراش، نظر إلى أصدقائها، رأت عينيه تجحظان وكأن كل حدقة قد قررت أن تخرج من محجرها إلى الأبد، ثم تهاوى جسده دون حراك.

ـ ومن هم هؤلاء الأصدقاء يا خريستيانا؟

ـ هم من يزورونني كل ليلة. نلعب معا، ويمنحونني الكثير من الحلوى.

ـ وما شكل هؤلاء الأصدقاء؟ هل أعرفهم؟

ـ هم أصدقائي أنا.

ـ وهل يأتون إلى كنيستنا؟

ـ لم أرهم في الكنيسة.

كانت هذه هي آخر مرة تتحدث فيها خريستيانا عن هؤلاء الأصدقاء؛ لأنها في اليوم التالي مباشرة اختفت.

استيقظت جدتها صباحا ولم تجدها في المنزل. بحثوا عنها في كل مكان. ولكن لم يكن لها من أثر. تحرك في البداية أفراد العائلة في أنحاء المركز وفي القرى المجاورة، سألوا من يفترشون الطرق المؤدية من قرية إلى أخرى، وزاروا الدور التي ترفع الأعلام، والمباني التي تعالج المرضى، ولما فشلوا في العثور عليها، بدأت العائلات القريبة تبحث هي الأخرى. وبعد مرور أسبوع من البحث الحثيث. اختلت الجدة بالقس وقالت له إنها تريد الانتظار. تمسكت الجدة بأهداب الأمل ورفضت بكل قوة أن تعلن عن وفاة حفيدتها.

ولأن من يختفي فجأة يظهر فجأة استيقظت الجدة في صباح يوم أحد، ووجدت حفيدتها نائمة في فراشها بنفس قميص النوم الذي نامت به ليلة اختفائها. جلست الجدة على حافة السرير وبكت كما لم تبكِ قط. تأتي دموع الفرح دائما أكثر غزارة من دموع الحزن. ومن صوت نشيج الجدة استيقظت خريستيانا من نومها وسألت جدتها ببراءة طفلة في الرابعة من عمرها عما يحزنها. وعندما سألتها الجدة: أين كنتِ طوال عام كامل؟ أكدت البنت أنها نامت بالأمس في فراشها واستيقظت في التو واللحظة.

فشلت الجدة ومن بعدها أبونا بولس في معرفة ماذا جرى لخريستيانا طوال هذا العام. وفي النهاية تأكدوا أنها نفسها لا تعرف. أعلنوا للناس أنها فقدت الذاكرة وتاهت المسكينة حتى وجدها أحد المعارف صدفة، وخير صدفة أفضل من عام كامل في البحث عنها. عادت خريستيانا ومعها كتاب غلافه قديم وصفحاته مصفرة وخالية من أي حرف، اكتشفت الجدة أن الطفلة تقضي معظم وقتها في قراءة هذه الأوراق البيضاء بنهم. عرّفتني جدتي وكنت طفلا ماأزال أن في هذا الكتاب فسيح الأوراق تسجيلا لحياة البشر، كل صفحة مخصصة لشخص بعينه. تقلب ماما رفيعة صفحاته ولا ينتهي، فالكتاب يضم مليارات الصفحات التي تتوالد مع كل ميلاد جديد.

* * *

هذا ما قصته عليَّ جدتي بستان وهي تسند ظهرها إلى وسادة من ريش نعام. وأنا أجلس بجانب ساقيها أدلك لها قدمها على فراشها الوثير، وأستمع إلى حكاياتها مدهوشا من طلاوة صوتها.

لسعتني الذكرى ككرباج فرقع فوق ظهري.

ـ وأين كانت ياجدتي خريستيانا طوال هذا العام؟

ـ لكل وقت أذان.

ذبت في جمال عينيها. محبوبتي الأولى: بستان مراد كاظم. ملكة الكون المتوجة. الحاكمة الآمرة في الدار. يبدو أنها لم تكن قد سمعت بعد عن هزيمة النظام الأمومي وسيطرة النظام الأبوي على العالم. أدارت بستان «درب اللبانة» بحزم ربة الأرباب. أم لثلاث بنات. تزوجت ابنتها الكبرى «برلنتة»

وسكنت في الشقة المواجهة، وتزوجت الثانية «إحسان» موظفا وانتقلت معه إلى أسيوط وابتعدت عن عالمنا. كانت أمي «عايدة»، الابنة الثالثة، قد عادت من تونس لتسكن مرة أخرى في حجرتها القديمة بعد أن طلبت الطلاق من زوجها المدرس ولم تكن قد بلغت الثالثة والعشرين من عمرها.

ومع قافلة النساء تلك كان يسكن دارنا رجلان يمتثلان لأمر جدتي بستان: «يوسف مراد» أخو جدتي الوحيد والذي يكبرها بعامين، والسيد أحمد عبد الجواد خادم الدار.

شكلت هذه الشخصيات لوحتي « مائدة الطعام وبستان والعائلة والمزهرية وخريستيانا تجيب».

في وسط اللوحة مائدة مستطيلة من خشب الماهوجني، وفوقها مفرش سكّري مطرز بخيط كتاني يرسم سيقان نباتات رقيقة. تجلس بستان في صدر المكان، ملامحها بين الوداعة والشقاوة. على يسارها تقف خريستيانا متجهمة بلطف وهي تتحدث رافعة ذراعها اليمنى، وبقية العائلة منثورون في اللوحة كالدر، وأنا أقف في الخلفية صغيرا قصيرا متواريا خلف باب حجرة نومي.

* * *

بستان الدهر تغزل الحكايات بمغزل من ذهب

أول صورة في أرشيف روحي هي وقفتك يا جدتي وأنت تستقبلينني في المطار. أرسلتني أمي وحدي مع مضيفة جوية لشركة الطيران العربية المتحدة في الرحلة القادمة من تونس إلى القاهرة قبل أن تصل بعدي بشهر مطأطئة الرأس وهي تعلن لجميع أفراد عائلتها في غرفة الطعام أنها طلبت من أبي الطلاق.

مازلت أتذكر وقفة أمي أمامك يا بستان العمر وهي ترتجف خوفا، وأنا غير مصدق أن من اعتبرها تقبض على الحكمة والشجاعة في كفها اليمنى، وتملك المعارف الإنسانية في الكف الأخرى، ترتعد هكذا أمامك. احتجت إلى سنوات طويلة قبل أن أعرف أن أمي لم تكن تلك المرأة القوية، كانت عايدة ظلّا باهتا من روحك المتوثبة.

* * *

كما البستان كانت جدتي ألوانها زاهرة، وحمرتها زعفرانا، وشعرها تبرا، وخضرة عينيها بحيرة «سالاشسي». جاءت بألوانها من جبال القوقاز البعيدة ومنحتني ألوانها بكرم شعوب الشركس. تزوج أبوها مراد كاظم الضابط في جيوش آل عثمان أمها «دلبر». عاشا في قريته كالاكار وهناك ولد يوسف. تنتقل العائلة الصغيرة إلى الإسكندرية وتنير بستان الدنيا بعد وصولهم بأسابيع قليلة في إبريل عام ١٩١٠. تقوم الحرب العالمية الأولى ويسافر مراد كاظم للمشاركة في القتال وينضم للجيش الثالث العثماني ويترك عائلته في الإسكندرية. لا يمر عام واحد على سفر الأب إلا ويهبط الخبر الصاعقة على رأس «دلبر»: لقيَ مراد كاظم حتفه في معركة ساريقاميش في نهاية ديسمبر من عام ١٩١٤؛ وهي المعركة التي نشبت بين الجيش القوقازي الروسي وبين العثمانيين بقيادة وزير الحربية أنور باشا. صار من يومها اختفاء الآباء من طبائع الأمور في عائلتنا الكبيرة. تتخذ «دلبر» القرار الصعب بالاستقرار في مصر. عودتها إلى تركيا في وسط الحرب مستحيلة والحياة في بلد غريب لا تعرف لغته أمر ليس سهلا. أسوف تعود إلى بلدها بعد انتهاء هذه الزوبعة؟ كيف يمكنها تدبر أمور الحياة حتى تنتهي المعارك؟ زواج امرأة لديها طفلان أمر يحتاج إلى ضربة حظ. لم يكن ينقصها الجمال، لكن ينقصها ولا شك الدهاء.

انتقلت من فورها إلى شقة أصغر في حي فقير. تدرك أن هذا الانتقال سوف يؤثر على مصير زواج ابنتها في المستقبل. يمر العام الأول ثقيلا وينتهي بلقاء دلبر بأحد إقطاعيي أسيوط الذي فقد زوجته حديثا. ينبهر بجمال ألوانها ويتم الزواج بينهما سريعا ويبتسم الحظ بانطلاق الزغاريد. ثم يفتح هذا الأسيوطي الوفدي الباب لاحقا للقاء بستان بزوجها المستقبلي أحد أقطاب حزب الوفد.

* * *

بعيونها الضاحكة حكت لي بستان عن زوجها. تلون صوتها بغنج أنثوي لطيف. حالم كبير يتحدث إلى الفراشات ليلون أيامه. اصطف في الصفوف الأمامية لثورة ١٩١٩. عمل مع سعد زغلول لسنوات طويلة.

لكم يشابه خط يدي خطوطه، كنزي الذي ورثته عن جدي: رسالة بخط يده لزوجته:

السيدة حرمنا المصون بستان هانم كاظم

تسلمت بيد المحبة خطابكم المؤرخ بتاريخ ٥ الجاري، وأشكركم شكرًاجزيلا على العبارات الرقيقة التي ضمنتها رسالتكم.

حكمتكم كانت كبيرة عند إصراركم على وضع الجوارب الصوفية في حقيبة السفر، لولاها لكان جسدي في حالة لا تسر؛ فالبرد قارس هنا في لندن حتى إن معالي الباشا صار جسده يرتعد كلما اضطررنا للسير قليلا في الشارع فأعطيته ما لديَّ من جوارب. أحوالي الصحية ليست كما نتمنى، أشعر أحيانا بدنو الأجل ثم يأتيني العزم فيقاوم هيكلي التصدع. ذهبت بالأمس إلى طبيب متخصص في أمراض القلب والصدر وأكد لي أنني في حاجة إلى راحة تامة، وهل الراحة ممكنة ونحن هنا نسابق الزمن للقاء أكبر عدد ممكن ممن يمكن أن نطلق عليهم أصدقاء المملكة المصرية؟

ينهشنا القلق من فكرة العودة دون إحراز النتائج المرتقبة.

كيف حال ابنتنا الحبيبة برلنتة؟ أبدأت تسير على قدميها؟ لكم كنت أتمنى أن أراها تسير أولى خطواتها.

السماء هنا تمطر كل يوم. لا أعرف ما هذا الغضب الذي تكنه السحب في هذه البلاد للسكان. حالة كراهية عميقة بين السماء والبشر، مقت يخفي الشمس وأشعتها، يرعد السماء ويبصق المطر. أصوات مرعبة وبلل وبرد. أحن إلى القاهرة وجمالها، وأتمنى كل يوم الهرب من الأكل العجيب الذي يأكله الناس هنا، أشتاق إلى الملوخية وصينية الفريك بالكبدة. تبقَّى لنا أسبوع ثم نتوجه إلى الإسكندرية. إلى لقاء قريب، لك مني الحب والتقدير.

القبلات الحارة لابنتنا برلنتة.

زوجكم الغيور على بلده.

حركة يد جدي وهو يوقّع رسالته رسم لطاووس.

* * *

أسس جدي، قبل أن يؤلف سعد زغلول وزارته في عام ١٩٢٣، مجلة نادى فيها بالاستقلال عن المحتل الإنجليزي. ثائر كبير يبحث في الفجر عن عائلات النوارس. بدأ مع جدتي خلفة البنات. قالت لي إنه كان فرحا ببناته، كثيرا ما كان يكرر قول المتنبي: «وما التأنيث لاسم الشمس عيب / ولا التذكير فخر للهلال». لم تكن حياته سهلة وسط عواصف الحياة السياسية، وبعد تعب تكرر بدأ زيارة الأطباء الذين قالوا إن قلبه ضعيف. لم يتحمل تبدلات الزمان ورحل عن الدنيا وبستان حامل في أمي.

ترك لها زوجها عقارات وأطيانًا، وكان على بستان أن تتدبر أمورها كما فعلت أمها من قبل. وهل للزمان أن يلتقي بربان أفضل منها على مراوغة أعاصير الحياة؟

ـ وماذا فعلتِ يا جدتي؟

ـ أقول الحق. وجدت أحباء جدك في كل مكان ذهبت إليه. شقتنا هذه جاءت لنا بسبب جدك.

شهدت هذه الشقة يا جدتي بعد وفاتك مصائب لا عدَّ لها. لو أخذ أوزيريس بما فعلت في حجراتها السبع لكان حسابي عسيرا.

* * *

من غزل حكايات بستان أصبحت ما أنا عليه.

من موقعي وأنا أتمدد إلى جانب ساقها، تشكلت روحي إلى الأبد.

لو سَقَطَت - في محكمة أوزيريس - كفة الميزان الحاملة قلبي، وعلت ريشة ماعت، فلسوف تكونين يا بستان كاظم السبب.

هأنذا منذ الآن أرمي مسئولية أفعالي على غيري.

يا لها من بداية غير موفقة للقاء الحكم.

لا يا بستان عمري، لا يمكن أن تكوني إلا مصدر ما فعلت من جمال.

أنت أول من رسمت.

تجلسين على مقعد وثير، ترتدين ثوبا ياقوتيًّا، من خلفك المكتبة التي تركها زوجك، وإطار لوحة، ومائدة على شكل قلب ينبض، وأنت تبتسمين، تنتظرين لحظة بدء غزل حكاياتك بالمغزل الذهبي.

عالم رواياتك يا بستان الدهر هو كل لوحاتي.

كل عمري.

* * *

زارتني الذكرى الأولى كهمّ أزلي.

ليلتي الأولى في شقتك يا بستان بالمنيرة، وظل «سانتو» ما زال يداعب فرشاتي.

* * *

حركات سانتو الخفية في الغرفة المظلمة

فتحت عينيَّ، كان الظلام دامسا. أغلقتهما وأخذت نفسا عميقا وفتحتهما ثانية، لم أرَ شيئا. نظرت ناحية «سانتو»، لم أجده في مكانه المعتاد. مددت يدي اليسرى نحو الكومودينو للبحث عن الأباجورة. لم أجد الكومودينو. ظللت أحرك ذراعي يمنة ويسرة، إلى أعلى ثم إلى أسفل. لم أجد إلا الفراغ.

تذكرت أن أمي قالت لي إنها سوف ترسل الكومودينو إلى الأسطرجي لدهانه. تنهدت مرتاحا. ثم عدت وتذكرت أن الأسطرجي أعاده منذ فترة وكانت معه ابنته «سلمى» التي احتضنتها بعد ذلك في أحلام يقظتي، وتبادلت معها قبلات بطعم النعناع الذي كان يفوح من فمها.

ظللت ساكنا عسى أن تتعود عيناي على الظلمة وتستطيعا امتصاص أي رحيق إضاءة يسرح مصادفة في أجواء المكان. لكن العتمة كانت قد امتصت بفمها كل خيوط الضوء الذي كنت أتابع بشغف حركته وهو يلعب على السقف وعلى الحائط. بحثت مرة أخيرة عن الشمبانزي «سانتو» صاحبي الليلي الذي يقيم دائما في ركنه البعيد على سقف الغرفة بجانب النافذة، ولما لم أجد له أي أثر تساءلت عما حدث لفتحات الشيش العرضية التي كانت تسمح بتسلل الشمبانزي ليلا، أو هكذا بررت لي أمي سبب وجود «سانتو» الدائم في غرفتي ليلا واختفائه صباحا.

لم أستطع الانتظار ساكنا أكثر من ثوانٍ معدودات، فالمثانة التي أيقظتني من عز نومي كانت تضغط بلا هوادة على أعصابي، وخشيت أن تضعف مقاومتي فتبتل الدنيا.

قمت من السرير وبحثت بقدمي عن الشبشب، وجدته تحت السرير. ارتديته مسرعا وجريت نحو اليمين في اتجاه باب الغرفة. بعد خطوات ثلاث ارتطم جسدي كله بالحائط. صرخت صرخة مكتومة. شعرت بألم يعصر أنفي وجبيني. أمسكت أنفي فوجدته في مكانه، أحسست بخدر يتسلل إلى وجهي. تذكرت النزيف الذي رفض أن يتوقف عندما قفزت إلى حمام السباحة بوجهي وكان الماء قليلا فَزُرع أنفي داخل أرضية حمام السباحة، وظللت أسبوعا ملازما الفراش ودرجة حرارتي تقترب من الأربعين. خفت فجأة لو أن أمي عرفت أنني سحقت أنفي مرة جديدة. مسحت بسرعة شفتي العليا بيدي فلم أجد دماء تسيل.

لن أحكي لأمي ما حدث.

بدأت أتحسس الحائط باحثا عن الباب، ولكن لم يكن هناك باب.

ـ من المفترض أن يكون الباب – المقيم طوال حياته داخل هذا الحائط ـ هنا بالضبط، في هذا المكان تحديدا.

لكن الحائط نفسه ليس في مكانه. كيف تحرك الحائط إلى الأمام هكذا؟ توقفت. أخذت نفسا عميقا. بدأت أفكر في هدوء. عليَّ أن أعود إلى فراشي

مرة أخرى. درت على عقبي وسرت خطوات ثلاثا وجلست على السرير. وقفت ثانية وتحركت يمينا، ولكن هذه المرة ببطء. وجدت نفس الحائط في انتظاري. عدت إلى السرير وشعوري بضغط المثانة يزداد حدة وحيرتي تدير عقلي.

هل أتجه مرة أخرى إلى نفس الحائط؟ أين هو؟ ماذا يحدث؟ هل أنا داخل فيلم؟

إحساس بالعجز بدأ يتمكن مني.

ماذا أفعل؟

عليَّ أن أتحرك في كل اتجاه على أن أعود بعد كل محاولة فاشلة للوصول إلى الباب إلى فراشي مرة أخرى. يجب أن يكون السرير «كالأمة» في اللعبة التي اعتدت أن ألعبها مع جيراني فوق سطح العمارة. المكان الأصل الذي يخرج منه الجميع ويعود إليه الجميع.

ظللت واقفا ثم قررت أن أتوجه للمرة الأخيرة إلى نفس الوجهة. إلى اليمين حيث إنها الوجهة الوحيدة الصحيحة. تحركت بحماس، اصطدمت كالعادة بالحائط، احتضنته وظللت أزحف ببطني يسارا بخطوات محسوبة، وعندما لم أجد الباب اتجهت إلى الناحية الأخرى وأنا أعد خطواتي حتى وصلت إلى مكاني الأول، ومن هناك أكملت في نفس الاتجاه بنفس عدد الخطوات حتى وجدت حائطا جديدا فعدت أدراجي. واستطعت في النهاية أن أعود مرة أخرى إلى الفراش. أصبحت غير قادر على أن أتحكم في نفسي أكثر من ذلك.

كان عليَّ ربما أن أتحول إلى الرجل الحديدي وأطير من الفراش إلى الحمام بقرون استشعار الوطواط. عاتبت نفسي صارخا: كيف؟ هذه حجرتي التي عشت فيها طوال حياتي. أعرفها وأحفظ تفاصيلها الدقيقة عن ظهر قلب. كيف أتوه في حجرتي وأنا الذي أعرف خريطة الحي بكل شوارعه؟ فمنذ التحاقي بالمدرسة منذ عامين؛ استطعت أن أعرف الطريق ذهابا وإيابا من منزلي إلى المدرسة دون أدنى مشكلة. كنت الوحيد في فصلي بالحضانة الذي يمكنه أن يعود وحده إلى منزله على الرغم من أن مدرستي تبعد ربع ساعة سيرا على الأقدام من العمارة التي أقطن فيها.

أنزلت بنطلون البيجامة إلى أسفل بطني حتى أقلل الضغط على المثانة. ركزت ذهني حتى أتحكم في الإمساك بفم الخرطوم. وقررت أن أتجه يسارا. زفرت زفرة قوية حتى انعقد جبيني. كيف يمكنني أن أتجه يسارا؟ هو بالتأكيد أمر غير منطقي أن أتجه نحو النافذة. ولكن عليَّ أن أجرب كل الطرق. سرت بخطى بطيئة وأنا أمد ذراعي نحو الخلاء. وإذ بي ألمس بأناملي لوحا زجاجيّا. الشباك. اقتربت وبدأت في تحسس الشباك لفتحه وفتح الشيش لاستقبال بعضٍ من إضاءة سوف تكون كفيلة بحل كارثة تيهي داخل حجرتي.

لن أحكي هذه القصة لمخلوق. ولكنني وجدت أن ما تداعبه أناملي هو لوحة معلقة على الحائط. عدت إلى «الأمة» وأنا أكاد أجن.

رغبتي في التبول باتت أقوى من قدرتي على مقاومتها. كنت أكره نفسي

في كل مرة انهارت فيها مقاومتي. لن أنسى عندما جريت كالمجنون حتى وصلت إلى باب شقتنا، ولحظة أن فتحت له أمي الباب، هبط في سروالي الداخلي وزن دافئ جعلني أحتقر نفسي. لن أستسلم. يجب أن أجد الباب فورا للوصول إلى الحمام.

اختبرت الاتجاه يمينا ثم يسارا، فلم يكن أمامي إلا الاتجاه إلى قدَّام. سرت خطوات قليلة ثم اصطدمت ركبتاي بطاولة خشبية. درت حولها. لا توجد في حجرتي أي موائد. خفت من الفكرة وعدت مسرعا إلى الفراش. من وضع مائدة بهذا الحجم في حجرتي؟ وقفت ملتصقا في حافة السرير. ارتعدت من الخوف ومن ضغط المثانة. مددت كفي للبحث عن وسادتي النائمة حتى وجدتها، رفعتها وأدخلت أنفي داخلها. نعم، هي وسادتي. احتضنتها. سالت قطرات على وجنتي غصبا عنه. كل شيء يخونني. حواسي وذكرياتي وعقلي وثقتي في نفسي. أين فطنتي التي أشادت بها الأستاذة محاسن مديرة الحضانة؟ لا أنسى عندما امتدحتني وقالت لي إنني أذكى طفل في الفصل.

ماذا يحدث؟ تجلت في ذهني فجأة فكرة، صنّفتها بأنها فكرة عبقرية، وجعلتني أمسح دموعي وأبتسم ابتسامة ملأت وجهي حبورا.

أنا نائم وما أعيشه الآن هو كابوس. لابد أنه كذلك. ولكن كيف أعرف أن ما أعيشه حقيقة، أم كابوس؟ أنفي لم يكسر عندما ارتطمت بكل عنف بالحائط، وعندما أزاحت ركبتاي الطاولة لم أشعر بألم. أنا إذن داخل كابوس، وعليَّ فقط أن أستيقظ. لكن من أجل أن أستيقظ عليَّ أولا أن أنام. استلقيت على السرير. وأغمضت عيني وحاولت أن أنام لكي أصحو وأخرج من هذا الكابوس اللعين. حاولت بكل قوة حتى شعرت بألم في أنفي وهو يتجه عنوة نحو جبيني. أخذت نفسا عميقا، وحاولت للمرة الأخيرة أن أدخل في النوم حتى غطت وجنتاي عينيَّ ولكن ضغط اللحظات السابقة لانفجار المثانة كان يشتت تركيزي.

كيف يتسلل الإنسان من حالة اليقظة إلى حالة النوم؟ من الذي يفتح بوابة قصر النوم الفاخر؟ تخيلت كثيرا أنه رجل ضخم يرتدي ملابس عربية قديمة وفوق رأسه عمامة رائعة البهاء. هو بواب القصر ودوره يتلخص في أن يغني لكل من يدخل إلى هذا القصر أغنية النوم بصوته الساحر، فيذيب السحر سيوف اليقظة المشرعة داخل عيون البشر. وعندما شاهدت «أنا قلبي دليلي» مع أمي وكان والدي نائما في فترة الظهيرة. عرفت من فوري بواب قصر النوم الذي تسلل إلى داخل الفيلم لكي يريني نفسه. فقد كان يغني مع ليلى مراد في الحفل الكبير موالا كانت أمي تغنيه لي قبل أن أنام: «عيونك واه واه الواه / وشفايفك واه واه الواه / ودلعك واه واه الواه»، وكنت أدخل في هدوء إلى داخل قصر النوم بعد أن أستمع إلى صوت أمي وهي تغني لي أغنية بواب القصر.

حاولت كثيرا أن أتذكر اللحظة التي يُفتح فيها الباب. اللحظة التي أكون فيها

محاطا بجسد الباب الطري؛ حتى أستطيع أن أتفرج على العالميْن في نفس الوقت. ولكنني دائما ما كنت أفشل في أن أتذكر فترة مروري من البوابة وكأن شخصًا يكن لي المقت مصمم على أن يفقدني الوعي قبل أن أضع قدمي داخل قصر النوم.

لماذا أشغل عقلي الآن بكل هذه الأفكار عن قصر النوم والدخول إليه؟ هذه الأفكار وامتلاء المثانة هما عدواي اللذان نجحا في الانتصار عليَّ.

فشلت في الولوج داخل قصر النوم. ولكن يمكنني أن أذيب كل الأفكار التي تهاجمني بأن أغني أنا موال النوم لنفسي:

«عيوني واه واه الواه / وشفايفي واه واه الواه».

لا أمل. لا وجود اليوم للقصر أو حتى لحديقته، لا وجود للبواب ولا لأغانيه، لا وجود للسحر فالعتمة الجهمة تنير عقلي بألف شرارة من ضوء. أنا إذن لست داخل كابوس. أنا في حالة يقظة تامة وعلى الرغم من أن سيوفي مشرعة فإنني لا أرى شيئا.

وكانسياب الرمال في ساعة الزمن بدأت جحافل التفاصيل تملأ ببطء دروب عقلي الملتوية بعشرات الذكريات. جاءت أول نقطة نور أضاءت ناصية ممرين داخليين مختبئين بدهاء داخل جمجمتي. ظهر لي وجه أمي مضاء في الظلام. أغمضت عيني. حاول بواب القصر سحبي إلى داخل حديقته وهو يغني لي مقلدا هذه المرة صوت أمي:

عيونك واه واه الواه / وشفايفك واه واه الواه / ودلعك واه واه الواه.

نهضت من فراشي.

ووجدت نفسي رغما عني أصرخ مناديا:

ماما. ماما..

ثم تفجرت دمعا.

أحسست بالخجل. كيف لشخص كبير في مثل سني يقترب من سن السادسة؛ سن دخول المرحلة الابتدائية، أن يبكي هكذا؟

سمعت أصواتا، ثم شهدت نورا يتسلل فجأة من عتبة الباب.

أتاني صوت جدتي بستان ملتاعا وهي تصرخ هي الأخرى:

مالك يا حبيب أمك؟ مالك؟

ما الذي جاء بجدتي إلى تونس؟

فتحت جدتي باب الغرفة.

انسلت العتمة كريش طائر مريض.

ضرب سهم مضيء عينيَّ فضممتهما حتى تلامس حاجبي مع جفني.

ولما فتحتهما، اكتشفت أنني لست في حجرتي. لست في منزلي.

ضربت الغربة روحي بعنف.

احتضنتني جدتي.

عندها شعرت بخيط دافئ رفيع يتسلل ببطء من تحت سروالي ليبلل الدنيا.

كانت الليلة الأولى التي أقضيها دون أمي وأبي في المنزل الذي سوف يصبح بعد ذلك منزلي.

جليلة وملاك هتلر الفضي

لم أقترب من جراج عمارتنا لمدة عامين. سكنني رعب ظل متربعا داخل صدري لسنوات لا أعرف لها عدّا. رعب مادي يتشكل من مادة رخوة تتأرجح بين الصدر والمعدة تصيبني بالفزع أحيانا، وبالحموضة أحيانا أخرى، وفي معظم الأوقات بالشلل. أظل في حجرتي أعلك السأم وحدقتا عينيَّ بارزتان من حالة هلع مقيم. أتساءل اليوم: كيف يعيش أطفال في مجتمع تحكمه شريعة الانصياع للجبروت والقسوة؟ كيف ينتصر صبي في الثامنة من عمري على غول في الخامسة عشرة من عمره ويقف المجتمع مصفقا للمنتصر؟

كان الجراج واسعا وعميقا. مصدر إضاءته الوحيد يأتي من الشارع؛ مما جعل من المنطقة العميقة في الجراج مساحة معتمة تماما. كانت هذه الأمتار مرتعا لـ«بيسا» يجر ضحاياه من الأطفال والصبية ويقوم باغتصابهم هناك. بيسا هذا مراهق أدكن اللون، أنفاسه ثقيلة، ووجهه مغطى ببثور، أضاعت ذاكرتي ملامحه في محاولاتها الدائمة للحفاظ على صحتها النفسية. هو ابن بواب العمارة المقابلة مباشرة لبنايتنا، والذي يرتبط بصلة قرابة بعم «مكي» بواب عمارتنا. كنا ونحن نلعب الكرة أمام الجراج أنا وأبناء البواب نستمع إلى صراخ من يجذبهم إلى داخل جراجنا وتوسلاتهم له أن يرحمهم. لم يكن «بيسا» يقترب من أبناء البواب فهم أبناء عمومته، ولم أتصور أنه يمكن أن يقترب مني. لكن جاء يوم ووجدته يقبض على رقبتي واضعا كفه الضخمة على فمي من أمام باب الجراج الداخلي المفضي إلى سلالم العمارة. دفعني إلى المنطقة المظلمة وهو ينزل بعنف الشورت الذي أرتديه. قررت ألا أصرخ حتى لا يعرف أحد ما يحدث. خرج فحيح من حنجرته المشروخة:

سوف أفلقك يا حبيبتي الآن نصفين عندما يخترق قضيبي مؤخرتك البيضاء البضة. لم أجرب بعد اللحم الأبيض. كم أنا محظوظ بك اليوم.

لمست يدي قطعة من جلد. نظرت فوجدت عضوه الذكري يتدلى خارجا من فتحة بنطلونه. أتذكر تسارع نبضات قلبي كما لو كانت الحادثة قد جرت بالأمس. لا أعرف أي روح تملكتني في هذه اللحظة. هي روح الوشق البري الشرس ولا شك التي ظلت تلازمني طوال حياتي. كان في يدي كعادتي قلم رصاص طويل ومبري بعناية، زرعت سنه في عضوه، تراجع خطوة. فضربت سن القلم مرة جديدة بكل ما أوتي لي من قوة في خصيتيه. تأوه من الألم وتراجعت قبضته من على رقبتي. أفلت منه وجريت مذعورا حتى وصلت إلى باب الشقة وأنا أستمع إلى وقع قطرات ريقه تسقط من لسانه المتدلي اللاهث ورائي. اكتشفت عندما دخلت الشقة أن الرعب يصور خيالات لا حدَّ لجموحها، وأنه لم يكن يجري خلفي.

مات بيسا بعد أن منعني لمدة عامين من أن ألعب أمام الجراج خلال فترات بعد الظهيرة. لم أستطع أن أحكي لأحد هذه القصة. حبستها داخل روحي وأصبحت مصدر كوابيسي. وبديلا عن لعب الكرة، علمتني بستان أن ألعب

معها طاولة الزهر. كنا نلعب «المحبوسة» و«جلبهار» وترتفع أصواتنا في الصالون ونحن نعلن بصوت مرتفع أرقام الزهر: «جهار – دو»، «شيش – يك». كانت بستان التي تعشق السرعة والعنف تكره أن يأتي حظها بالنتن أو «الهبيك» أو رقمي واحد وواحد في الزهر. تصرخ بصوت متموج كله حسرة: «النتن». أسألها أحيانا: ألم يكن من الأفضل لك أن تتحركي ببطء؟ ترد واجمة أنها تفضل الدبش وهو رقما خمسة وخمسة. عرفت حينها أن القليل دائما مكروه عند البشر، والبحر يحب الزيادة. الاستثناء الذي يثبت القاعدة كان أخاها يوسف المحب للدعة والسكينة. أتذكر أنه في إحدى المرات أذاع التلفزيون فجرا مباراة ملاكمة، ولكم كانت جدتي سعيدة وهي تتابع المباراة أمام استهجان جدي يوسف وضحكاته. أما أمي الجميلة فقررت أن نقرأ معًا كل يوم ساعة. اشترت لي كتابين محفورين في ذاكرتي. عنوان الأول «قل لي لماذا؟»، والثاني «من هو؟». يتناول الكتاب الأول الأسئلة العامة لفهم المحيط الذي نعيش فيه، ويقدم الكتاب الثاني نبذة سريعة عن بشر قدموا الجديد عبر تاريخ الإنسانية. ومع كل سؤال في الأول وشخصية في الثاني، كان هناك رسم. تقرأ لي أمي الحروف وألتهم أنا الصور. من ضمن مئات الموضوعات، بقيَ سؤال بعينه في مخيلتي خلال سنوات طفولتي وصباي: لماذا لا نقتل الذبابة بالبندقية؟ رسم الفنان بندقية طويلة، الفوهة موجهة نحو ذبابة سوداء صغيرة تقف على حائط أبيض. بالغ الرسام في رسم طول فوهة البندقية حتى بدت أطول كثيرا من اللازم. وجاءت الإجابة أنه لابد أن تكون ثمة علاقة بين الفعل والهدف المرجو تحقيقه. وظللت سنوات أسأل أمي: ولكن ألا يمكننا أن نطلق رصاصة لقتل ذبابة؟

لم يقتل بيسا ببندقية. ذبح بسكين أمام باب الجراج بطريقة العصور الوحشية التي لا تريد أن تنتهي. ذبح في بهيم الليل في مكان ملعبنا لكرة القدم. ظل مقتله مصدر ذعر دائما. كنت على مدار هذا الزمن أرسم بصورة متكررة ملاكا فضيّا يفرد جناحيه ويمد رأسه إلى الأمام وكأنه يشق الهواء بأنفه البارز. كنت أرسم له أحيانا شعرا يتطاير في الهواء. كان هذا الملاك يتقدم سيارة موجودة في الجراج، ثابتة لا تتحرك أبدًا من مكانها. تسمرت عيناي عليه وأنا أضرب خصيتي بيسا بقلمي. رأيته يغمز لي بعينيه؛ فمنحتني الغمزة القوة اللازمة للخبطة.

كانت سيارة سوداء فرشها جلد أحمر دم غزال، أهداها أدولف هتلر للملك فاروق في عام ١٩٣٧. وعوضا عن النجمة الثلاثية المعروفة بأنها علامة السيارة المرسيدس، فرد ملاك فضي جناحيه مكانها.

ما الذي أتى بسيارة الملك فاروق المرسيدس إلى جراج بنايتنا؟

تمثل قصة هذه السيارة جزءا من تاريخ العمارة التي عشت فيها ربع عمري، والتي تحمل داخل أحجارها قصصا وحكايات يمكنها أن تقذف بي إلى جهنم.

رفقا بي يا رب.

* * *

تبدأ قصة عمارتنا برتيبة هانم كامل وزوجها إسحاق بك عبد الرحمن.

امرأتان في مصر بلغتا من الثراء ما لم يبلغه أغنى أغنياء العائلة المالكة المصرية: قوت القلوب الدمرداشية، ورتيبة هانم كامل. كل واحدة كانت مثالا للتربية السليمة والذوق الرفيع والحس الاجتماعي الفاعل. مات والد رتيبة هانم ثم أمها قبل أن تبلغ العاشرة. أمير وأميرة من أحد فروع عائلة محمد علي باشا التي لم تستنزف ثرواتها. ثم مات أخوها الوحيد وهي في الثالثة عشرة من عمرها. سقطت غصون شجرتها الغصن بعد الآخر. باتت جسدا عاريا وحيدا معلقا أمام الهبوب. أضحى الأكل ملاذها الوحيد للشعور بالاطمئنان. تأكل وتأكل ثم تطلب من عبدتها العجوز المزيد من الأكل حتى أمسى وزنها قنطارا. وأمام خجلها من حجمها رفضت كل عريس تقدم لها. مرت السنون وتفرغت رتيبة هانم لإدارة أملاكها وإقامة مشاريع للأعمال الخيرية. بنت للخير مستشفيات ومدارس ومعاهد حتى اشتهرت بلقب «أم الخير». وفي ليلة شتوية ماتت عبدتها بعد أن تخطت التسعين من عمرها وقررت رتيبة هانم في نفس هذا اليوم أن تخضع لحمية تعود بعدها لعودها الذي كانت عليه يوم وفاة شقيقها. اعتراها في يوم وفاة عبدتها شعور تحرر فريد لم يتكرر في حياتها كثيرا، وكأن عالما قديما اندثر وفجرا جديدا انبلج. سافرت أم الخير في الأسبوع التالي إلى بوهيميا. أقامت هناك في أحد منتجعات «كارلو في فاري» وظلت لمدة عامين تقاسي من الجوع وتعاند جسدها الذي اعتاد على نمط حياة غير الذي فرضه عليها أطباء بوهيميا، حتى فقدت نصف قنطار من الشحوم. عادت إلى مصر مع حركة هجرة السمان الذين لازموا سفينتها القادمة من نابولي إلى الإسكندرية. وبعودتها في الخريف الذي سبق اندلاع الحرب الثانية الكبرى، ولأول مرة، وقد تعدت الأربعين من عمرها، انفتحت شهيتها للرجال بعد أن تحركت دماء الأنوثة في عروقها. بدأت تبحث بعينيها عن رجل يصلح لها زوجا.

كانت الهوانم في هذا الزمان من أمثال رتيبة هانم يخترن وصيفات من عائلات كبيرة. وقد اختارت بعد عودتها من بوهيميا وصيفة جديدة؛ ابنة أحد أعيان أسيوط. كانت «جليلة مهران» في الثامنة عشرة من عمرها. شعلة من الفطنة. تنتظر فرصة للخروج من منزل أبيها والقفز على مدينة القاهرة. وفي سرعة تستحق الإشادة، بدأت جليلة صغيرة السن والخبرة تسيطر على إدارة القصر وكأنها ورثت في جيناتها أصول علم الهيمنة. ومما سهل على جليلة بسط نفوذها أن أم الخير انشغلت بشاب تركي في الجيش المصري التقت به في حفلة خيرية. بدر طالع في سماه. وكيف لا يرى البدر وهو يسير على قدمين؟ طويل، ضخم المنكبين، يتبختر في مشيته ببذلته العسكرية. يقف على شاربه ذي لون الكركديه صقران. المعضلة أنها تكبره بأكثر من عشرين عاما.

فهل تمهد الثروة الطرق غير الممهدة؟

يتدخل أولاد الحلال لتوفيق رأسين في الحلال، ولا يمر عام وإلا وكانت الموسيقى تعزف في قصرها المنيف: «يا عشاق النبي»، ودخل «إسحاق

بك عبد الرحمن» إلى سراي أم الخير فاتحا ولا سليم الأول في زمانه.

أنارت الوصيفة «جليلة» مصابيح القصر لمدة مائة يوم ابتهاجا بهذا الحدث السعيد، وبحثت أم الخير عن هدية تليق بزوجها: مصممة أزياء مجرية تحوك له ملابس مصنوعة من جلود بلاد المغول؟ مثَّال فرنسي ينحت قطعة من رخام لتصوير وجهه الخلاب؟ خنجر روماني مرصع عرضه أحد تجار الآثار في الإسكندرية؟ قلبت في رأسها عشرات الأفكار ولم ترتح لأي فكرة منهم. أرسلت رجالا تبحث عن الثمين حتى عاد إليها أحدهم واقترح الفكرة التي أنارت مكامن الرغبة داخلها. هناك سيارة مرسيدس أهداها هتلر للملك فاروق. في هذه السيارة كل ما يمكن أن يحلم به ملك في عربة. ثم أسَرَّ لها الرجل أنه من مصلحة جلالته بعد اندلاع الحرب أن يتخلص من هذه السيارة. سوف يعتبر البريطانيون أنه تصرف في محله. ليس عليها إلا أن تذهب لمقابلة جلالته، ثم في نهاية الأمر لن تخرج السيارة من دائرة العائلة السنية، وعندما يريدها جلالته سوف تكون تحت إمرته في التو واللحظة. ولأن علاقتها بفاروق ممتازة، وكانت قد قدمت معه السبت والأحد. فقد وافق جلالته على منحها هذه الهدية. وانتقلت ملكية سيارة هتلر إلى إسحاق بك عبد الرحمن الذي اعتبر أنها أجمل هدية يمكن أن تقدمها عروس لحبيب قلبها.

* * *

وما علاقة هذه الحكاية بالعمارة التي سكنت فيها؟

الخيال الشرير لجليلة مهران هو أصل المسألة. وكما يقال: «أَخْيَلَتِ السماء أي تهيَّأت للمطر فرَعَدَتْ وبَرَقَتْ.

هذا ما حدث.

رعد خيال جليلة فظهرت عمارتنا للنور.

ففي أحد الأيام مرضت رتيبة هانم. حضر إلى القصر طبيب شاب مشهود له بالكِفاية. كشف دكتور «رشاد شرف» على الهانم وكتب لها بعض الأدوية. لكن لم يمر هذا اليوم مرور الكرام، فقد أصاب سهم الحب جليلة، ونزف قلبها طوال الليل فلم تستطع أن تنم ليلتها. هامت في بالطبيب وعشقته، كشفت خلال زيارته التالية ما أمكنها كشفه من مكامن أنوثتها دون أن يلحظ وجودها. ونادت في الزيارة التالية على أفروديت وطلبت مساعدتها إلا أن الربة كانت مشغولة بآريس.

ماذا تفعل لتجذب انتباه أعمى البصر والبصيرة؟

اضطرت كما العنكبوت وهي في حالة الهيام هذه، أن تنسج خطة معقدة ومحكمة تليق بشرها اللانهائي.

* * *

عرفت جليلة الكهلة وحضرت موتها مجنونة بعد هذا التاريخ قرابة نصف قرن من الزمان. وكنت وأنا معها دائما ما أتساءل عن مصدر شرها الذي توزعه بالمجان وهي تبتسم ابتسامتها العذبة. لا شك في أن قلبها كان في ثقل

حجر من أحجار أهرامات الجيزة.

انتظرت جليلة واحدة من زيارات د. رشاد. ارتدت له أبهى ما لديها من ثياب. فستان قرمزي مشغول بنباتات ولا أجمل منها. اختارت هذا الفستان لتجذب عينيه لفتحة الصدر الواسعة التي يطل منها نهداها الممتلئان. اعتنت أيما اعتناء بتصفيف شعرها. استقبلته أمام باب القصر وسارت معه تلاطفه. صعدت معه بهدوء السلالم المؤدية إلى حجرة نوم الهانم. ظلت معه في أثناء الكشف وودعته على الباب بعد أن اطمأن أن أم الخير في تحسن. لكنه كعادته لم يلتفت إليها. أعلنت في هذا اليوم أن د. رشاد سوف يكون زوجها، وأنها سوف تبدأ في تنفيذ خطتها.

* * *

ناولت جليلة رتيبة هانم عددا كبيرا من حبات الدواء بهدف قتلها. وعلى الرغم من جهل جليلة بعالم الأدوية فإن أم الخير ماتت بالفعل في صباح اليوم التالي في الوقت الذي كان فيه زوجها في القشلاق. دخلت عليها في هدوء القتلة. سرقت من مجوهراتها ما يكفي أن تعيش بقية حياتها في حالة عز أصفهاني، وخرجت لتعلن وفاتها ويرتج القصر بالصراخ والعويل وتشارك القاتلة الجميع حفلة الصوات. ويهتم القصر الملكي بالمصاب؛ فالسيدة قد تركت ميراثا ضخما ولم تأتِ للدنيا بولد ولا بنت. لزوجها حقه الشرعي ولكن ما سوف يبقى يحتاج إلى تدقيق.

ورث إسحاق بك ما لم يكن يتصور أن يمتلكه في يوم من أيام حياته.

في يوم الأربعين، ذهبت جليلة له وقالت بصوت حرباء:

مرَّ أربعون يوما والحزن يقتلك. قلبي معك فقد كانت المرحومة لا تعوض، ولكنَّ لجسدك عليك حقّا.

ضربة قاصمة والله يعلم ما في الصدور.

سمعت جليلة بوضوح صوت الزغاريد التي كانت تزقزق في صدره. قالت له بجرأة تحسد عليها:

لي يا إسحاق بك أخت فلقة قمر، لم يرَ الكون في جمالها سوى نفرتيتي جميلة الجميلات. أتمت السادسة عشرة من عمرها اليوم. لا أرى لك عروسا سواها. أحضرتها من قصر والدي الليلة لترى بنفسك ما أقوله لك عنها. فما رأيك؟

أعجبتها جملة «قصر والدي» التي نطقت حروفها بتفخيم أدخل السرور إلى قلبها. لم تتصور جليلة أن تترك ميراث الهانم يذهب بعيدا عنها، وكانت على ثقة من فتنة أختها ورغبة إسحاق بك في التنفس خارج دائرة المسنات.

وبعد الأربعين بأربعين يوما، تزوج إسحاق بك أريج مهران.

لم يشمل الميراث قصر الهانم الفاخر فأوحت جليلة لإسحاق أن يبني منزلا يضمهم. ومن يمكنه أن يبني العمارة سوى أخيها المهندس «نهاد مهران»؟ وبزغت البناية التي أقطنها من مخيلة هذه المرأة الجهنمية. ومن القصر انتقلت سيارة هتلر إلى جراج منزلي ووقعت أنا في حب ملاك هتلر الفضي

الذي يتقدم العربة.

* * *

جسد برلنتة الشفاف في حمام سعيد السعداء

«هل تعرف أنني عندما كنت هذا الصبي الذي ينبش الهواء بحثا عن أفخاذ بيضاء متلألئة لفتيات جميلات، كنت أعبر مترو حلوان مرورا بالسيدة زينب إلى المنيرة بعد أن أشتري ترمسا وحمصا من محل عم مدبولي في شارع خيرت، وأتحول إلى ضبع نهم يبحث عن فريسة يلتهمها بعينيه الجائعتين. ولكن بمجرد ولوجي إلى قلب المنيرة، يتحول هذا الضبع إلى كناري لا يسأم التغريد بلا كلل. كنت دائما ما أصل إلى المنيرة وقت الشفق حين يتبعثر اللون الدامي من الجهة الأخرى للنهر ليحيط قطع القطن الأبيض بخيوط من نبيذ. حينها كانت الفتيات اللدنات يبدأن دروس البيانو. أتابع بشغف البنات وهن يهرولن بتنورتهن الزرقاء، وقمصانهن البيضاء، وجواربهن الوردية القصيرة ذات الفراشات، وأحذيتهن السوداء اللامعة؛ ليلحقن بدروس الموسيقى. ومع تسلل النغمات عبر الشرفات كنت أبطئ خطوي لأتنسم الألحان حتى صرت أسير عوالم السيمفونيات. كانت المنيرة بعد الغروب تتحول إلى صالة تدريبات داخل الأوبرا الملكية المصرية. تأسس الحي بأفراح زفاف بنات الخديوي إسماعيل الثلاث واستمرت الليالي الملاح لأكثر من ثلاثين ليلة وليلة بقيت فيها شوارع المنيرة منيرة. واحتفل سكان الحي بالموسيقى والألحان ليظل حيهم منيرا دائما كسراج ينشر الضوء على العالم».

اختفى أبي من حياتي إلى الأبد. وتطوع آخر أن يلعب هذا الدور. هو من كان يطيب له أن يحكي لي ونحن نسير تحت منزلنا قصص حي المنيرة الذي أسكنه. يأخذني من يدي في يوم العيد وينزل بي إلى الشارع ليشتري لي بسبوسة بالقشدة، ويشير إلى الشرفات التي كان يتسرب منها يوما عزف المراهقات. تزوجته خالتي برلنتة لثرائه. كان «رزق ولعة» عظاما ناتئة بلا لحم، تكسوها بذلة شركسكين بيضاء لامعة معلقة فوق كتفين بارزتيْن. تطل فوق البذلة عينان ككرتين من لهب داخل وجه مستطيل، يسير أمامي وهو يحرك ذراعين أطول من المعتاد، وهو يجدف وكأنه مقصوص الجناحين. كان خالي رزق – كما كنت أناديه - يحتكر توزيع عيدان الثقاب في مصر؛ ولذلك أطلقوا عليه لقب «ولعة»، ومن عيدان الثقاب كوّن ثروة كبيرة. يكبر رزق ولعة خالتي بقرابة عشرين عاما. طلق زوجته الأولى ودخل دنيا جديدة ولكنه لم يتصور أن دنياه الشارقة سوف تقفز به إلى سماوات لم يفكر قطُّ في الوصول إليها. كانت برلنتة الوحيدة التي ورثت عن أمها كرنفال الألوان. كانت تعرف بالتأكيد أنها جميلة فلم يكن صعبا إدراك هذه الحقيقة. كما تعرف أن أمها تعاند العالم لتعيش كما عاشت طوال حياتها وسط الشريحة العليا من الطبقة المتوسطة. أحزن أمها بستان كثيرًا انتقالها بعد وفاة زوجها من جاردن سيتي إلى المنيرة. على الرغم من أن شقة المنيرة كانت أكثر اتساعا، وصاحبة العقار اختارتها خصيصا لأنها زوجة أحد أقطاب حزب الوفد، لكن كان مرورها في شارع قصر العيني من غربه إلى شرقه ضربة موجعة لها، مرور هذا الشارع كان إشهارا لها بهبوط في الشريحة الاجتماعية التي اعتادت

الانتماء إليها. وكان عليها بأي ثمن الثبات في موقعها الجديد؛ لأن فكرة استكمال طريق الشرق والانتقال إلى الجانب الشرقي من خط المترو للسكن في المنطقة المتاخمة للسيدة زينب كان يمكن أن يقتلها بالفعل. عدل زواج برلنتة برزق ولعة الوضع المالي، وأعاد الأوضاع إلى ما كانت عليه من بحبوحة.

إلى هنا كانت الأمور تسير بصورة مقبولة للجميع إلى أن حدث حادث قلب عالمي القديم: «وإياكم محدثات الأمور». فقد وقعت في أحد الأيام في عشق خالتي، وأصبحت بعد هذا الحادث أعتبر «رزق ولعة» غريمي الوحيد في هذه الدنيا الواسعة، ثم تطور الأمر وبدأت أفكر في موته في صباحي ومسائي. بدأت قصة حبي كعادة قصص الحب بنظرة عين. منح الرب لمحمد عبد الوهاب أذنين ومنحني عينين. أدركت مبكرا أنه يسكنني وشق مصري. هذا القط المتوحش الذي يطلق عليه «عناق الأرض» ذو العينين الهلاليتيْن اللتين تريان الفريسة من على بعد أميال. لم أكن أحتاج إلى أميال مثل الوشق الذي يسكنني؛ لأن بين شقة جدتي وشقة خالتي كانت هناك شرفة مشتركة بين حجرة نوم أمي التي أنام فيها معها، وبين حجرة نوم خالتي في الشقة المجاورة. في الأصل كان هناك حائط في وسط الشرفة يفصل بين الشقتين، ولكن قررت بستان هدم هذا الجدار لتسهل انتقال ابنتها من غرفتها إلى حيث تقيم أمها. كنت أنط وأنقز بلا كلل في كل ركن حتى أسموني «فرقع لوز»، وأتنقل من مسكننا إلى مسكنها عبر هذه الشرفة كما لو كنا نقيم في شقة واحدة. وفي يوم شتوي، كنت أجري بلا معنى عندما لمحت خالتي تستحم عارية وقد تركت باب الحمام مواربا. انبهرت أنفاسي من فكرة وجودها عارية تحت الدش. دقت في رأسي طبول التلصص بكل عنف. لم أستطع بالطبع أن أقف أمام الفتحة الصغيرة للباب لأتأمل بياض جسدها الشاهق. فظللت أجري كالمجنون أمام الباب مرة، وأسير ببطء مرة أخرى. وفي كل مرة أخطف نظرة سريعة لألتقط قطعة من المرمر المنحوت في عمق الحمام. بعدها بدأت خالتي تزور أحلامي لأستيقظ من النوم وأجدني متشنجا تحت الغطاء. بت لا أفكر سوى في محاولة معرفة المواعيد التي تأخذ فيها حمامها. أسبوعا وراء الآخر، ومع تركيزي الشديد في الأمر أصبحت خبيرا في المواعيد التي تأخذ فيها خالتي حمامها. وأصبحت النظرة المخطوفة من فتحة باب الحمام هي كل ما أنتظره من حياة العصفور التي أعيشها. تخيلت أنني أصبحت خبيرا في درجة اعوجاج رقبتي أمام الباب وكأن صدفة جعلت رأسي يدور وأنا ألتقط مرة جزءا من صدر خالتي، ومرة أخرى لقطة لعقيق فخذها ومرة ثالثة أنظر إلى ما بين ساقيها. وفي يوم وأنا أمارس هوايتي في القفز أمام باب الحمام وهي تحت «الدش» حدث ما لم أكن أتخيل حدوثه. نادت على اسمي. ثبتُّ في مكاني. شعرت حينها أن أجلي قد اقترب. سمعت حركة ساقيها وهي تخرج من البانيو. ثم فتحت باب الحمام ونادت عليَّ مرة ثانية. سرت نحوها مطأطئ الرأس أنتظر توقيع الجزاء. وعندما رفعت رأسي فوجئت أنها خرجت عارية تماما. تابعت قطرات

الماء وهي تتساقط من ساقها على الأرض. قالت لي بهدوء:
لا أريد لابن أختي أن يتلصص مثل اللص. العيب أن تكبر وأنت تحمل روح السارق. عندما تريد شيئا قل إنك تريد هذا الشيء.
لزمت الصمت.
سألتني:
هل تحب أن تراني وأنا آخذ حمامي؟
لم أرد.
كررت سؤالها بقوة.
أجبت بصوت منكسر:
نعم، أحب.
أدخلتني الحمام. جاءت بمقعد خشبي صغير موجود تحت سخان الغاز على شكل قرص دائري أبيض اللون بأربع أرجل قصيرة ووضعته في وسط الحمام.
قالت لي:
اجلس هنا وتفرج كما شئت.
جلست. دخلت خالتي في البانيو واستكملت حمامها وهي تغني بصوت خافت أغنية محمد عبد الوهاب «المية تروي العطشان». لم أستطع في البداية أن أتابع حركتها تحت الماء ولكن اكتسبت بالتدريج شجاعة. لاحظت وهي تمسك بالليفة وتدعك المرمر أنها تتابع نظراتي الملهوفة بابتسامة هادئة لم أفهمها. لم أكن قادرا على الجلوس؛ لأن كل عضلة في جسدي كانت في حالة ارتعاش. انتهى المشهد الأكثر تأثيرا في حياتي بإغلاقها صنبور المياه. طلبت مني أن أناولها منشفة. مررت المنشفة ببطء على كل قطعة من جسدها. ثم بدأت تدلك ذراعيها وساقيها بزيت اللوز.
أصبح هذا البانيو لفترة هو مكمن أحلامي الجنسية.
هل ثقل قلبي يا ربي من حبي لخالتي، أم أن الحب يجعل القلب أكثر خفة؟ ما أعرفه أنني جريت بعدها إلى حجرة نومي. أخذت كراس الرسم وقلم رصاص. بريته جيدا حتى صار سنه كرمح قادرًا على خرق أي جسد. وضعت السن على الورق الأبيض الناصع، وظللت ألهث وراء خيوط جسد برلنتة التي لا تنتهي. ظلت ألوانها هي معياري الوحيد للجمال: لون جلدها الأبيض الوردي، واستدارة الثدي صغير الحجم، ومقاس قدمها والتفاف فخذها. يكتمل جسد المرأة تحت وقع ضرب الفرشاة عندما يقترب من جسد خالتي في تلك اللحظة داخل البانيو.
* * *
سألتني برلنتة في أحد الأيام وأنا أقترب من الخمسين: من أكثر امرأة هام بها قلبي؟
أعتقد أحيانا أنني أحببت أشياء وأياما، ولم أحب بشرا.
هل عرفت الحب، أم لم أذقه؟

قلت لخالتي وأنا في حيرة من أمري:

«لمست الغبطة والمسرة واللذة، ولكنني لا أعرف هل اختبرت هذا الحب الذي يتم الترويج له في المقررات الاجتماعية».

سعيت لا شك طوال حياتي إلى أن أمد ذراعي ما استطعت لأطاول هذا العشق المقيم في سابع أرض. ولكنني وأنا أسعى إلى حالة النشوة والجذل اعتدت أن أكذب ببراعة في موضوعات الغرام، أن أمثل أمام من ألعب معها المشهد العاطفي. أتقمص دور الولهان حسب تصوري لما تحتاجه من تلعب الدور أمامي من كلمات ولغة جسدية. مرة بعد الأخرى أصبحت لا أعرف على وجه الدقة متى أمثل ومتى أكون «صادقا». أنا أجهل في الأصل معنى كلمة «صادق». فالدور الذي أتقمصه يكون حقيقيّا ولا شك. أتبنى خلال تمثيلي لدوري كل المشاعر العاطفية التي يجب أن يشعر بها المحب.

وددت دائما أن أمسك في يدي بهذا الخيط الفاصل بين التشخيص والواقع.

هل هذا الخيط موجود في الأصل؟

هل أحببت؟

هناك نساء بالتأكيد أثاروا في روحي طوفانا من عواطف أدارت جسدي وروحي. وكانت صورتهن لا تفارق مخيلتي. ولكن خلال هذا الطوفان كنت قادرا بصورة طبيعية جدّا على أن أمارس الجنس مع أخريات وأنا أشعر بمتعة كاملة معهن، دون أي شعور بتأنيب الضمير تجاه من تشغل خيالي. ثم تختفي تلك وتظهر أخرى ثم أخرى وفي كل مرة ألعب أدوارا تمثيلية جديدة. هل هذا معناه أنني لا أحب سيدة المرحلة؟ لا أعرف. لكن ما أعرفه على وجه الدقة أن هناك لحظات بعينها، أياما يمكن عدها، حفرت في وجداني نهرًا عميقًا من مشاعر صادقة.

هأنذا أعود إلى «الصدق» مرة أخرى.

الغريب أن هذه اللحظات/ المحطات التي شكلت عمري لم تكن مع النساء اللاتي قضيت معهن عمري.

هذه الأيام بالتحديد هي التي تركت منمنمات ظللت أرسمها مرات ومرات، سيرتي شكلت معرض لوحاتي. أيام بعينها تعاود دائما القفز داخل مخيلتي. ولا أعرف على وجه الإطلاق لماذا هذه الأيام تحديدا هي التي تعاودني مرارا.

ومن ضمن هذه الأيام يوم «دنيز».

* * *

الجدار العظمي لقسم اللبان والسباحة مع دنيز

طلب منا الضابط بلهجة آمرة الانتظار في القاعة الرئيسة في قسم اللبان. صالة حيطانها رمادية كالحة عابسة تدعو الجالسين فيها للدخول في حالة اكتئاب. رائحة بول مخلوط برائحة مجارٍ تملأ قسم الشرطة. عنصر الجمال غائب عن كل تفاصيل المكان. يجلس ثلاثة شباب لم يخط شاربهم بعد وراء خوان وهم يرتدون ملابس الشرطة. تركنا الضابط في هذا المكان فظللنا جالسين على لوح خشبي متهالك يلفنا الصمت وأنا في حالة وجد من لحظة مدهشة سبقت القبض علينا حتى كسر أنجلو حاجز السكوت وبدأ الحديث:

ـ هل تعرفون من قائل عبارة: «الحرية هي الجريمة التي تحتوي على الجرائم كافة»؟

ردت الجميلة:

ـ أظنه هيجل.

وأجبته أنا:

ـ بل الماركيز دو ساد.

فرد علينا «أنجلو»:

ـ يكرر البشر عبر التاريخ ما يقوله الآخرون. على الأرجح أن كلا الاثنين عبَّر عن هذا المعنى وغيرهم كثيرون. ثم استعملت العبارة بالتأكيد في ثورة ٦٨ في فرنسا. يسعد كل جيل بأبناء جيله ويظن أنهم جاءوا بجديد. ولذلك أكررها أنا الآن على لساني هذه المرة. «الحرية هي الجريمة الحقيقية التي تسعى الشرطة إلى خنقها». العدالة في أذهان السياسيين ورجال الأمن لا تتحقق إلا بأدوات القمع والإذلال، والشرطة بوصفها أداة قمع هي أداة تطبيق العدالة، إذن القمع والإذلال والإهانة هي الوجه الآخر للعدالة. أو فلأقل هي وجهها الحقيقي. وهذا ما نعيشه الآن في هذه اللحظة التاريخية داخل القسم الذي استقبل ريا وسكينة. تجلي العدالة في أعظم صورها.

ابتسمت «أفروديت» وهي تقول:

ـ الأهم أن من يُناطُ بهم تطبيق هذا القمع العادل هم من أبناء أكثر الطبقات انغلاقا. فيتداخل العدل والقمع مع المحافظة والانغلاق في كونشرتو بديع.

رد «أنجلو»:

ـ لا يمكن أن يسمح الساسة بمنح حرية كفيلة بالاستخدام العام للعقل. وبالتالي لابد لأدوات القمع أي رجال الشرطة أن تكون من بيئات اجتماعية منغلقة.

ضحكت «إليني» المرحة دائما وأبدًا وقالت:

ـ وليمت كل من ارتدى مايوها.

سدت الجميلة أنفها وقالت بصوت أخنف:

ـ الموت من رائحة مجاري أقسام البوليس أسمى آيات العدل.
استفسرت إليني بسذاجة:
ـ هل قبضوا بالفعل علينا؛ لأننا نرتدي ملابس قصيرة؟
قلت لها بحزم:
ـ بالتأكيد.
ظللت أتأمل وجوه البؤساء الصغار الذي يرتدون ملابس الشرطة وقد أكلت أجسادهم الصغيرة البلهارسيا أو الفقر أو الجوع. تدل ملامحهم على أنهم فلاحون من الدلتا. تعلو الصفرة وجوههم. لم أفهم كيف يعملون وهم في هذه السن المبكرة. هل يا ترى لدى هؤلاء تعريف لما هية العدل، أم أن مفهومنا للعدل موجود داخل ضفيرة شفرة الإنسان الوراثية؟ كان ثلاثتهم يخطفون أبصارهم في عجل أو في خجل لاختلاس نظرة لسيقان أفروديت وإليني والجميلة التي نسيت اسمها. هل تُذكّرهم هذه السيقان يا ترى بحبيبة بعيدة، أم أنها تملأ النظرة المختلسة شعورا بكبت جنسي أصيل؟ نظرت إلى الذكر الآخر في القاعة لكنني وجدت «أنجلو» يرنو إلى الفراغ، بينما ظل أفراد الأمن يملئون حدقات أعينهم بمنحنيات أفخاذ البنات البضة، أما الفتيات الثلاث فكن يتأملن كل هذا ضاحكات. استغربت أنهن لم يبدين أي شعور بالخوف من كوننا مقبوضا علينا في قسم شرطة في الثانية صباحا. محتمل أن وضعهن الاجتماعي والمالي جعلهن دائما خارج دائرة الرعب المتأصلة في أرواح الأغلبية المطلقة من المصريين.
أوقفنا الضابط في لجنة مرورية في حي بحري في الإسكندرية وكنا في طريقنا من هانوفيل وهو الحي الذي يقع غرب العجمي متوجهين إلى الإبراهيمية لتناول المهلبية بالجيلاتي. نظر الضابط إلى سيقان البنات الثلاث وبدأ أسئلة لا نهاية لها. أين، ومتى، ولماذا، وكيف؟ كان زمن قانون الأحكام العرفية قد بدأ في العام السابق، وسيظل قائما معظم سنوات عمري. وبلا أدنى شك سيقان عارية بعد منتصف الليل كفيلة بتعريض نظام الأمن العام للخطر الداهم.
انتهى الحوار بين «أنجلو» والضابط بذهابنا إلى قسم شرطة اللبان تحرّ فقد كانت البنات الثلاث دون بطاقات هوية، وكان من الواضح أن الرجال في اللجنة في حالة هياج بهيمي. وبدأنا ليلة طويلة داخل القسم مع أرواح ريا وعبد العال؛ لأننا لم ندرك ببساطة فارق التوقيت الزمني بين هانوفيل والإسكندرية. كانت هانوفيل في النصف الثاني من شهر سبتمبر تعيش في التوقيت الصيفي، أما الإسكندرية فكانت قد دخلت في التوقيت الشتوي بعودة التلاميذ إلى المدارس. خرجت أفروديت والجميلة بمايوهات فوقها شورت قصير، وإليني بفستان لا يغطي من جسدها غير النزر اليسير، أما أنجلو وأنا فقد ارتدينا كذلك ملابس تليق بشاطئ. كنت عندما توقفنا في اللجنة المرورية في حالة انتشاء من الطرفة السحرية التي سبقت أسئلة الضابط السمجة بدقائق. لحظة حفرت في ذاكرتي بنقاط من نور.

وصلنا حي بحري ومررنا في شارع ضيق اصطفت موائد مطاعمه على الرصيف. احتل البشر المقاعد والأرصفة والأسفلت. تداخلت رائحة شواء لحم الضأن وشواء السمك مع أنواع من الكولونيا الرديئة. تعالى صوت عبد الحليم حافظ من مذياع السيارة وأنا من فرط الإنهاك وزجاجات البيرة التي احتسيناها في فيلا «فيروبولوس» سكران. طربت من صوت عبد الحليم فغنيت معه: «أنا لك على طول خليك ليَّا». تمايلت البنات على لحن الأغنية. وقفت السيارة التي تسير أمامنا. جلست عائلة حول مائدة عليها أطباق من الطحينة وبابا غنوج وقطع الجزر المخلل والجبنة البيضاء بالطماطم والسلاطة الخضراء. تدلَّى ربع المائدة خارج الرصيف. أب وأم وثلاث فتيات ينتظرون الكباب. تسمرت عيني على واحدة منهن. شعرها موج. حاجباها هلالان في سماء رائقة. عينان محفورتان تبتسمان لي في غنج. كانت لم تتعدَّ العشرين من عمرها ولم أكن قد تعديت الثالثة والعشرين من عمري. وقف أنجلو بالسيارة حتى أصبحت بجوار وجه الفتاة تماما.

تواجهنا على مهل وكأن الزمن قد توقف لوهلة لأتذكر وللأبد هذا الوجه.

قالت لي هامسة عندما تقابلت عينانا:

«أنا لك على طول».

فقلت لها:

«خليكِ ليَّا».

مدت يدها لي وكأنها تحمل في كفها زهرة. مددت يدي أنا الآخر لتتلامس أناملنا، أصبحنا لوهلة ذراعين منتصبتين داخل كنيسة «سيستينا». وتقدم أنجلو بالسيارة وأنا مازلت أستمع إلى صوتها وهي تهمس لي: «من أول يوم راح مني النوم».

لم يفارقني وجه هذه الفتاة.

فارقتني وجوه لازمتني سنوات طويلة. أما هي فظلت معي دائما. ولا أعرف لهذا سببا.

* * *

كنت قد سافرت إلى الإسكندرية في صباح هذا اليوم لزيارة أفراد عائلة «فيروبولوس»، أصدقائنا التاريخيين، الذين قرروا الرحيل عن مصر بعد أكثر من ثمانين عاما على وصول الجد إلى الإسكندرية. وصل إليكسي فيروبولوس من مدينته أثينا إلى ميناء بورسعيد في الثامن من سبتمبر من عام ١٨٩٩ ومنها انتقل إلى المنشية للعمل مع عمه في محل مانيفاتورة. سكن إليكسي في شارع «النجاح» وقرر أن تصير حياته كما عنوان الشارع من نجاح إلى آخر. كان يكرر أنه لم يختر اسم الشارع ولا مكان إقامته ولكن القدر هو الذي قرر له مصيره. وكعادة هذه النوعية من الحكايات، تزوج إليكسي ابنة عمه التي تأخرت في الزواج. وأحضروا للدنيا ريتا الصديقة الصدوق لجدتي بستان. حكت لي ريتا أكثر من مرة ما قاله لها والدها وهو على فراش الموت: «استطعت دائما تحديد الموضع الظاهري للأجرام السماوية في التواريخ

والأوقات، واستطعت بالحدس والتبحر في علم الأبراج أن أحقق النجاح في مجال الأعمال والمال وأقتنص نصيبي من الدنيا».

بدأ إليكسي في بناء شركة سوف تكبر وتتمدد ببطء لتحقق لاحقا مكاسب كبيرة. تلتحق ريتا بالميردوديو ويأتي حظها الجميل أن تجلس بجانب بستان في نفس الفصل الدراسي وتصبحا على مدار العمر كأختين. ومن حكايات بستان وهي تحكي لي وأنا أدلك قدميها، أصبحت أعرف إليكسي كما لو أنني رأيته رأى العين. تتزوج ريتا بواحد من فزع آخر من عائلة فيروبولوس في نفس الفترة التي تزوجت فيها جدتي. وتأتي له بولدين أدونيس ونيكولا. يهاجر الأخ الأكبر أدونيس إلى اليونان في عام ١٩٦٤. وتموت ريتا وزوجها في الإسكندرية في منتصف السبعينيات. ويظل الابن الثاني نيكولا متمسكا بمدينته حتى أتلقى منه مكالمة تلفونية في سبتمبر من عام ١٩٨٢.

ـ اشتقت إليك يا شهاب. وألف مبروك على تخرجك الباهر في كلية الفنون الجميلة.

ـ ألف شكر. كيف حال إليني وأفروديت وأخي الحبيب أنجلو؟

ـ مصدر إزعاج دائم كعادتهم. يظل العيال عيالًا.

ـ أمعنى هذا أنني ما زلت عيلا؟

ـ أنت فنان كبير؛ وبالتالي دعني أخبرك بكل فخر أنني سوف أخرجك من زمرة العيال.

ـ خبر سعيد.

ـ لكن للأسف لديَّ يا شهاب خبران حزينان.

أخبرني أن زوجته توفيت منذ أسابيع قليلة. بكيت وأنا أستمع إلى صوته يقص عليَّ كيف كانت لحظاتها الأخيرة. كم كنت أحب «دنيز». كيف لم يصل إلينا الخبر؟ لا أعرف. الخبر السيئ الثاني أنهم قرروا بعد وفاتها تصفية أعمالهم والهجرة إلى اليونان. عرفت منه أن زوجته «دنيز» هي من كانت ترفض بإباء وشمم فكرة الرحيل عن الإسكندرية. سألني:

ـ ماذا تفعل يا شهاب هذه الأيام؟

ـ أحلم وأنا نائم بنقوش وألوان، رقش ووسم وزخرفة. أما وأنا مستيقظ فأرسم.

ـ ما رأيك في أن تحضر إلى هانوفيل وتقضي معنا آخر أسبوعين لنا هنا؟ أريد أن أوثق لحظة الوداع بالفن التشكيلي وليس بالتصوير الفوتوغرافي. تماما كما فعل أبي وطلب من صديقه «روسي» أن يرسم له حيطان الفيلا. هل تتذكر يا شهاب هذا الفنان؟

ـ كيف لي أن أنسى «روسي». لقد قابلت هذا الفنان الإيطالي وأنا ما زلت طفلا يجلس مع والدك وفي يده رمانة كتلك التي رسم شجرتها على حائط حجرة الجلوس.

ـ كان سوف يغضب منك لو سمعك تقول عليه إنه كان إيطاليّا. كان يعتبر

نفسه سكندريًّا وفقط. كان يكرر أن حدود دولته وعالمه هي الإسكندرية.
ـ كان فنانا جميلا يرحمه الله.
ـ أطلب منك أن تحضر بفرشاتك وألوانك وأقلامك وأوراقك وأقمشتك. ترسمنا وترسمك وترسم الفيلا والبحر والرمل والسماء. ما رأيك؟ نسيت أن أقول لك. لقد بعت الفيلا وسوف نسلمها للمشتري بعد هذين الأسبوعين. سوف يبني مكانها عمارة قبيحة في مثل قبح العصر الذي نعيش فيه.
يا له من خبر مؤلم ثالث. قضيت في هذه الفيلا أياما لا تنسى. كانت بستان تأخذنا لريتا ونذهب جميعنا إلى هانوفيل وهناك وقعت في حب أفروديت التي تصغرني بعام واحد. كنت أقبلها وأنا أتابع سيقان إليني وهي تدرس فن الباليه، ومن الخارج يتسرب صراخ الأهالي على الشاطئ وهم ينادون على أولادهم التائهين. بينما أنجلو منكب على الأوراق يحل مسائل رياضية معقدة.
قبلت عرضه دون تفكير. سافرت في اليوم التالي إلى هانوفيل بالسيارة الأمريكية الشاسعة لسيادة العميد زوج والدتي المبجل. استمعت طوال الطريق إلى أغانٍ هزت مشاعري وأنا أحاول أن أنسى كل هذا الأصفر من حولي الباعث على السأم. غنيت مع محمد عبد الوهاب مواله «في البحر لم فتكم في البر فتوني» دون أن أدري أنني على موعد مع البحر وأنا أسبح مع «دنيز».
كان وجه أنجلو أول من استقبلني عند وصولي. نظرته زائغة. ممتدة إلى فراغ لا يدركه سوى المهموم أو المكلوم أو المهزوم. يكبرني أنجلو بأربع سنوات، شعلة من الذكاء، تفوق لم أسمع عنه من قبل ولا من بعد. لولاه لظللت في الصف الثالث الإعدادي حتى الآن. هو من ساعدني على فك شفرة الفيزياء. ولكن لأن الحلو دائما منقوص، فقد ضاعت منه شعلة الرغبة في أن يتم أي شيء. وجدت أفروديت وإليني في الصالة، أخذتهما بالأحضان وأنا في حالة ابتهاج حقيقية برؤية ثلاثتهم. تركت أفروديت شعيرات تنمو فوق شفتيها وعلى فوديها، ثائرة كعادتها على القواعد المرعية، كل ما فيها دقيق، على عكس إليني طويلة الساقين والأنف والشعر واللسان. عندما صعد أنجلو إلى الدور العلوي سألت أفروديت: أين ذهب النور من عيني أخيكِ؟ قالت لي إنه يرفض فكرة الهجرة إلى أثينا. وأين أبوكما؟ سوف يظل في الإسكندرية حتى الغد.
تطل دار فيروبولوس على الشاطئ مباشرة. المبنى مكون من دورين. في الدور الأرضي مساحة رحبة للمعيشة: حيطانها أشجار رمان، ونخيل دوم، وقنوات ماء رقراق، ونساء ورجال وأطفال يحملون زهور اللوتس والبردي. وحجرة للطعام وحجرة نوم للضيوف. وفي الدور العلوي أربع حجرات نوم. وبين المبنى والشاطئ حديقة واسعة نضرة في وسطها حمام سباحة، وبجانب السور مبنى صغير لتغيير الملابس يحتوي على أربعة حمامات.
عاد أنجلو حاملا لبنا بالجوافة مذاقه من الجنة. أخذت كوب اللبن وخرجنا إلى الحديقة. سألته عن وجهه الجامد فقال لي إن النهايات ليست قاطعة كما

ينبغي لها أن تكون، وإنها في امتدادها الزمني تطحن عظامه وهو عاجز عن خط لحظة موت الأشياء والدقائق.

ـ يا أنجلو إن الحياة طريق ليس له بداية ولا نهاية.

رد بجفاء:

ـ مأساتي أن عمري طريق لا أرى له نهاية.

أمسكت بفرشاة من حقيبتي وحركتها أمام وجهه قائلا: سوف ألوِّن حزنك بألوان البشاشة والبهجة. ثم هددته بكفي الغاضبة وطلبت منه أن يبتسم. ابتسم بصعوبة وقال: سوف أكون من أجلك مرحا لمدة أربع وعشرين ساعة.

على الرغم من أنني كنت واثقا أنني لن أرسم لوحات لها قيمة فنية، فإن انعكاسات وانكسارات الأضواء قبل الغروب أشعلت قبسًا أضاء روحي. طلبت من الثلاثة أن أبدأ في رسمهم من فوري وهم يفترشون الأرض مستندين إلى الزجاج الفاصل بين الصالون والحديقة، وخلفهم الخضرة وحمام السباحة فالشاطئ ثم البحر والسماء وبقع السحاب التي أخذت أشكالا لحيوانات في غابات استوائية لم أكن قد رأيتها بعد. استأذنتهم ودخلت بعفوية إلى غرفة الضيوف التي اعتدت أن أقيم فيها حيث كان هناك حامل لوحات تركته في العام الماضي. وجدت شابة باهرة الجمال ترتدي مايوهًا بكينيًّا مستغرقة في النوم. وصفها مستحيل فقد منعني ضوؤها من أن أتأمل تفاصيلها. ما كل هذا الجمال؟ أي عدالة في التوزيع يمكن أن نطمح إليها وهذه الفتاة تحتكر كل هذه النضارة؟ جرت أفروديت ورائي وطلبت مني ألا أوقظها. أخذت الحامل وخرجنا إلى الصالون وأنا أقول لها:

ـ أتعرفين أن الجمال أكبر دليل على قسوة الحياة؟

لم تفهم ما أقول ولم تهتم بأن ترد. فردت التوال على الحامل وأخرجت الألوان وعقلي وروحي ملتصقان بجسد الجميلة النائمة. أحضر أنجلو صندوق بيرة مثلجة وبدأ من فوره في احتساء أول قنينة. لم تكن البيرة من المشروبات المتواجدة عادة في منزلنا. كان خال أمي يوسف يشرب يوميّا على الغذاء والعشاء كأسا من الكونياك. وكانت جدتي بستان تشرب أحيانا كأسا من النبيذ الأحمر على العشاء. كنت أشاركهما أحيانا بكأس من نبيذ أو من الكونياك، لكن لم تحصن هذه الكئوس رأسي من الدوران بعد ثالث زجاجة ستلا. بدأت في الرسم قبل أن يحل الظلام، ولكن استيقاظ الجميلة التي لا أتذكر اسمها أوقف يدي عن الحركة. كانت أكثرهن شبها بأفروديت: كاملة الرغوة ملفوفة في أم اللؤلؤ. نظرت إلى عينيها فأدركت أن حزنها البادي يمكنه أن يغرق هانوفيل بالكامل. أعلنت بصوت أجش أقرب إلى صوت الرجال أن عصر الأحلام انتهى وأننا سوف ندخل لمدة قرن في كابوس سوف يرعد عمق المحيط. قتل أبوها الفلسطيني في مذبحة صابرا وشاتيلا منذ يومين فقط. قالت إن ما تمَّ في المذبحة كان بتحالف إسرائيلي عربي لقتل عرب، وهذا التحالف الميمون سوف يكون عنوان سنوات عمرنا مهما طالت أيامنا. لم أكن أتصور حينها أن نبوءتها سوف تتحقق بهذا الجلاء، وأن حياتي كلها سوف

تكون تحت شعار الهزيمة المدوية.

كانت والدة الجميلة الحزينة يونانية سكندرية أحبت فلسطينيًّا يدرس في جامعة الإسكندرية. ثم بعد زواج لم يدم طويلا تمَّ الطلاق وترك الأب الإسكندرية راحلا إلى بيروت. جمع الحزن بين أنجلو والجميلة وقررا أن يتلاصقا في الحياة دون أن يأملا في الغد خيرا.

* * *

استدعانا الضابط أخيرا. فطلبت منهم أن أدخل وحدي.

كان الضابط في حوالي الخامسة والثلاثين من العمر. واضح تماما من لهجته الريفية أنه فلاح من الدلتا. بادرني بنفس السؤال مرة جديدة:

ـ من هؤلاء الفتيات؟

ـ أختان وصديقة من الجالية اليونانية. والد الأختين هو صاحب إحدى أكبر شركات الملابس في الإسكندرية نيكولا فيروبولوس.

ـ وماذا تفعل يا مصري مع الجالية اليونانية؟

ـ هم أحفاد صديقة جدتي. أعرفهم منذ الطفولة.

ـ ولماذا ترتدون ملابس البحر في الشارع؟ ألا تعرفون أن هذه الملابس ممنوع ارتداؤها في المدينة؟

ـ لم نكن نعرف. نعتذر للأمن اعتذارا من القلب.

ـ أستطيع أن أحيلكم إلى النيابة والقضية لن تكون سهلة. كما أستطيع تحويل البنات لشرطة الآداب؛ للتأكد من أنهن لا يمارسن مهنة الدعارة.

ـ أقول لك إنهن من أغنى سكان الإسكندرية.

ـ بالفعل يبدو عليكم أولاد ناس. ولكن هل من المعقول أن تسير الفتيات عرايا هكذا؟ قل لي ما أسماؤهن مرة ثانية؟

استمر الحوار طويلا. ثم تركنا لساعة أخرى في بحر القاذورات الذي كنا نعوم فيه. وانتهى الأمر بإخلاء سبيلنا في الخامسة صباحا. كانت خطة التهام أطباق المهلبية قد تبخرت مع أضواء الفجر، ووجه فتاة «أنا لك على طول» يكاد يضيع مني. قررت إليني أن نذهب إلى سوق السمك لشراء سمكة طازجة ونعود إلى المنزل لطبخها. تحمس الجميع للفكرة. قادنا أنجلو إلى شادر سمك في بحري. وهناك وجدنا دنيز في انتظارنا. سمكة كبيرة، ما زالت تتحرك داخل وعاء ممتلئ بالماء. أشارت إليها أفروديت وقالت: كانت أمي تحب هذا النوع من السمك. اشترينا السمكة وأطلقنا عليها اسم دنيز.

في المطبخ في فيلا هانوفيل أخرجت الجميلة صينية كبيرة، وأخرجت إليني بطاطس وبصلا وثوما وقالت لي أن أبدأ في تقطيع البطاطس.

لكن أفروديت قاطعتنا:

ـ ألا يجب أن نمنح دنيز الفرصة لأن تسبح في البحر للمرة الأخيرة قبل أن نأكلها؟

ردَّ أنجلو عليها:

ـ نعم. يجب أن تتمتع بالنزول في البحر قبل أن نطبخها.
سألت إليني بصوتها الساذج:
ـ وهل يشعر الموتى بطعم الأشياء وملمسها؟
ردَّ عنا أنجلو:
ـ لا أحد يعرف باليقين العلمي ماذا يحدث بعد الموت. على الأرجح أن بعد الموت يأتي العدم. ولكن بالنسبة إلى مؤمنين مثلكم، فيمكن أن نتخيل أن دنيز سوف تسعد كثيرا بملمس الماء حول جسدها.
خلعنا على الشاطئ المهجور الصنادل والشباشب، ومنحوني شرف احتضان دنيز والنزول بها إلى البحر.
نزل ورائي الجميع وهم في حالة جذل. سبحنا يومها لأكثر من ساعة ونحن نغني أحيانا، ونتفرج على وجه دنيز السعيد أحيانا أخرى، وأنا خائف أن تفلت من يدي دنيز وتضيع إلى الأبد. كنت بين الإنهاك والسكر وقلة النوم في حالة نشوى غريبة طعمها ما زال يطوف على لساني. خرجنا ولم أفقد دنيز. وضعناها بحرص داخل الصينية. وفي الصالون علت موسيقى تشايكوفسكي فرقصت إليني على خطوات «آنا بافلوفا»، وأمامها رقصت الجميلة «كاريوكا» ورقصت روحي وأنا أقطع البطاطس على أنغام صوت غناء برلنتة لأغنية عبد الوهاب وهي تستحم، وظلت دنيز معي في لوحاتي.
* * *

وجوه البطالحة المتطلعة للسأم الأعلى

خرجت من باب المدرسة لأجد أبي في انتظاري. لم أكن قد رأيت أبي أو سمعت عنه منذ تركناه في تونس قرابة تسعة أعوام هي كل سنوات عمري الواعي.

كان آخر يوم في امتحانات الإعدادية وكنت فرحا بانتهاء العام الدراسي وواثقا من النتيجة. ثقتي في هذا العام كانت في محلها، على عكس العام الذي تلاها. أتت الأسئلة كالعادة في شهادات وزارة التربية والتعليم أسهل كثيرا مما اعتدنا عليه في اختبارات المدرسة.

على مدار السنوات التسع لم يأتِ ذكر اسم أبي في منزلنا قطّ، تبخر الشمندر في الهواء. فكرت أكثر من مرة أن أسأل أمي عنه، لكنني خجلت لسبب مجهول. ظل رمزا مغلولا داخل قمقم ملقى تحت سابع أرض. فكرة لا جسد لها تحوم من حولي ولا أقوى على الإمساك بها.

لم تكن لديَّ صورة واحدة لأبي. تمَّ محو وجوده داخل ثقافة: «اكنس على القديم حتى يختفي تحت الوسخ».

كنت واثقا أنني لا أعرف له وجها حتى رأيته وأنا خارج من باب المدرسة واكتشفت أنني أعرف كل تفصيلة في محياه، أميز كل انحناءة في رسم صفحة وجهه. انبجست الذكريات كنبع صافٍ داخل روحي. لم أتحرك من مكاني. نظرت إليه وتجمدت. تقدم نحوي واحتضنني. أخذ يدي وسار معي حتى انتظمت مرة أخرى أنفاسنا.

ـ هل تعرف أنك كنت معي كل يوم منذ اختطفتك أمك من حضني؟

ـ لم ترسل لي خطابا واحدا طوال هذه المدة. تخيلت أنك نسيتني.

ـ وهل ينسى الإنسان روحه؟ أنا مازلت أقيم في تونس ولم أحضر إلى مصر إلا في مرات قليلة كنت أقيم خلالها في بلدي «البطالحة».

لم أعرف ماذا أقول له. شعور غريب أن تكون إلى جوار أبيك الذي تشعر تجاهه بما تشعر به النبتة صوب أشعة الشمس، وفي ذات الوقت يفصلك بون شاسع عن رجل لا تعرفه.

جمع أبي، هذا العملاق، في شخصه أربعًا لا يجتمعون عادة في رجل واحد؛ قسوة الوجدان وخفة الظل، وصلابة لا تنكسر، ورقة طباع، حتى إنه كان يبكي من الاستماع إلى بيت شعر. أخذت منه طوله الفارع وحبه للنساء ولم تصل لي جينات قسوته. أبي ذو وجه ضخم، يرتدي نظارة طبية تليق بأعمى. أصلع الوجه. ذو هيكل جسيم أهل أن يكون لمصارع. ابتسامته عذبة. ذقنه مقسوم لنصفين؛ نصف طيب ونصف شرير، نصف حكيم ونصف بهلوان. كنت أسير بجواره وأنا أرتجف من سعادة غامضة.

ـ سوف تبلغ الخامسة عشرة من عمرك بعد شهر واحد.

ـ أتتذكر عيد ميلادي؟

ـ يا حبيب قلبي أنت معي دائما. ما قصدت قوله إن القانون على ما أظن يمنحني الحق أن تنتقل للحياة معي. سوف نذهب معًا الآن إلى البطالحة، وسوف نتصل بأمك لنقول لها إنك سوف تقضي معي بعض الوقت. ولنفكر معا بوصفنا رجليْن بالغين إذا كنت تود أن تنتقل للإقامة معي في تونس وتحقق حلم والدك.

ملأني شعور بالابتهاج. سوف يأخذني أبي لأنتقل معه إلى عالمي الأول الذي أجهله.

كم نتوق دائما إلى هذا الغيب المبهم.

لقد تركت مهنة التدريس، وأعمل الآن مصحح لغة عربية في جريدة البيان. وأقوم أحيانا بأعمال ترجمة من الإنجليزية إلى العربية. أتعرف، لقد كبرت في السن وأحتاجك إلى جواري؟

كان ذا صوت آسر. ظللت أستمع إليه وهو يحكي لي عن تفاصيل عمله، حتى وصلنا إلى ميدان السيدة زينب. وجدنا هناك ابن أخيه، في انتظارنا بسيارته. طلب مني أبي أن أنتظر في السيارة حتى يتصل بأمي ليطمئنها ويبلغها أنني سوف أسافر معه لمدة أسبوع. تعرفت إلى ابن عمي «صالح» الذي كان عمره أقرب إلى عمر والدي، حتى عاد أبي وتوجهنا مباشرة إلى قرية البطالحة.

في الطريق هلَّ أمامي وجه أمي، ووجه بستان، وهما في حالة غضب. خطر لي خاطر أفزعني:

«ماذا إذا لم يتصل أبي بأمي؟ هل تعد هذه عملية اختطاف؟

كنت قاعدا في الخلف وحدي. يجلس أبي أمامي بجانب ابن عمي الذي يقود السيارة. شعرت لأول مرة بالخوف. كان عليَّ أن أذهب أولا إلى المنزل؛ لأبلغهم وأحضر معي ملابسي وفرشاة أسناني وأوراقا وأقلاما وألوانا.

أنا مسافر لمدة أسبوع بملابس المدرسة. أي جنون.

ماذا سوف يكون رد فعل أمي؟

سوف تفزع ولا شك.

ماذا فعلت؟

نهش قلبي قلق متصاعد، ثم بدأ ينهشه، وشريط سينمائي يمر أمام عيني من وجوه أصدقائي وزملائي وأهلي وأساتذتي حتى طفرت دموع حاولت إمساكها وفشلت. سعيت ألا يلحظ أحدهما ما ألمَّ بي من ألم. ظللت صامتا وذهني مشتت. ماذا أنا فاعل؟

طلبت من أبي بعد أن وصلنا إلى قرية البطالحة أن أتصل بأمي لأطمئنها بنفسي. قال لي إن الصباح رباح، وإن النهار له عيون، وغدا لناظره قريب.

أراني لأول مرة في مساحات خضراء مزروعة وبينها طرق رملية على جانبيها منازل قليلة، وأنا أستمع لأبي يحكي لي ذكريات مبعثرة عن قرية البطالحة وعن عائلته التي لا أعرف عنها شيئا. توجهنا إلى منزل جدي.

جلس عدد كبير من أبناء العائلة في انتظارنا. عرّفني أبي على الجميع قائلا: فلان الشمندر ثم صلة القرابة وكانوا في الأغلب أبناء عمومة. سلمت حتى آلمتني كفي. هذا الألم الذي صاحبني بعد ذلك في المآتم. أقف على باب القاعة أسلم على من يدخل ومن يخرج حتى تتشنج عضلات الكف. لا أنسى بعد ذلك بسنوات وقوفي أتلقى العزاء في والدي وسلامي على نفس من بقي حيّا ممنْ يجلسون اليوم في أول زيارة لي للبطالحة. سألت والدي هامسا: «كل هؤلاء الشمندر؟». فقال لي ضاحكا عائلتك كبيرة. ثم أنهى جملته: «أنت هنا وسط أهلك وناسك».

اصطحبني أبي إلى داخل الدار. قاعة طولية مستطيلة لم يصل نظري لنهايتها. مجموعات متتالية من أثاث ومفروشات وغرف معيشة، مجموعة تلو الأخرى، كل واحدة مكونة من أريكتين وأربعة مقاعد ومائدة في الوسط. وعلى الجانب الأيسر والأيمن للقاعة اصطفت أبواب لحجرات. تقدمني أبي ثم دخل من ثالث باب على اليمين. غرفة نوم واسعة مكونة من سرير نحاسي عتيق ودولاب عملاق وصور قديمة معلقة على الحائط. أشار لصورة وقال لي: هذا جدك الله يرحمه، وهذه عمتك الكبيرة، وهذه عمتك الثانية. ناولني جلبابا وطلب مني ارتداءه، وارتدى هو الآخر جلبابا ثم خرجنا للجلوس مع الجمع الوفير. كنت محط أنظار الجميع. ربَّت رجل مسن على كتفي وقال بصوت ودود:

ـ يشبهك ابنك يا زكي ويشبه المرحوم والدك رحمة الله عليه كان أفضل الناس. من خلّف لا يموت.

وقال آخر:

ـ شهاب ما شاء الله فارع الطول. فرع شجرتكم في الشمندر يأتون فقط بعماليق. فليجعله الله نصيرا للإسلام. ماذا تنتوي فعله يا زكي؟

ـ حدد الشرع والقانون أن ينتقل ابني للحياة معي بعد البلوغ. وكما ترون أمامكم، هو رجل عليَّ أن أزوجه وليس أن أضمه لي.

ـ ألم يحن وقت العودة إلى دارك وأهلك؟

ـ لكل أجل كتاب.

ـ ونعم بالله. ولكن من غير المنطقي أن تأخذه معك. اتركه معنا هنا.

ـ كلها أرض الإسلام.

أأنا في مأتم حياتي السابقة؟ لحظة وداع لكل من عرفت. خطوط رسم تخط حياتي القادمة ممن لا أعرف أسماءهم. عيون متطلعة بعضها أخضر وبعضها رمادي وأسود وعسلي. عيون نظرتها حادة، وثانية باسمة، وحنونة، وهادئة، وغاضبة، داخل وجوه متغضنة كبرا، ووجوه في حالة تعجب، وثالثة شاردة الذهن، ووجوه عذبة، وجميلة، وفخورة. كل وجوه البشر اجتمعت هنا وأخذت شكل دائرة التفت من حولي في هذا المجلس. ربما كانت هذه اللوحة هي أجمل ما رسمت في حياتي. العجيب أنني لا أعرف من اشتراها. أطلقت على اللوحة اسم وجوه البطالحة المتطلعة للسأم الأعلى. لم أرسم شيئا

من القرية. ما رقشت سوى وجوه أبناء أعمامي وعماتي وأحفادهم، وعيونهم التائقة المشرئبة للاشيء.

عندما رحل الجميع، جلسنا أبي وأنا وحدنا لأنفذ معه داخل جذوري.

كان والد جدي إقطاعيّا يمتلك ألف فدان، أصابته لعنة وفاة أبنائه الذكور، وعاش له سبع بنات. بعد أن أتمَّ الستين من عمره، نصحه الأصدقاء بإعادة نشر «خلاصة الإكسير في نسب الغوث الرفاعي الكبير» للعلامة «أبو الحسن علي الواسطي»، قالوا له إن تمويل هذا الكتاب وإشاعة النور الذي يضمه بين دفتيه كفيلان بأن يكونا الإكسير الشافي للذكر الطفل القادم. استمع والد جدي للنصح ونفذ الأمر. جاءته البشارة بعد توزيع الكتاب بعام واحد. علت صرخة الولد وملأت الدنيا حبورا. أشار عليه الخلق بإطلاق اسم عجيب ومختلف على المولود الجديد حتى لا يأتي له عزرائيل ويخطف روحه كما فعل مع إخوته الذكور، أو ربما حسده أهل الحسد الذين ما إن جلسوا في بيئة إلا وقاموا بتدميرها، الحل هو اسم لم يعهده عزرائيل. فأطلق الجد على ابنه لقب «الشمندر»، ونجا جدي من اللعنة التي أصابت إخوته الذكور من قبله فأجزل أبوه العطاء، وجاد بالأموال للفقراء وبنى مسجدا كبيرا أطلق عليه مسجد الشمندر وما زال هو الجامع الكبير في قرية البطالحة، حتى أصبح اسم جدي على كل لسان. بنى بعدها مدرسة وأطلق عليها كذلك اسم ابنه. درس الولد في مدرسة الشمندر حتى حصل على شهادة الكفاءة. ثم انتقل إلى الحياة في القاهرة للحصول على شهادة البكالوريا. تزوج زينب حفيدة عمته، وخلف أبي وبعده عمتي. ثم سافر في عام ١٩٣٥، وأبي في الثالثة من عمره، إلى لندن لدراسة علم الاقتصاد وعاد عندما دقت طبول الحرب العالمية الثانية. وفي طريقه إلى الإسكندرية مات والده. وبعودته اكتشف جدي الوضع المالي السيئ للإنتاج الزراعي. الأرباح أقل كثيرا من الممكن. يسيطر عدد كبير من الوسطاء على نسبة كبيرة من أرباح أرضه، والمستأجرون يدفعون القليل. وباندلاع الحرب وجد جدي أن الإنتاج الصناعي سوف يكون أكثر ربحية من العملية الزراعية بسبب انقطاع طرق التجارة البرية والبحرية؛ الأمر الذي سوف يخفض من القدرة على استيراد البضائع. باع نسبة كبيرة من أرضه واستثمر في بناء مصنع للغزل والنسيج وضع فيه كل ما تعلمه في مجال الاقتصاد. حقق أرباحا كبيرة، ولكن مع تغيير النظام السياسي توقف نهر العسل عن التدفق وفشل جدي في التوافق مع الإدارة السياسية، وفي وسط هذه الطاحونة كره أبي النظام القائم بكل جوارحه وأعلن أنه لا يريد الحياة في هذا البلد واستأذن والده في الرحيل. رفض والده أن يسافر ابنه وحده وأمره أن يتزوج قبل الخروج من مصر. رضخ الابن لأمر ولي أمره وتزوج أمي قبل تأميم القناة بشهر واحد ورحلا معا إلى تونس. ثم تصدر بعدها قرارات التأميم ومنافسة شركات الغزل والنسيج العملاقة المملوكة للدولة والتي أغرقت الأسواق بأسعار غير رأسمالية، ليموت جدي بالسكتة القلبية، وينهار المعبد فوق رءوس من قاموا ببنائه.

نمت بجوار والدي لأول وآخر مرة في حياتي الواعية. استيقظت صباحا على

ضجيج وجلجلة. لم أجد أبي بجواري. جريت إلى الخارج لأرى قوة عسكرية أمام المنزل تحت قيادة ضابط يصدر أوامر بصوت نافذ. فهمت أن الأمر يتعلق بي. جاءت هذه القوة لتتسلمني وتنقلني إلى القاهرة. لم أكن أعرف حتى هذا التاريخ مدى سطوة زوج أمي. طلب الرجل من أبي أن يسلمه فورا العبد لله وإلا سوف يهد القرية على من فيها وانتهت مغامرتي مع أبي، وظللت أتساءل بعدها إذا كنت قد وددت بالفعل أن أهرب معه وأفرَّ إلى تونس، أم كنت أفضل المكوث في القاهرة مع أمي؟ ولم أعرف قطّ الإجابة عن سؤال الاختيار بين الهروب والمكوث.

* * *

انتحار سلفادور دالي في شاطئ جليم

كنت في الخامسة عشرة من عمري عندما قررت الانتحار. نويت صباحا. ونفذت قراري مساء. كان ذلك قبل الحرب بأشهر قليلة والأجواء زرقاء كئيبة بلون الأوراق التي كنا نلصقها على زجاج نوافذنا. لم تكن، بالتأكيد، ثمة علاقة بين انتحاري وتأجيل قرار الحرب، تصورت حينها أن هذا القرار له علاقة بمسّ من الجنون أصابني. فرحت كثيرا لشعوري هذا. كان من الطبيعي أن أتوق للجنون الذي تصورته آنذاك مرادفا للفن. يمكنني إذن أن أتشبه بالمجنون «فان جوخ». ولكنني للأسف عرفت بعد هذا اليوم أن عشرين مليونا يحاولون الانتحار كل عام ومن ينجح من هذا العدد فهم قرابة مليون منتحر فقط. لم أكن إذن مجنونا كما كنت أتمنى، بل كنتُ رجلًا عاديًّا يقف في طابور طويل مع ملايين أخرى غفيرة من الفاشلين. فشلت في اجتياز امتحانات الصف الأول الثانوي. أمر يبدو غير كارثي ولكنه بدا لي في هذا الزمن ضربة قاصمة تستحق من هولها أن توقف نبض الحياة. كنت أقف أمام باب المدرسة الرئيس، هذه البوابة العملاقة التي كان يقشعر لها بدني وأنا في حضرة ظلها، كنا ممنوعين من الولوج عبر هذا المدخل المخصص فقط للإدارة والمدرسين، أما التلاميذ فلهم باب صغير من شارع الشيخ ريحان يدخلون المدرسة منه؛ عندما قابلت زكريا أحد زملاء الفصل أمام المدرسة ورأسه يتدلى منه سألته:

ـ طمني. ما النتيجة؟

ـ لا تطمئن. رسبت في أربع مواد.

ـ وهل تعرف نتيجتي؟

ـ أصبحت أنت ورامي من المشاهير. ألف مبروك. رسبت معه في جميع المواد.

ـ في جميع المواد؟ مستحيل.

هزَّ رأسه ضاحكا.

وقفت أمام لوحة خشبية معلق عليها عدد كبير من الصفحات تحوي أسماء كل التلاميذ ودرجاتهم في كل مادة. منعني التوتر من إيجاد اسمي حتى وجدته بصعوبة. رسبت بالفعل. السبب بلا شك هو مدير المدرسة الفرنسي الجنسية الذي هددني بالرسوب بعد أن فشلت في تخطي امتحان الفيزياء في امتحانات نصف العام الدراسي. اشترك هذا الرجل في الحرب الفيتنامية الفرنسية في منتصف القرن العشرين وخرج منها نصف عاقل نصف مجنون، كيف وصل هذا المعتوه إلى القاهرة؟ وكيف أصبح مديرا لمدرسة؟ لا أعرف. المهم أنه كان رجلا مختلّا؛ فرض علينا نظاما أساسه التفوق في الرياضيات والفيزياء، ولأنني كنت أكن مشاعر عدائية للمادتين فلا عجب أنني رسبت في جميع المواد.

اجتمعنا في حوش المدرسة رامي وزكريا وأنا حتى نرى ما يمكننا فعله في هذه الفضيحة. جلسنا على سلالم معمل العلوم لتبادل الرأي والمشورة، وانتهى بنا الحوار إلى أن الحل الوحيد هو أن نتخلص من هذه الحياة الكئيبة.

كان رامي أكثرنا اقتناعا وبدأ في شرح الأسباب:

لقد عشنا بما فيه الكفاية. الكبار تعساء دائما. لا أحد يريد أن يصبح مثلهم. وبالتأكيد سوف نكون بؤساء جدّا ونحن نعيد هذه السنة البشعة. ثم كيف سنواجه أهلنا؟ يمكن أن يقتلني أبي لو عرف بخبر رسوبي.

كنا بالفعل مقتنعين ولم يكن في حاجة إلى استعراض مهاراته في المنطق.

ولكن كيف ننتحر؟

خرج زكريا بفكرة نيرة:

ـ حلنا الوحيد هو أن نغرق في البحر.

فقلت أنا:

ـ الفكرة الأفضل أن ننتحر مثل كليوباترا.

فسألني رامي:

ـ وكيف انتحرت كليوباترا؟

ـ أحضرت ثعبانا سامّا وتركته يعضها.

ـ ومن أين نأتي بثعبان؟ قل كلاما واقعيّا.

فتدخل زكريا:

ـ الغرق في البحر هو الحل. هذا ما فعله إسماعيل أدهم.

ـ ومن إسماعيل أدهم؟

ـ من أقرباء أمي.

ـ ولماذا البحر؟ النيل أقرب.

ـ لو رمينا أنفسنا في النيل فسوف يكون الأمر واضحا. فكل من يقفز في النيل هو بالنسبة إلى الجميع منتحر. أما في البحر فسوف يبدو أننا نزلنا نسبح بصورة طبيعية ثم غرقنا كما يغرق الكثيرون.

فسأله رامي باستغراب:

ـ يا لك من عبقري. وكيف نبرر ذهابنا وحدنا إلى الإسكندرية بعد نتيجة الامتحانات مباشرة دون أن نبلغ أحدا؟

فسألتهما:

ـ وما أهمية سؤال هل انتحرنا، أم لم ننتحر بعد أن نموت؟

فرد رامي أكثرنا علما بشئون الدين:

ـ سوف يحزن أهلنا. ألا تعرف أن المنتحرين في جهنم؟

فتساءل زكريا:

ـ وهل سوف ندخل النار؟

فأجاب رامي:

ـ بالتأكيد لن ندخل النار. لأن الله سوف يتفهم أحوالنا. أليس خالقنا؟ هو بالتأكيد يفهم كل شيء.

ـ لكنني قرأت منذ شهر رواية الماركيز دو ساد «بولين وبلفال». أظن أنني سوف أدخل النار على أي حال.

فقال لنا رامي بكل ثقة:

ـ نحن لم نتم بعد ستة عشر عاما، ولم نصدر بعد بطاقة شخصية. فالله لن يحاسبنا على أعمالنا. يحاسب فقط البالغين ممن أصدروا بطاقات. هذا أمر مؤكد. نحن لنا الجنة بإذن الله.

بناء على هذا اليقين، ولنلحق فرصتنا قبل أن نتم ستة عشر عاما، وعلى الرغم من تناقض ما قاله، فإننا قررنا بالإجماع أن الانتحار غرقا في البحر هو حلنا الأسهل. كان السؤال العملي الأول: هل لدينا أموال تكفي لشراء تذاكر قطار من القاهرة إلى الإسكندرية؟

وبما أننا لم نكن نعرف قيمة تذكرة القطار فكان علينا أن نتوجه إلى محطة مصر لنعرف إجابة عن سؤالنا. أخرجنا ما في جيوبنا. كنت الأغنى ثم زكريا، أما رامي فكان لا يملك سوى ثلاثة قروش، اشترى بنصف هذا المبلغ ثلاث تذاكر أتوبيس إلى باب الحديد، وهناك وجدنا أن لدينا ما يكفي ويفيض لشراء تذاكر درجة ثالثة.

لحقنا بقطار الساعة العاشرة صباحا. جلسنا واجمين دون أن ينبس أحدنا بكلمة. ومع حركة القطار الرتيبة، أدركت هول القرار الذي اتخذناه. لكنني لم أستطع التعبير عن أي فكرة يمكن أن يشتم منها أنني أتراجع عن قراري. فلست من الجبناء الذين يتراجعون وقت التنفيذ.

* * *

هل كنت قد رأيت حينها يا ترى لوحة إدوارد مانيه: «المنتحر»؟ لا أعرف على وجه اليقين فقد كنت أشتري العديد من الكتب التي تضم أشهر اللوحات وأظل داخل عوالمها لأيام. تظهر لي هذه اللوحة كطيف وأنا جالس في القطار. صوّر مانيه رجلا في ثوب المساء، ملقى على حافة فراش معدني، يحمل في يده اليمنى مسدسا، ويتدفق الدم من جرح في بطنه، تَقَبَّضَ لحافًا أحمر بلون الدم على الفراش وانضم بعضه إلى بعض. وفي الخلفية صورة معلقة لرجل قد يكون الأب أو السيد المسيح يتابع من داخل الإطار الانتحار. لم أفكر لوهلة أن أنتحر بمسدس. لو رسمت الانتحار لكنت سوف أصور تمساحا يلتهمني. كنت في الحقبة من الزمن في حالة غرام بالتماسيح. أحببت تصوير عيونها في إيحاءاتها الملتوية بين الموت والحياة، الاستيقاظ والنوم. شغلتني أجسادها الصلبة اللينة، بين السكون التام والحركة المفاجئة. التمساح هو الملك المتوج في الجمع بين المتناقضات.

طاردني هذا السؤال البسيط:

هل من حق الإنسان أن ينهي حياته؟ أن يتخذ قرارا عقلانيّا هادئا ويقول لنفسه: كفى، اكتفيت بما عشت؟

هل يدخل هذا القرار البسيط ضمن باقة الحريات التي يجب أن ننتزعها من القانون الأخلاقي العام؟

ولماذا كل هذا اللغط عن بشاعة هذا الفعل؟

لماذا هذا الأسى عندما نستمع عن شخص أقدم على الانتحار؟

هل الوصية الإلهية: «لا تقتل»، تتضمن يا ترى قتل النفس؟

ووصل بي القرار إلى أنه يحق للإنسان أن يذهب إلى مستشفى عام، ويطلب من أطباء محترفين بهدوء وعقلانية أن يضعوا حدّا لحياته.

كان زكريا عبد الحفيظ يبدو هو الآخر في حالة ذهول. أعرفه منذ مرحلة الحضانة. كان ممن نطلق عليهم الغرباء. فالأصل في الأشياء أن هناك أربع مجموعات من التلاميذ في كل فصل: المتفوقين، ولاعبي كرة القدم (أو أي رياضة أخرى) والبلطجية، والجانحين. المجموعة الأولى من المتفوقين لا تتعدى الخمسة في المائة من الفصل، أما من يلعب كرة القدم، فهم الأغلبية المطلقة، ثم تأتي الجماعة الثالثة: البلطجية ونسبتهم من عدد التلاميذ في الفصل هي نفس نسبة المتفوقين، وفي النهاية تأتي جماعة الجانحين أو الغرباء ونسبتهم أقل من البلطجية. تلك القلة المندسة التي لا تنتمي إلى أي مجموعة. كان زكريا من ضمن هؤلاء. كنا حينها لا نفهم تماما لماذا هذه الفئة من البشر موجودة في العالم. بعض هؤلاء الغرباء كان يتشبه بالنساء أو هكذا كنا نطلق عليهم حينها، والبعض الآخر كان لديه بعض الميول الفنية. أما زكريا فكان من ضمن الأقلية داخل الغرباء، وهو ممن يمكن أن نطلق عليهم محض غرباء، أي أنهم غرباء ليس لهم اتجاه بعينه ويفتقدون أي انتماء أو اهتمام. كان عندما يتحدث يخرج الكلام من فمه رخوا. عندما يسير يشعر من يراه أنه يمشي بلا هدف ولا وجهة. ابتسامته وعلى الرغم من بلاهتها محببة للنفس. وجهه دائري وشعره أشقر، سليل أسرة عثمانية ولا شك. أتذكر عندما كان في الحضانة كان من الأقلية التي تتبرز داخل الفصل قبل أن يصل إلى باب حجرة الدرس في طريقه إلى الحمام، وتنتشر رائحة كريهة في جو الفصل. كان مرمى نموذجيًّا للنكات والسخرية، كما كان أحد أهم ضحايا جماعة البلطجية بالاعتداء والضرب.

من كان المدافع الدائم عن زكريا؟

رامي فرحات الذي كان يجلس بجواري الآن في القطار وهو ساهم الوجه.

ينتمي رامي إلى جناح الحمائم داخل جماعة البلطجية. قوي البنية وكأنه خلق ليكون ملاكما، عملاق طيب القلب، كثيرا ما كان يقف ضد جماعة الأشرار من البلطجية التي ينتمي إليها بحكم حجمه الهائل. وجهه وجه فلاح من فلاحي الدلتا خرج لتوه من الحقل، وكفه - ويا للغرابة - في خشونة من لم يترك الفأس طوال حياته، وهو لم يرَ فأسا قطّ، وكأنها جينات أجداده من الذين فلحوا الأرض لآلاف السنوات قد شكلت ملمس يده. كان صديقي الوحيد من ضمن جماعته الجهمة، نتحدث طويلا وكثيرا ما كان يشكو لي قسوة أبيه وغباءه المطلق في التعامل مع جميع أهل الدار، يُكِنّ له مشاعر

متضاربة من الكراهية والاحترام. منحت ضخامة المستطيل الذي شكل وجه رامي إيحاء واضحا بغباء أصيل متمكن من عقله، كما أرسلت لغة جسده موجات من حالة استهتار كامنة بما يدور حوله، لكنه لم يكن قطّ غبيّا، بل على العكس كانت رقته تحمل الكثير من الفهم العميق للبشر.

نظرت إلى إطراقه الساهم وهو يتأمل جريان الأراضي الزراعية من وراء النافذة المكسور زجاجها، وشعرت نحوه بعطف بالغ.

سعيت أن أكسر دائرة الصمت، ولكن ما أصدره السكوت من ضوضاء كان أعلى من صوتي.

كنا ثلاثة أجساد؛ زكريا ملاك بأجنحة يبتهل للسماء، ورامي بطل من أبطال القصص المصورة الأمريكية للمراهقين يتأمل عاري الصدر المشهد، وأنا في وسط اللوحة أشرب السم، وجهي غائب، متوارٍ داخل جناح الملاك، عالمي الوحيد صوت عجلات القطار الزاعق.

أخرجت وجهي خارج العربة. صفرت أذني فأغمضت عيني.

نحن دبابير داخل قنينة صدئة تائهة تطمح إلى الموت غرقا.

استقبلنا على محطة سيدي جابر بائع مشروبات غازية. صبي أعرج وأخنف جاءنا لينقذنا من حالة الصمت. تقاسمنا زجاجة ليمون بثلاثة تعريفة ولكنها لم ترفع ثقل قلبي. الإسكندرية مدينة الأحلام والألوان والملاهي الصيفية والبحر والجيلاتي والانطلاق والحب تتحول فجأة إلى مقبرتي. المدينة التي شهدت أولى قبلاتي المبتلة مع أفروديت سوف تشهد جفاف لساني وسط تلال الملح المبتل حتى يموت فمي.

لم تكن محطة القطار مزدحمة كعادتها. ماسح أحذية يقبع في ركن. وعجوز يوناني يرفع صورة الملك الشاب قسطنطين الثاني الذي خلعه من على العرش قبل أيام قليلة الجنرال «جيورجيوس بابادوبولوس» أحد أقطاب الانقلاب العسكري في عام ١٩٦٧. ويتحرك ببطء عجوز آخر يرتدي جلبابا أخضر طويلا وفي يديه مبخرة يلفها في حركة دائرية وهو يتمتم بكلمات غريبة، ويضع على رأسه عمامة منيفة ويدور في حركة رخوة واسعة.

تخطيت ذا المبخرة وتوجهت إلى اليوناني لعله قريب أفروديت. هتفت بصوت مرتفع:

ـ يعيش قسطنطين الثاني.

فردد ورائي الهتاف بحماس كبير.

ـ يعيش قسطنطين الثاني. يعيش يعيش.

سألته:

ـ متى زرت اليونان؟

فردَّ قائلا:

ـ لم أخرج قطّ من الإسكندرية، ولن أخرج منها أبدا.

رشحت شاطئ جليم الذي شاهد سنوات طفولتي ليكون شاهدا على

موتنا المرتقب. كنا في شهر يونية، والحر الشديد قد بدأ مبكرا هذا العام. حشرنا أنفسنا في حافلة نقل عام، كانت الرطوبة في هذا اليوم لا تطاق ومن كثرة ما عرقت بدأت أشعر بسعادة من فكرة أنني سوف أسبح في البحر لآخر مرة. لكننا لم نتخيل جميعنا ونحن نخطط في حوش المدرسة مشهد موتنا، ما الذي ينتظرنا في شاطئ جليم. كان المصطافون قد احتلوا بشماسيهم الشاطئ، والبحر يعج بالأطفال، والعلم الأبيض يرفرف عاليا، والغطاس يجلس على المقعد العالي يراقب بعيني صقر جميع من في البحر والبائعون ينادون على بضاعتهم. مَرَّ بائع «فريسكا» فجحظت أعيننا وسال لعابنا، لكننا لم نكن نمتلك ما يكفي من المال لشراء قطعة سودانية واحدة. ولأن رامي بعظام وجهه الناتئة وفكه العملاق كان عنيدا ولم يقدر بدقة عدد المصطافين، فقد قال لنا إننا يجب أن ننزل البحر على الرغم من كل المعوقات ونتقدم حتى الغرق. قلت له: إن إسماعيل أدهم قد انتحر ولا شك في الشتاء؛ فلم يكن في استطاعته التقدم إلى النهاية دون أن ينقذه أحد. اقتربت من الغطاس لأتأمل مدى جديته وهو جالس في عرينه المرتفع. فوجئت بسلفادور دالي يجلس مكان الغطاس. ماذا يفعل دالي هنا؟ كان بالأحرى يجب أن يكون كلود مونيه فشاطئ أونفلير كان مكانا مثاليّا للانتحار. ولكنني وجدت سلفادور جادّا جدّا في عمله. يصفر كل دقيقة وينادي على صبي تقدم قليلا نحو المياه الغريقة يطالبه بالرجوع من فوره إلى منطقة الأمان.

رسمت لوحة «انتحار دالي» بعد محاولة الانتحار بسنوات طويلة وكان وجه الغطاس مازال معي بجميع تفاصيله. جعلته ينتحر معنا وكان إسماعيل أدهم من يتقدم المسيرة. رسمت بائع الفريسكا وامرأة بحجم الدرفيل كانت تنادي بصورة متكررة على ابنها الصغير وكأنها قد ركبت في حنجرتها شريطا صوتيّا آليّا. كما أضفت: عبد الحليم يقف قاضيا للشاطئ ومن حوله ينصب المصطافون الشماسي، ومن أعلى يتابع ملاك تشكّل في هيئة سحابة لها بطن كبير مشهد الانتحار.

ظللنا جالسين ثلاثتنا على الشاطئ منهكين حتى أذابت أشعة الشمس فكرة الانتحار من أدمغتنا جميعا. ما العمل إذن؟ تفتّق ذهن زكريا عن فكرة أبهرتنا. تكلم كعادته ببطء شديد وكدنا نفقد صبرنا في متابعته إلى النهاية:

حلنا الوحيد أن نهاجر. نهرب من هذا البلد. نذهب إلى ميناء الإسكندرية وهناك نتسلل إلى إحدى السفن ونختبئ فيها حتى تتحرك من الميناء، وعندما يكتشفوننا لن يستطيعوا بالتأكيد أن يعودوا أدراجهم إلى الإسكندرية. كان زكريا قد سافر في العام الماضي إلى إيطاليا مع عائلته في سفينة تركية خرجت من الإسكندرية. كانت له إذن خبرة بالمسألة. يا لها من فكرة سديدة.

ودعت دالي وأبديت إعجابي بشاربه، ثم سألته:

ـ هل تعرف كم تشبه الرسام الإسباني؟

فقاطعني بين الاحتداد والسخرية:
ـ دالي. نعم أعرف. سوف أحلق هذا الشارب، وسوف أغير من شكل شعري.
ـ ولماذا تفعل هذا؟ يمكنك أن تربح الملايين لو تشبهت به حقّا.
ضحك الغطاس وخرجنا من الشاطئ إلى الكورنيش. سألنا عن الميناء فدلنا القوم.
اكتشفنا حين وصلنا أخيرا ما لم يكن في حسباننا. كان الميناء أكبر كثيرا مما تخيلناه. مدينة داخل المدينة. الأمن منتشر ومستتب وفعال. استمرت محاولاتنا الدءوبة لفترة طويلة إلى أن أدركنا أن هناك استحالة أن نفلت من دائرة الأمن وأن نصل إلى أي سفينة. افترسنا الجوع والعطش والحر والإنهاك والحيرة. أعلن زكريا أن الأعداء يحيطون بنا من كل جانب:
يجب قبل أن ننجح في التخلص من حياتنا، أن نقضي على هؤلاء الكبار الأغبياء الذين يهيمنون على العالم.
كان أنا من أعلن الاستسلام، ورفع الراية البيضاء الكريهة عاليا.
عدنا في صمت إلى محطة القطار نجرجر أقدامنا بصعوبة. لم يكن لدينا مال لشراء تذاكر. فدخلنا القطار دون اكتراث بما يمكن أن يحدث لنا. واخترنا عربة الدرجة الأولى هذه المرة. من يسرق فعليه أن يختار على الأقل جملا.
لم نجد مقاعد خالية متقاربة، فجلس كل واحد فينا بعيدا عن الآخر. أخرج حجر العنبر الذي أضافته أمي في سلسلة مفاتيحي رائحة طيبة ومنحني الحظ والنصيب، فجاءت جلستي بجانب طفل في السابعة من عمره يمسك في يده كراسة رسم ومعه أقلام رصاص ملونة. سألت الطفل إذا كان يريدني أن أرسمه. حرك الطفل ببهجة رأسه علامة الموافقة ولم تعترض والدته على أمل أن تتخلص منه ولو قليلا. أخذت منه الكراسة والأقلام وكأنني أمسك طوق نجاتي. رسمته بسرعة غريبة وكأنني أنفث الغضب من روحي حتى ندَّت عن والدته صرخة. رفع الرسم كالعادة الحجر الأسود القائم على صدري. طلبت مني والدته أن أرسمها هي الأخرى. رسمتها بنفس السرعة. أخذت صورتها ونفحتني خمسة وعشرين قرشا وطلبت مني أن أوقعها لتبيعها بمئات الجنيهات عندما أكون أشهر فنان تشكيلي في الوطن العربي. كانت هذه أول مرة في حياتي أوقع على رسم أرسمه. كنت أود أن أقول لها إنني سوف أموت بعد قليل، وإنها لن تستطيع أن تبيع الرسم بقرش صاغ واحد ولكنني لذت بالصمت. ثم طلبت مني جدة الطفل أن أرسمها هي الأخرى. وتحولت تدريجيّا عربة القطار إلى مرسم. يسألني الجميع عن سعر الرسم. وأنا أرد قائلا: إن السعر غير مهم ومن لا يريد أن يدفع فسوف أرسمه أيضا. عندما وصل مفتش القطار تعامل معنا باعتبارنا بائعين على باب الله ومَرَّ الأمر على خير. تجمعنا زكريا ورامي وأنا أمام محطة باب الحديد وقد امتلأ جيبي بالبنكنوت، أعطيت كل واحد مبلغا من المال يكفي ويزيد لركوب سيارة أجرة. تحدثنا لدقائق قليلة وعدنا جميعنا إلى قرارنا الأول: الحياة لا تستحق أن

نعيشها، واتفقنا جميعا على الانتحار الليلة.

لا أتذكر كيف عدت إلى المنيرة. ما أتذكره أنني توجهت مباشرة إلى الصيدلية أمام منزلنا. اشتريت دواء منوما. سألني الصيدلاني الذي يعرفني جيدا: لمن الدواء؟ فقلت له: إن أمي تعاني هذه الأيام من أرق حاد. ملأت كوزا من الماء من زير ماء يقبع أمام زاوية بجوار منزلنا. دخلت العمارة وبلعت كمية كبيرة من حبات الدواء، واختبأت تحت سلم العمارة ومددت جسدي المنهك. لم أفكر تماما في الموت ولكنني فكرت أنني سوف أنام طويلا.

استيقظت على صوت امرأة في حجم جبل الهيمالايا داخل مستشفى تقوم بعملية غسيل معدة لأتقيأ ما بلعت من دواء. عرفت بعد هذا أن عبد النبي العامل في الصيدلية كان يعرف أنني اختفيت طوال النهار؛ لأن أخاه يعمل في محل جدي يوسف. جرى لإبلاغ أخيه، الذي أبلغ جدي يوسف. جرى يوسف إلى المنزل. وعندما لم يجدني نزل الجميع للبحث عني، ليكتشفوني في النهاية تحت بئر السلم. واكتشفت أن الحياة تسير كما تهوى، وليس كما نخطط لها أن تسير.

* * *

أحاجي الرغبة المستعرة في زنا المحارم

استيقظت صباحا على صوت جهير. شحذت حواسي لأتبين الأمر. إنها أمي تصرخ من قرونها. من معها؟ صابحة بالتأكيد، ولكن هناك صوتا آخر. إنها ذهب. ما الذي يجري؟ طالت أذني لعل الأحجية أن تنجلي.

اعترفت صابحة لأمي أنني أسرق ملابسها لترتديها ذهب وصديقتها كوثر، ثم أعيد الملابس كما كانت ولا أحد رأى ولا أحد درى.

يا له من يوم لن يفوت على خير.

والحكاية لا تليق، ولكنني أحكي لمن يعرف ويرى كل شيء.

بدأت الحكاية بقرار الانتحار، وسفري إلى الإسكندرية للارتماء في أحضان المتوسط، ثم ابتلاع أقراص المنوم والنوم خلف درج بنايتنا، وهو الأمر الذي انتهى بأزمة اعترت قلب جدتي بستان. أو هكذا قدمت العائلة أمر مرض بستان. ذهبنا بستان وأمي وأنا إلى طبيب القلب. عيادته في شارع شريف باشا. عدد المرضى بعدد حبات الرمل في الصحراء الكبرى. الانتظار مضنٍ. تحيطني الوجوه المحفورة داخل صلصال اللحم وتطلب مني التعاطف الكامل. أمسك الورقة والقلم لأخط الوجوه، ولكن من أي نبع يمكنني اصطياد شهوة الرسم وأنا أرتعد خوفا على بستان؟ كانت أمي هي الأخرى خائفة، وجدتي كعادتها جلمود صخر لا يهتز مهما ارتفعت الأمواج. قال الطبيب إن قلب جدتي ضعيف. هل معقول يا ربي أن يكون قلبها ضعيفًا؟ عدنا ببعض الأدوية. وتكررت الزيارات ولكن في المرات القادمة كانت معنا خالتي برلنتة، وكنت دائم الحضور لأنني الرجل الذي يستطيع حمل جدتي في حالة عدم قدرتها على السير. وبعد شهر زارتنا خالتي إحسان قادمة من أسيوط حيث تقيم مع زوجها الذي يشغل وظيفة مهمة في المحافظة. انتهى فصل الصيف ليتبوأ عن جدارة أسوأ صيف قد مَرَّ عليَّ في حياتي القصيرة. ثم اندلعت حرب أكتوبر وانتهت بسرعة كبيرة. وانقسمت العائلة إلى فريقين. فريق يتغنى بالانتصار؛ وفريق يتحدث عن خيانة السادات وعمالته للولايات المتحدة. لم أهتم آنذاك بالفريقين. كنت أعاني من حالة نكد وإحباط لاضطراري تغيير مدرستي والانتقال إلى مدرسة جديدة تربط علاقة قرابة ناظر هذه المدرسة بزوج أمي. كنت أعيد العام الدراسي الأول الثانوي وكانت تجربتي الأولى في الرسوب الكامل؛ الأمر الذي جعلني أكره الدراسة والمدرسة والحياة. ثم جاء مرض بستان ليزيد حالتي غمّا.

زارت خريستيانا جدتي في يوم شتوي ممطر في بدايات العام وظلت معنا طوال هذا اليوم. كنت أعرفها من زيارات سابقة، ولكنها كانت المرة الأولى التي أجلس معها طوال هذه المدة. كانت ترتدي جلبابا ريفيّا أسود اللون، وتغطي رأسها كما تفعل النساء في جنوب مصر. كل ما في هذه المرأة دقيق ورقيق ما عدا عينيها الواسعتين مثل عيني النعام. كنت أخاف منها، وعندما حاولت رسم وجهها فشلت تماما. عندما دخلت بستان لتنام، طلبت من

برلنتة إعداد فنجان من القهوة.

كنا نجلس حول مائدة الطعام التي تتوسط حجرة المدخل، وهي الحجرة المطلة على جميع حجرات المنزل حين رعدت السماء وبرقت. صوت هادر جعل أمي ترتعد. خيَّم الصمت. ثم أرعدت السماء مرة جديدة. فقال رزق ولعة إنها الملائكة تخرق السماء بمطارق من حديد. عادت خالتي برلنتة وفي يدها فنجان القهوة. قدمته إلى ماما رفيعة. قال رزق ولعة بصوت واهن:

تكلمي بالحق. هل سوف تنجو حماتي العزيزة من أزمتها الصحية؟

سقطت أوراق شجرة عمرها جميعها إلا ورقة واحدة لن تصمد كثيرا. لا تحزنوا فالموت هو الوجه الأجمل من الحياة. سوف تحيا أياما جميلة على الضفة الأخرى من النهر. سوف ترحل إلى الغرب فافرحوا لها.

انهمرت الدموع وعلا صوت عويل حاول الجميع كتمانه. كانت أمي الأعلى عويلا، فأمسكت خريستيانا بكتفها فسكنت من فورها. وكأنها زرعت في جسدها بستانا من السكينة. قال رزق ولعة:

ـ الموت خلق من خلق الله تعالى. علينا تقبله فهو أمر من خلقنا، وبيده الأمر من قبل ومن بعد.

ظللنا جالسين في صمت حتى قامت ماما رفيعة قائلة إنها سعيدة؛ لأنها ودعت حبيبتها بستان. وقبل أن تخرج دخل علينا خالي يوسف. وعندما لاحظ الوجوم يعلو الوجوه، هزَّ رأسه محييا الجميع وتوجه في صمت إلى حجرته وأغلق بابها وراءه.

بعد أيام قليلة ماتت جدتي وهي في حضني. كنت معها في حجرة نومها أدلك لها قدميها عندما بدأت تحكي لي قصصا أسطورية عن مقاعد وسروج تتحدث معها ليلا. قالت لي إن الطاولة الخشبية التي نقلناها من حجرة نومها إلى المطبخ اشتكت لها من سوء حظها، وطلبت مني أن أعيدها مرة أخرى إلى مكانها الأصلي. كانت قد اشترت هذه الطاولة مع جدي من بائع أثاث قديم. قال لهم إنها قطعة خشبية إيطالية نادرة. صمتت بستان فجأة وتعالى صوت تنفسها. «شهاب، ارفعني قليلا لا أستطيع التنفس». رفعت نصفها الأعلى، فطلبت مني أن أعيد جسدها بسرعة لوضع النوم لأنها غير مرتاحة. لم تمر ثوانٍ إلا وطلبت مني أن أرفعها مرة ثانية. لم تكن تدري ماذا عليها أن تفعل لتستطيع التنفس بسهولة. دفعتها قليلا للأمام وجلست خلفها مباشرة بحيث يكون ظهرها في صدري. وضعت ساقي حولها واحتضنتها من الخلف وقبلت شعرها وبكيت في صمت خوفا عليها. وَضَعَت رأسَها على كتفي وأطبق صمت مخيف. تخيلت لوهلة أن تنفسها تحسن فجأة أو ربما استسلمت للنوم.

ماتت جدتي وأنا أضمها لصدري لعلي أمنحها من نبضات قلبي سندا. ظللت في محلي لمدة دقائق لعل معجزة تهل من السماء، لكن كان السر الإلهي قد صعد وانتهى الأمر. أيقظت خالي يوسف في الرابعة صباحا لأطلب منه التأكد من حالة أخته الوحيدة. اجتمعت البنات الثلاث: برلنتة وإحسان وأمي

ومعهم خالهم حول جثمان بستان وكأن على رءوسهم الطير. تهاوي عمود العائلة الصلب لتترنح الأرض من تحت أقدامنا جميعا. كانت أمي وجدي يوسف أكثر الجميع انهيارا. لم يكن زوج أمي ورزق ولعة زوج برلنتة في القاهرة في هذا اليوم. قام خادم جدتي التاريخي «السيد أحمد عبد الجواد» بمعظم المهام المطلوبة من إحضار الحانوتي حتى إجراءات وتصريح الدفن. دفنت بستان في مدافن زوجها في حي البساتين، وتمَّ توزيع كل ما امتكلته جدتي، عدا المجوهرات، على الفقراء رحمة ونورا على روحها.

لم يمر شهر إلا وأصيب الخادم «السيد» بالقصور الكلوي المزمن، و«سيد» هو الاسم الذي كنا نطلقه عليه، فإضافة الألف واللام الموجوديْن في بطاقته كانت مستحيلة النطق. كان السيد يخدم في بيتنا منذ أكثر من عشرين عاما، أستيقظ صباحا فأجده، يظل يدور في البيت بلا توقف لتنظيف النوافذ والشرفات يوم الاثنين، وتلميع الخشب في أرض المنزل يوم الثلاثاء، وضرب الأثاث والمراتب وغيرها من الوسائد القطنية بمضربة من الخيزران يوم الأربعاء، إلى آخره من جدول حديدي لم يتغير على مدار عقدين من الزمان. كان قصير القامة، متين البنيان، وجهه مربعا، ملامحه دقيقة. كان السيد أحمد عبد الجواد جميل الوجه والروح. لا يمكن لأحد من العائلة تصور المنزل دونه. لكن مع تدهور صحته بسرعة عجيبة اضطر إلى أن يعتذر عن الحضور، خصوصا بعد أن بدأ الغسيل الكلوي. طلبت منه أمي أن يبحث عن بديل. اقترح سيد أن تأتي زوجته صابحة إلى المنزل حتى يتعافى من مرضه، وطلب من أمي أن تصبر أسبوعين حتى يستطيع أن يشرح لها بالتفصيل ما يجب عليها عمله.

صابحة فلاحة مصرية من قرية في الدقهلية، في منتصف العشرينيات من عمرها. تزوجها السيد وأجَّر لها حجرة في سطح عمارة في العتبة في شارع نجيب الريحاني. كانت تصغره بأكثر من عشرين عاما، لا أعرف لماذا تأخر السيد في الزواج حتى بلغ الخامسة والأربعين من عمره. لم يرزقوا بمن يخلفهم في الأرض، فطلبت منه أن تعمل فرفض قطعيّا حتى سقط مريضا.

بعد وفاة جدتي وغياب السيد، أصبحت الشقة ملعبا خاليا لي. كان خالي يوسف يذهب إلى مخزنه من الصباح إلى المساء، وكذلك زوج أمي الذي انتقل للعمل في كيان جديد للتصنيع الحربي، كما كانت أمي تعمل حتى الرابعة بعد الظهر، تعود إلى المنزل تأكل وتنام ساعة من الزمن وتخرج في معظم الأحيان بعد أن تستيقظ مباشرة للقاء زوجها للعشاء خارج المنزل. لم تكن قطّ لأمي علاقة بتسيير أمور المنزل فقد ظلت دائما تعيش في كنف أمها عدا السنوات القليلة التي قضتها في تونس مع أبي، وكانت تعد خلال زواجها الأول مجرد صبية مراهقة. أما أنا فقد كنت نادرا ما أذهب إلى المدرسة الجديدة بحجة أنني أعيد العام الدراسي، وأعرف كل ما في المناهج، وما ينقصني هو أن أذاكر، وأفضل مكان للمذاكرة هو المنزل. تملكني شعور بملكيتي لهذا البيت وأن كل من يعيش فيه ضيوفي. ساء بالتدريج حال منزلنا. تراكم التراب في الأركان البعيدة عن متناول الأيدي، وتداعى النظام

الحديدي الذي سنته بستان. شعرت أمي بحالة عجز كاملة واعتبرتني سبب كل البلاوي. فلم يتحمل قلب بستان خبر انتحاري، ولم يتحمل جسد السيد خبر وفاة جدتي. حاولت لتتحمل أمي هذه الكوارث، أن أنظف المنزل حتى تأتي صابحة وتستلم من زوجها الشعلة الأولمبية للنظافة المنزلية. مر الأسبوعان وكأنهما قرنان. وأخيرا أحضر السيد زوجته بديلا من دكة الاحتياطي حتى يعود إلى الملعب مرة جديدة.

كانت صابحة أكبر مني بعشر سنوات. استيقظ صباحا ولا أجد في المنزل سواها. تعد لي الإفطار، أظل في حجرتي أرسم أو ألعب أو أتأمل السقف، وهي تنظف أو تطبخ. حتى جاء يوم وكنت في حجرتي، وإذ بصابحة تدخل الغرفة دون استئذان عندما كنت أمارس العادة السرية وأمامي بعض صور نساء عرايا ملقاة على الفراش. اقتربت مني وأمسكت بقضيبي وقالت لي: «هذه نعمة من نعم ربنا حرام أن تهدر طاقتها وأنت وحدك، يجب أن تدخل هذا الصاروخ في فرج امرأة لكي تمنحها معنى للحياة». عرفت منها أن السيد أحمد عبد الجواد عاجز جنسيّا ولديه مشكلة في الانتصاب، وأنها عاقر. قالت لي ضاحكة: «ما جمع إلا ما وفق». أخذتني من يدي إلى الحمام. خلعت ملابسها وقالت لي إنها تريد مني أن أتأكد من نظافة جسدها. دعكت كل قطعة من جسمها بالصابون بقوة من ينظف أرضا متسخة، ثم غسلت جسدها بالماء. عادت بي إلى حجرتي فركت بيدها قضيبي حتى انتصب، استدارت لتمنحني ظهرها وهي ما زالت ممسكة بي، ثم أدخلت قضيبي في فرجها.

قامت صابحة على مدار العام بصورة شبه يومية باغتصابي بنفس الرغبة الجنسية المحمومة التي لا تخبو. لم أكن أعرف حينها أن المرأة تمتلك كل هذه الرغبة؛ حيث ظلت معلوماتي الجنسية حبيسة ما كنا نتناقله في المدرسة، والتي كان ملخصها أن المرأة تستجيب لرغبات الرجل، وليس العكس. كانت أغلب المغامرات الجنسية لزملاء المدرسة مع خادمات من مختلف الأعمار وظلت هذه التجارب في المرحلة الإعدادية هي مصادرنا الوحيدة في معرفة الجنس الآخر. أما في حالة صابحة فإنني من كنت أستجيب لشبقها البالغ. خلت هذه العلاقة الجنسية من أي قبلة، أو لفتة رقيقة، أو بدايات. حالة غريبة لم أعرفها من بعد. ثور يعشر بقرة من الخلف داخل زريبة. الغريب أنني استسلمت لقدري وتدريجيّا اعتدت عليه، وأصبحت أنتظر يوميّا هذه الدقائق البهيمية الموحشة. ولأن البهائم لا تتحدث، أو هذا ما نظن حتى تاريخه، فكنا نحن أيضا لا نتبادل أي حوار خلال عملية التعشير هذه.

عدا زمن الاغتصاب اليومي، كان عليَّ أن أملأ وعاء الزمن الشره الذي لا يقف عن الدوران. أذاكر أحيانا قليلة، وأرسم أغلب الوقت. ثم اكتشفت في حركتي الدءوبة جماليات سلم الخدم. دَرَج معدني لولبي ينتهي بمساحة دائرية تطل على حجرة البواب. «مكي» البواب شخصية مهمة في عمارتنا، ذو عين خضراء واحدة، وجسد متين، تزوج في قريته وخلَّف من زوجته الأولى

عددا لا أعرف من الأولاد، ثم ماتت زوجته، فانتقل إلى القاهرة وحده وعمل بوابا لعمارتنا، ثم تزوج بعد ذلك «إخلاص» وعمرها نصف عمره وخلَّفا فريد وعلاء وعادل وذهب وإيمان. كان عادل الابن الأصغر في مثل عمري، وكان فريد أكبر مني بأربعة أعوام، وعلاء بعامين، وذهب أصغر مني بعام، وايمان بثلاثة أعوام.

كنت ألعب كرة القدم مع الأولاد الثلاثة وبعض أبناء سكان العمارات المجاورة، حتى توقفت نهائيّا عن النزول بسبب «بيسا»، وغيرت وجهتي وبدلا من الهبوط أصبحت أصعد إلى سطح عمارتنا وألعب مع جيهان وناريمان. كان ممنوعا قطعيّا أن يصعد أبناء البواب إلى السطح، الوحيدة المسموح لها بالصعود كانت إخلاص لمسح أرضيته كل يوم أربعاء. بعد انتهاء المرحلة الابتدائية بانت الفروق الاجتماعية وحط الوزن الطبقي على علاقتي بعادل الذي يماثلني في السن. بدأ يعي أنه ابن البواب؛ الأمر الذي فرض عليه أن يلبي أوامري إذا طلبت منه شراء بقالة للمنزل، أو الذهاب إلى المكوجي لإرسال صبيه. هي أوامر كنت أتلقاها من جدتي ثم من أمي بعد هذا. «قل يا شهاب لمكي أو لأحد أبنائه إذا كان مختفيا شراء كيلو كوسة». كان عادل يتلقى الطلب وهو يجز على أسنانه ويذهب مرغما خوفا من عقاب أبيه له.

أعود إلى الدرج المعدني اللولبي. فقد بهرني جماله، قوقعة عملاقة من حديد تصدر نغم بحر. هذا الدرج لو اعتبرته للصعود لأخذ مظهرا لا علاقة له بمنظره إذا اعتبرته للهبوط. أدركت حينها أن الدرج هو أجمل ما يمكن رسمه في هذه الدنيا. أخرج من باب المطبخ وأجلس على إحدى الدرجات وفي يدي كراسة. بدأت بسلم يرتفع إلى عنان السماء. الارتقاء نحو المعرفة المطلقة، نحو التجلي الإلهي. كان درجا أبيض من ريش جسده أجنحة الملائكة وحوله سحب رمادية على شكل مالك الحزين. ظلت هذه اللوحة من أكثر ما رسمت قربا إلى قلبي. ثم اكتشفت أنه وفقا لفرويد كل درج يرمز إلى الجماع المهبلي، أو المضاجعة. ربما لذلك ودون أن أعي رسمت الكثير من السلالم عبر حياتي، لكن كان سلم الخدم في بنايتنا يرمز للسحر الأسود. فقد سحرني طقس أسبوعي تمارسه إخلاص في بئر السلم كل يوم سبت في الساعة الرابعة بعد الظهر. تابعتها بالصدفة وأنا جالس كعادتي أتأمل الدرج الهابط. كنت من مجلسي في الدور الثاني في موقع يسمح لي أن أرى تماما ما يدور في بئر الدرج، ولا يسمح لمن هم في أسفل الدرج برؤيتي. أرى ولا يراني أحد وبدأت مشوارا طويلا كنت فيه البصاص. تخرج إخلاص وابور الجاز وتشعله. تملأ برميلا من الصاج بالماء وتضعه على الوابور. تصل خرطوما طويلا بصنبور الماء. ثم تخرج فراخها لبدء طقس الحمام. كان الأبناء الثلاثة يرتدون سراويل تحتية، والبنات جلابيب قطنية قصيرة. أما إخلاص فكانت ترتدي رداء أزرق مما ترتديه النساء تحت الجلباب. انتابتني رجفة وأنا أتابع هذا الطقس لأول مرة. الصابون ورائحته، والصرخات من ارتطام الماء الساخن بالأجساد، والضحكات، ثم اندفاع الماء البارد من الخرطوم ومحاولات التهرب من برودة الماء. عدت إلى موقعي على المقعد الخشبي وأنا أتابع بشغف

بالغ خالتي برلنتة العارية تماما. لم تكن بنات البواب عاريات. ولكن جذبني سحر ذهب. كنت قد مللت من صابحة التي تكبرني، وبدأت في التفكير في جمال ذهب. تشجعت بعد شهر ونزلت لأسأل إخلاص سؤالا لا معنى له في أثناء الحمام، وفوجئت أنهم لم يخجلوا من وجودي. فمنحني هذا الوقت لأتابع حركة الأجساد عن قرب، تمنيت وجود آلة تصوير للإمساك بهذه اللحظة إلى الأبد. رسمت ليلتها نهد ذهب الناهد تحت الجلباب المبتل، رسما شبقيّا لا قيمة له. دخل حجرتي زوج أمي وطلب مني أن أريه ما أخط على الورق، ثم دخلت أمي وراءه. ناولته الورقة. حالة وجوم انتهت بأني سألني زوج أمي سؤالا لإنقاذ الموقف الملتهب:

ـ هل هذا رسم لجريدة سوف تغطي أحداث شبكة ميمي شكيب للدعارة؟

ـ نعم. كنت أفكر في إرسال هذا الرسم ليكون مع مقال عن الممثلات المقبوض عليهن.

ـ رسم جيد. وهل هذه ممثلة بعينها؟

ـ لا أريد أن أرسم ممثلة، كنت أريد أن أعبر عن حالة الضياع التي تشعر بها المقبوضات عليهن.

ـ أحسنت. أرى بالفعل في عيني الفتاة الشعور بفقدان المعنى.

ثم غمز لي بعينه وخرج وأخذ أمي معه.

كان البلد على سطح صفيح ساخن. يد عملاقة تقلب البشر. ترمي بمن تشاء خارج الصفيح، وتعلي من تفضل وتخفس بمن تكره في قاع الأرض. حالة غليان تعيد تقسيم الكعكة اللدنة. كان مصطفى أمين قد خرج منذ أيام من السجن بعد أن تمَّ اتهامه بالتخابر مع الولايات المتحدة وسط فرحة عارمة من رزق ولعة وخالتي برلنتة، حتى إنها دعتنا على الغذاء لنأكل بطّا ورقاقا على شرف انتصار العدل. تم تعيين أخيه على أمين رئيسا لتحرير الأهرام خلفا لهيكل. وتمَّ القبض على شبكة دعارة من الفنانات أطلق عليها شبكة الرقيق الأبيض، اهتمَّ زوج أمي بالأمر حيث كان يكرر دائما مدى إعجابه بالممثلة ناهد يسري، ثم فرح كثيرا ببراءتها بعد ذلك. طلب مني أن أرسمها له وفعلت. كان قد أوصى ناظر مدرستي الجديدة، وأرسل له الهدايا فأصبحت على قدر من الثقة بالنجاح. ولم يكن أمامي في هذا العام سوى رسم الدرج، وصابحة وذهب، ثم تمت إضافة كوثر صديقة ذهب وزميلتها في المدرسة ذات الجمال الفادح.

يعود خالي يوسف في التاسعة مساء. ثم في أغلب أيام الأسبوع يخرج في الحادية عشرة مساء لقضاء السهرة في أحد الملاهي الليلية. أراه يخرج من حجرته وأتعجب من أناقته البالغة. كان رجلا بهيَّ الطلعة، آسرا. يسير كالأمير وسط أتباعه. ولكنه كان إباحيّا، يتحدث معي عن الجنس بسهولة؛ أول من شرح لي معنى البلوغ وشجعني على خوض مغامرات جنسية. سألته:

ـ أقبلة لذهب ابنة البواب حرام؟

ـ كل قبلة حلال خصوصا لمن هم في عمرك.

فهمت أنه علم بأمر صابحة. ولكنني لم أعلق.
ـ وكيف أجعلها تصعد إلى الشقة؟
ـ الأمر بسيط. ماذا تمتلك أنت وتحتاج هذه البنت لاستعماله؟
ـ لا أعرف.
ـ التلفون. البنات تعشق هذا الاختراع. وقد استأذنتني أكثر من مرة للاتصال من مكتبي. سوف أمنعها من الآن من استعمال هاتف المكتب.
ـ عظيم.
ـ كما تمتلك التلفزيون. دعوة لمشاهدة فيلم لن تمانع. وسوف يأتي أوان القبلة.

* * *

عندما استيقظت صباحا على صوت جهير وشحذت حواسي لأتبين الأمر وكانت أمي تصرخ من قرونها. كان هذا العراك الدائر في المطبخ بسبب دعوة لحفل خطوبة زميلة في فصل ذهب وكوثر. لم تكن ذهب تمتلك رداء للذهاب به إلى الحفل. عرفت أمر الدعوة من عم مكي الذي كان يشتكي أمامي من الزمن ومن جنون الابنة التي تطالبه بمبلغ مالي فلكي لشراء فستان. اقتنصت فرصة وجود ذهب وحدها أمام باب العمارة وقلت لها إنني أستطيع أن أقرضها فستانا جديدا من فساتين أمي التي لم ترتدها ولو مرة واحدة، وطلبت منها أن تصعد إلى الشقة لترى الرداء وتتأكد أنه نفس مقاسها. تمنعت. ولكنها في اليوم التالي وبعد نزول صابحة ومن بعدها أمي، وجدتها أمام الباب تسألني لو كنت جادّا في أمر إعارتها رداء أمي. بالتأكيد كنت في منتهى الجدية. دخلت دون تردد، ومن جرأتها اطمأن قلبي. ارتدت الفستان في الحمام في مدة أسرع مما حسبت؛ لأنني عندما فتحت الباب متصورا أنها عارية وجدتها بالفعل انتهت من ارتدائه. ثم اقترحت أن أعير صديقتها كوثر فستانا آخر، ولم أنس أن أقول لها إن هاتف المنزل تحت أمرها. ولكن أوان القبلة لم يأتِ كما توقع خالي يوسف. رفضت ذهب تماما أن أقترب منها وخاب ظني. ظللت أعيرها فساتين أمي، وكانت تصعد يوميّا لاستعمال الهاتف، وظلت قادرة على صد كل محاولاتي للحصول على قبلة واحدة، إلى أن جاء يوم من الأيام البشعة في حياة الإنسان. صرخات عويل. هرج ومرج. ضرب. نزلت مسرعا للاطمئنان.

ماذا حدث؟

دخل عم مكي حجرة الأولاد. وجد ابنه الكبير فريد يغتصب ذهب بعنف بالغ. كان يضربها ليتمكن منها وهي وقد استسلمت تبكي صامتة. كان الابن يهتك عرض أخته في لحظة دخول مكي. جن جنون الأب. هجم على ابنه وضربه بوحشية، وخرج يبحث عن سكين لقتل ابنه. صرخت إخلاص ونادت على من في الشارع لمنع الوالد من قتل الابن.

نزلت في هذه اللحظة والابن يخرج من الحجرة، لمحت ذهب متكومة في الركن القصي. يرفع الأب السكين، يسرع «رمضان» بواب العمارة المجاورة

لمنع مكي من التهور وقتل الولد. الابن قوي البنية ولكن الأب ثور هائج ذراعه من حديد، تأتي الطعنة في كتف فريد. يقع الابن على الأرض وهو ينزف، يمسك رمضان بمكي بعنف ويتيح لفريد فرصة الهرب.

يختفي فريد وتنقطع أخباره عني حتى يومنا هذا، ولا أعرف إذا كان حيّا أو ميتا.

وأرسم لوحة ضخمة عن اغتصاب ذهب.

تتغير منذ هذا التاريخ علاقتي بذهب إلى الأبد وتتحول الرغبة في تقبيلها إلى الرغبة في طمأنتها ومساعدتها. وهنا تلحظ صابحة مدى اهتمامي بها، وتقرر أن تفضح أمري في هذا اليوم. ولكن لأن من حفر حفرة لأخيه وقع فيها، أو في حفرة أخرى. فلم تمر أيام قليلة إلا وأستيقظ على خبر طرد صابحة من المنزل.

والسبب: أن عينها حسودة.

قالت أمي إننا لو قبلنا بوجودها بيننا فكل نعمة سوف تزول عنا؛ فعينها قادرة على فلق الحجر.

* * *

كشك الموسيقى الياباني يهتك عرض النسيج الوطني

نظرت إلى الشجرة الواهنة عبر زجاج النافذة العكر. اصطبغت أوراقها بلون أدكن بفضل تكدر لوح الزجاج الذابل. الداخل هنا مفقود والخارج مولود. ارتعش جسد «عائشة» رعبا. تساءلنا: أأفضل لنا أن تقبض علينا عصابة من الأشرار، أم رجال شرطة؟

جلسنا داخل حجرة رمادية في الدور الأول من قسم الشرطة وقد تركنا الضابط وحدنا وخرج. سألتني عائشة عما سوف نفعل في هذه الكارثة. أكدت لها بصوت واثق أنني سوف أتصرف مع هذا الضابط وعليها ألا تقلق. كنت أرتعش أنا الآخر ولكنني لعبت أمامها جيدا دور رجل ذي قلب من حجر جرانيتي نادر.

خيبة الله على هذا الضابط وعلى قانون خدش الحياء العام.

انزلقنا داخل هذا «الخدش» من سابع سماء إلى سابع طبقة تحت الأرض؛ حيث اللهبان على أشده.

سألتني عائشة:

ماذا يمكنني أن أقول لأبي؟ هذا ابن أخت السيدة برلنتة التي خطفت أخاه الحبيب «رزق» من زوجته وأبعدته عن أولاده وعائلته. هل من المعقول أن يتعرف أبي لأول مرة على الرجل الذي أريد أن أتزوجه داخل قسم شرطة بتهمة ممارسة فعل فاضح في الطريق العام مع ابنته؟ كارثة سوداء.

ـ سوف نخرج من هذا المأزق. لن يعرف أحد عن وجودنا الآن في القسم. سوف يظل ما نمر به الآن سرنا الدفين. أرجو أن تتماسكي أمام الضابط، فنحن لم نفعل شيئا يستحق المساءلة. أظن أن القانون في صفنا.

ـ وما أدراك ما الذي يظنه القانون؟ القانون تمَّ تفصيله خصيصا ليكون ضدنا، ليتحكم في تصرفاتنا. وبالتأكيد ليمنعنا من أن نتبادل القبلات. وها هو يفتك بنا الآن.

ـ الموضوع لا علاقة له بالمواد القانونية ولا بالقبلات. لكن الأمر كله في يد هذا الضابط. سوف ألعب على عواطفه الشابة. ثم أستعطفه.

ـ الفكرة الأفضل أن تعرض عليه رسم لوحة لوجهه البغيض تظهره فيها أجمل رجال الأرض. لوحة يعلقها على حائط غرفة معيشته ويفتخر بها أمام ضيوفه العظام.

أعجبتني فكرة الرشوة بلوحة. يمكنها بالفعل أن تخرجنا من البلاء الذي نحن فيه. لكن طال انتظارنا، أو ربما تمدد الزمن. خيم الصمت طويلا بيننا حتى كسرته لأبدد خوفي، ثم بدأنا في المزاح سيد هذه المواقف بلا منازع:

ـ أعجبني ما قاله لنا الضابط: «أنتم تهددون نسيج الحياة المصرية».

ـ يحق لهذه الجملة أن تتصدر الصفحة الأولى لجريدة الأهرام.

ـ ونطقها بصورة فخمة وكأنه يلقي عظة في كنيسة.

ـ ليس في كنيسة، ولكن بالأحرى في محل والده للمانيفاتورة، فالأمر في النهاية يتعلق بالنسيج.
ـ نعم. تبادل القبل داخل كشك موسيقى في الحديقة اليابانية يمكنه أن يفتق النسيج.
ـ بالتأكيد.
ـ من الواضح أن نسيج الحياة في بلدنا مهترئ.
ـ يجب ونحن نسير على نسيج الحياة المصرية أن نمشي على أطراف أصابعنا كما تفعل كل فتاة خوفا على غشاء بكارتها.
ـ القانون يفتك بمن يتهاون، وسوف يفتق أطرافنا إن شاء الله.
وددت أن أرسم ليلتها هذا النسيج المدعو نسيج الحياة المصرية ولكنني لم أستطع. رسمت بدلا منه كشك الموسيقى ولم أرسم في داخل الكشك شفاه عائشة الرقيقة مرتفعة الزوايا نحو الأعلى.

* * *

التقينا أول مرة في تقاطع شارعي شجرة الدر وإسماعيل محمد بجوار كليتها. كانت تشتري كتابا من مكتبة تقع على الناصية، وكنت أنا خارجا من كليتي عندما لفت نظري انسحاق هذه الفتاة الكامل وهي متوارية خلف الكمان الذي تحتضنه. طالبة في كلية التربية الموسيقية. صامتة ولسان حالها يقول: صوتي هو عزف الكمان، وكلماتي ما سطره «مندلسون». كانت المفاجأة أنها ابنة أخي «رزق ولعة» الذي كان طريح الفراش في هذه الأيام وحياته مهددة بالخطر، وكنا نتعجب حينها من عدم ذهاب أبنائه من زوجته الأولى للاطمئنان عليه على الرغم من محاولات خالتي برلنتة لإقناعهم بواجب الحضور.
شدني إليها في البداية انكسارها وبياضها المشبع باللون الوردي واتساع جبهتها. وأحببتها في النهاية لسبب مجهول لا يمكن معرفة كنهه. يطلق عليه البعض الكيمياء، أي تآلف العناصر الكيميائية في أجسادنا، ويظن البعض الآخر أن سبب التعلق يعود إلى علاقاتنا في حيواتنا السابقة، لكن الأكيد أن هذا السحر الذي يتجلى هو الابن الشرعي للغموض. عَرَّفتني عائشة على كشك الموسيقى، فيه تبادلنا أول قبلة. حكيت لها عن أحلامي فعزفت لي داخل هذا الكشك السوناتا الثالثة للكمان لبراهمز.
ومع مضي الأيام أصبحنا نذهب إلى كشك الموسيقى حيث كانت تسكن في حلوان. عائشة والكمان معلق حول جسدها وأنا بعدة الرسم. تعزف عائشة وأرسم أنا الكشك الخشبي العملاق الذي تشربت عروقه النغمات الصادرة من مئات العازفين منذ إنشاء هذه الحديقة في عام ١٩١٩، وبين هذا وذاك نتبادل القبلات.
كنت حينها ممن يطلقون عليه الطالب «الخواجة». محتمل لأنني كنت خريج مدرسة فرنسية؛ وربما لأنني كنت أرتدي ملابس تبدو لبقية الطلبة غريبة، لكن السيارة الكاديلاك ساهمت ولا شك في هذا الانطباع. كنا في النصف

الثاني من مرحلة السبعينيات البغيضة. وقد ترك زوج أمي الجيش وعمل مع مجموعة من زملائه في التجارة. ارتفع دخله الشهري فجأة إلى رقم فلكي، فأصبحنا لفترة قصيرة من الموسرين. كان أول قرار اتخذه بعد تدفق الأموال بين يديه هو شراء سيارة كاديلاك بدت في شوارع القاهرة وكأنها سفينة تمخر المحيط. ولأنه كان رجلا حريصا فقد كان يترك سفينته مغطاة تحت المنزل خوفا عليها من أي نوبات سعال، وكان يذهب إلى عمله بسيارته القديمة. كنت أنتظر رحيله وأقوم بسرقة الكاديلاك للذهاب بها إلى الكلية في الزمالك. ربان يقود باخرة. وكان هذا الربان يرتدي جوارب ملونة لم ترد على محال القاهرة من قبل. يشتريها لي زوج أمي الذي كان كثير الترحال في هذه الفترة. كنت أطلب منه أن يشتري لي جوارب عليها رسوم شخصيات من أفلام الرسوم المتحركة من دببة وغزلان وبطاريق وغيرها من الحيوانات. أصبحت بفضل جواربي هذه شخصية شهيرة بين طالبات الكلية. تلتف حولي بعض الزميلات صباحا ويحزرن ما الحيوان أو الشخصية المرسومة على جورب اليوم. وبسبب ملابسي تمَّ طردي من أول محاضرة في عامي الأول. فقد قرأ الأستاذ الجملة المكتوبة على صدري ولم يصدق عينيه. كانت جملة بالفرنسية تقول: «رافقيني إلى سيارتي ولن تندمي»، ونلت شهرة بسبب هذه الواقعة. في رحلة نصف العام الدراسي الأول قال لي أحد الأساتذة إنني مثلي مثل الكثير من طلبة الفن الذين تاهوا في الدروب المظلمة للنظام التعليمي المدرسي الذي لا يحترم سوى المتفوقين في المواد العلمية، ولا يعطف أبدا على الموهوبين في المجالات الفنية. يخرج هؤلاء الموهوبون من أمثالك من المدرسة وهم يبحثون عن أنفسهم، وعن موطئ قدم، وأنت قررت أن تكون هذه الشخصية الباهتة الملونة الغربية لتقول للجميع: «أنا موجود على الرغم من إخفاقي في الفيزياء والكيمياء». لم أوافق حقيقة على كوني شخصية دون جوهر. نعم، كنت أرسب في الكيمياء والفيزياء، ولكنني كنت أعرف منذ سن مبكرة أنني رسام وسوف أظل. كنت كذلك أعرف أنني شغوف بالنساء وقلبي كالخرشوف يسع عشرات منهن. عدا الرسم والبنات فلا شيء يجذبني في الحقيقة. لا. هناك شيء آخر. الموسيقى. لقد ولدت وأذني تلتقط نبض الأشياء. كان من المنطقي أن أكون موسيقيّا. ولذلك كنت فرحا بعائشة وكمانها الملتصق بها. أعلنت منذ اللحظة الأولى أنني أريد أن «ألتصق» بها أنا أيضا، وهذا ما فعلته بفضل نصيحة خليل.

كان لي ثلاثة زملاء في الكلية أستأنس بهم، وأحن إلى مشورتهم في أموري العاطفية: حسام وخليل ومهند.

«حسام» فلاح من قرية سملا في الغربية يقيم في مدينة الطلبة. و«خليل» ابن عامل في الحديد والصلب يسكن في وادي حوف. و«مهند» ابن أحد مهندسي السد العالي، توفي والده في أثناء بناء السد في أسوان وأمه فلسطينية من غزة. كان خليل أكثرنا موهبة، وكالعادة كان الوحيد بيننا الذي خرج عن درب الفن. كنت في بداية علاقتي بعائشة عندما اتصل بي خليل

وقال لي: «لا تمخر غدا بسفينتك ودعها ساكنة تحت منزلكم». وعندما سألته عن السبب قال لي سوف تعرف السبب في حينه.

كان ينتظرني في اليوم التالي مع حبيبته سلوى التي أصبحت في سرعة غريبة الصديقة المقربة لعائشة. قال لي إننا سوف نحضر افتتاح معرض فن تشكيلي في مصر الجديدة، وسوف نتحرك في الرابعة بعد الظهر. لم أفهم لماذا طلب مني ألا أحضر السيارة وأمامنا هذا الطريق الطويل. سرنا أربعتنا من الزمالك إلى موقف الحافلات في ميدان التحرير. وهناك كانت جميع الأمم التي سكنت المعمورة منذ قديم الزمان وحتى يومها تنتظر الفرج. انتظرنا معهم حتى تحضر العربة التي سوف تتمخطر بنا بإذن الله إلى مصر الجديدة. بعد عشر دقائق من الوقوف محشورين وسط جحافل البشر وصلت العربة. تمهل خليل قائلا: «فلننتظر قليلا حتى لا تدوسنا الأقدام». هجم من هجم وامتلأت العربة بالركاب وحينها أشار لنا بيده كي نتبعه. لكزني خليل في كتفي بمجرد دخولنا وغمز لي غمزة لم أفهم مقصدها. ووجدته يمسك بكتفي سلوى ويدفعها لتقف بجانب أحد الأعمدة في وسط الحافلة، ثم وقف خلفها بدعوى حمايتها. ونتيجة لانعدام خبرتي فقد قمت بتقليد ما فعله خليل تقليدا أعمى. لم تمر سوى دقائق معدودات وتحولت السيارة إلى علبة «سردين». وأصبحت واقعيّا عضوا محشورا داخل مؤخرة سردين (ة). بتنا أنا وعائشة جسدا واحدا. يدفعني أحدهم فأتحرك من مكاني وأجدها رغما عنها تتحرك معي. أعود إلى وضعي الأول فتعود معي. دخلنا نحن الأربعة في حالة عناق صامت يليق بجماعة شمبانزي في جبلاية القرود. كان لا ينقصنا سوى أن أضع أصابعي في شعرها لتنقيته من القشريات التي كانت تتساقط من سقف العربة. أين كان هذا الضابط داخل علبة «السردين» هذه ليقبض علينا متلبسين بالجرم المشهود القاطع بلا شك لقماش الوطن الهش؟ على الأرجح كان يمارس لعبة الأسئلة السمجة مع أحد ضحاياه. وصلنا ونحن في حالة إنهاك حقيقية. فمع الزحام داخل العربة، كانت الطرق لا تقل ازدحاما. فأخذ الطريق قرابة الساعة، مارسنا خلالها الجنس ونحن نرتدي كامل ملابسنا. المضحك أننا خرجنا من علبة الكبريت وكأنه لم يحدث بيننا شيء. استكملنا الطريق نحو المعرض التشكيلي ونحن في حالة لهاث ولم نشر بكلمة إلى حالة العجن الملحمي التي جرت وقائعها داخل الحافلة. كانت السعادة تطل من وجه خليل. حالة رضا وسلام قلما رأيتها على وجهه على مدار حياته. أما عائشة فكان وجهها وجه زوجة استيقظت من نومها لتوها.

وهكذا، بالعزف على أوتار مؤخرتها في وسيلة نقل عام، أخذت علاقتي بعائشة منحى جديدا. وعلى الرغم من بهيمية البداية فإن عائشة رفعت حواسي إلى مراتب فنية لم أكن أصل إليها دونها. تعلمت منها الهارموني، علم الائتلاف بين النغمات المختلفة وأحيانا المتضاربة. أو كما تقول لي: الاستخدام المتعمد لصوتيات متعارضة بغرض خلق حالة انسجام كاملة. وبدأت أبحث معها عن كيفية خلق نفس الانسجام المطلق الذي يحققه «براهمز» في ضربات لونية متنافرة أضربها على قماش أبيض، وكانت ساعات

الحشر داخل الحافلات ما رسمت في هذه الأيام. لكنني لم أضرب فرشاتي قطّ لرسم وجهها. وكأنني أحببت أن تظل ملامحها حبيسة عظام جمجمتي. ولكنها أول من علمتني أن الموسيقى هي مدخلي الحقيقي لإبداع لوحة تشكيلية كاملة.

أراها الآن كما كانت يوم جلست أمامي في قسم شرطة حلوان. صغيرة الحجم. ملفوفة القوام. «ملفوفة!» يا لها من كلمة عجيبة. أظن أن من اخترع هذه التركيبة اللغوية كان يقصد أن هناك طبقة رقيقة من الشحم تلتف في ليونة حول ثنايا انحناءات البدن فتمنحه أنوثته المقدسة. كانت يد خراط البنات سخية ولا شك مع عائشة وهي تخرط خصرها. لم تفارقني كذلك عيناها الشاحبتان وكأنها قد أتت من بلدان آسيا الوسطى، وأنفها الذي يشبه أنف نابوليون. لم تكن تشبه، ونحمد لله على ذلك، عمها رزق ولعة، ولكن أختها التي لم يمر عليها الخراط هي التي كانت تشبه غريمي القديم. جاءت أختها يوما إلى كلية التربية الموسيقية وكنت جالسا هناك مع عائشة. فوجئت أنها كانت تغطي رأسها بقماش طويل، وترتدي فستانا أسود طويلا يصل إلى الأرض. لم أكن حينها أعرف ما هو الحجاب الذي انتشر بعد هذا التاريخ. عندما سلمت عليها قالت لي بحدة غير مبررة إنني لا يمكن أن أرد على جنة. تعجبت من حالة الهجوم الفوري على شخص لا تعرفه. سألتها:

ـ ولماذا لن أرد على جنة؟

ـ ألا ترى كم يدك ناعمة؟

ـ وما علاقة نعومة يدي بدخولي الجنة؟

ـ الله لا يحب المنعمين الذي لا يفلحون في الأرض ولا يجاهدون في سبيل الله

ـ وهل يجب أن أفلح فقط بالطريقة التي تجعل من يدي خشنة؟

ـ ألم تستمع إلى مقولة: الأيادي المتسخة تدل على المال النظيف؟

ـ كلام فارغ.

ـ ألم يقل الرسول: اخشوشنوا؟

ـ وما رأيك في جراح عظيم ينقذ المرضى وهو يرتدي جوربا مطاطيّا يمنع الخشونة من الاقتراب أو تصوير يده؟

ـ الرجل الحق يجب أن يكون خشن اليد والطباع.

ـ يجب على الرجل أن يكون فقط إنسانا.

استمر بيننا حوار عقيم لا أفهم لماذا بقي وضاعت حوارات أخرى أكثر أهمية. انتهى الحوار بيننا بحضور صديقي حسام. وهنا اختلف صوت أخت عائشة التي لا أتذكر اسمها وتلون بألوان أنثوية باستيل خفيفة مضاف إليها منمنمات نباتية. فرحت مما طرأ على حالتها العدوانية من نعومة فقررت أن أعظم صديقي حتى يحلو في عينيها فلقبته دون أن أفكر بلقب «باشا».

هذا حسام باشا عين أعيان سملا في الغربية، أرضه يا عائشة لو جريت

فيها الخيل فلا تصل إلى نهايتها.

نظر لي حسام باستغراب، وسألتني عائشة بصوت خفيض: هل ما أقول حقيقة؟ فأكدت لها كذبا أن حسام باشا حفيد إقطاعي باشا حقيقي. اختفت أخت عائشة بعد هذا اليوم للأبد، والتصق لسبب مجهول لقب الباشا بحسام لمدة طويلة حتى صدق هذا الأحمق أنه سليل باشوات بحق وليس ابن فلاح فقير. فاجر هذا الكذب في اختياله أكان أبيض أم أخضر. نعم، جميعنا يكذب كما سطر «مارك توين» في كتابه الرائع «عن اضمحلال فن الكذب»، ولكن لكل كذبة استتباعات. عشنا الكذبة التي أطلقتها مصادفة، كنا نذهب خليل ومهند وأنا بالسفينة الكاديلاك إلى مدينة الطلبة حيث يسكن حسام، ونسأل عليه الأمن: أين الباشا؟ أين الباشا؟ ونحكي قصصا عن رفعة شأن أهله حتى عرف الجميع أنه ابن عائلة إقطاعية. نخرج جميعا فيسير مرفوع القامة يتحدث معنا بعظمة حقيقية حتى ظنت عائشة أنه فقد عقله. نجلس في «لاباس» بشارع قصر النيل فيشير بإصبعه من بعيد فنأتي له بما يريد. وهناك تعرفنا على فتاة فلسطينية تدعى «ثورة»، انبهرت بحسام انبهارا عجيبا وأصبحت تتبعه أينما ذهب. ثم اكتشفنا أن لدى «ثورة» ميول عبدة ذليلة، أو يمكن القول ميولا للنموذج البدئي للجارية المتخيلة في حمامات السلاطين العثمانية، فغذت فيه روح الباشا. كان يأمرها فتطيع. وأصبح الباشا لديه موديل دائم مخصوص لسيادته. لا أنسى في أحد الأيام ونحن نسير جماعة في شارع سليمان باشا، وفجأة لم نجد حسام بيننا. بحثنا عنه فلم نجده. ثم استمعنا إلى صراخ يأتي من داخل محل أحذية، ثم علا دوى صفعة هائلة. جرينا إلى مصدر الصوت، وجدنا حسام على الأرض وركلات بائعين تضرب جسده بكل عنف. رمت ثورة بنفسها على جسده لتتلقى الركلات بدلا عنه. ودخل الرجال في عراك قصير مع البائعين. ثم تبين لنا أن صديقنا المختل قد قال للبائع وكأنه يتحدث إلى أحد عبيده: «أحضر لي بسرعة هذا الحذاء يا حيوان».

تضخمت لديه عقدة نقص كانت مختفية تحت جلده. ضغطنا عليها دون أن نقصد وانتهى به الأمر مضروبا في محل أحذية.

تناسينا في اليوم التالي قصة الصفعة، ولتلطيف الأجواء عرضنا عليهم؛ عائشة وأنا، الذهاب إلى عش غرامنا: «كشك الموسيقى». ذهبنا مع خليل وسلوى، وحسام وثورة، ومهند ومها إلى الحديقة اليابانية في حلوان ومعنا عدة الرسم. وهناك عزفت عائشة «صورا من معرض اللوحات» لموديست موسورسكي بسبب عشقى لها على الرغم من أنها معزوفة للبيانو، ووضع كل منا الحامل وعليه عدد كبير من أوراق «الكانسون». ودارت ثورة وسلوى ومها في الحديقة للإعلان عن هدية يقدمها كشك الموسيقى لرواد الحديقة برسم كل من يريد أن يتمَّ رسمه مجانا مع الاستماع إلى مقطوعة موسيقية. وللتعبير الفني عن العرض الخاص للرسم المجاني، قامت ثورة وكانت تتقن الجمباز بالرقص لجذب الجماهير. وظهرت عائلات من حيث لا ندري وسعد الأهالي برسمنا لأبنائهم، وكما في المونتمارت في باريس قمنا نحن الأربعة

برسم عدد لا أتذكره من الأطفال. حاولنا أن نرسم أيضا الأمهات والآباء ولكن جميعهم فضل أن نرسم أولادهم فقط. وظل هذا اليوم أحد أجمل أيام حياتي، ولم تؤثر عليه واقعة القبض علينا بعد قبلة سريعة بتهمة خدش النسيج المصري.

* * *

عاد أخيرا الضابط ووجهه مضطرب. توقعنا الأسوأ من جهامة منظره، لكنه أخلى سبيلنا بكل بساطة دون بالطبع أن يمنع نفسه من عظة أخيرة يبدو أنه حفظها من أحد النصوص المنتشرة.

ـ كل ابن آدم خطاء، وليس من أحدٍ إلَّا وله خطأ لا يحب أن يَطَّلِع عليه أحد من الناس، ولذلك كان السَّتْر على الناس خلقا وهديا نبويّا لما فيه من حفظ عورات الْمسلمين وسترهم. اغربوا الآن عن وجهي ولا تكرروا ما فعلتم.

فقلت له بصوت فخيم:

ـ أحب أن أقول لسيادتك: إن من سَترَ مسلمًا سَترَه الله في الدنيا والآخرة.

خرجنا ونحن نضحك ونتساءل عن مصير النسيج، وعن مصير من ستر غير المسلم. لكن لم يستمر ضحكنا كثيرا. اكتشفنا لاحقا أن – هذا الوغد – كان قد اتصل بمنزل عائشة وطلب أن يتحدث مع والدها، وجاءته إجابة صاعقة أن والدها توفي منذ خمس دقائق. عرفنا كل ذلك بعد أيام عندما تمالكت عائشة المسكينة نفسها من الضربة الهائلة التي قصمت ظهرها بوفاة والدها المفاجئ نتيجة لأزمة قلبية مباغتة.

* * *

داروين والجربوع وأصل الأنواع

الله أكبر.. الله أكبر

هتاف سبق هجوما جهاديّا انتهى بإصابتي بقطع في رأسي، وبدلا من أن يثير النداء عواطف الخشوع نشر الذعر في القلوب في أثناء غزوة غير محمودة على معرض للكتاب في كلية التجارة بجامعة القاهرة اعتبر فيها أصحاب الغزوة أننا قوم كافرون.

كانت «مها» أحد الذين نظموا هذا المعرض، وكان أحد الأغراض من وراء تنظيمه الاعتراض على اتفاقية كامب ديفيد والتنديد بسياسات السادات التي خلفت مرارة أطفأت لدى الطلبة كل أمل في الغد. اعتبر مهند، الذي يحب مها حبّا داهما كالمرض، أن مساندة حبيبة قلبه ودعمها بزيارة المعرض والترويج له مهمة مقدسة. ولأن مهند زميلي وصديقي في كلية الفنون الجميلة يأمرني وأنا أنفذ، فقد قمت أنا أيضا بدعوة الأصدقاء. كان في القاهرة بالمصادفة «أنجلو فيروبولوس» الذي جاء من الإسكندرية في اليوم السابق وأعتبره أكثر من قابلت توقدا في الذهن، فاتفقت معه أن يصاحبنا، وجاءت معنا عائشة وثورة، واعتذر حسام وخليل اللذان يعتبران النضال السياسي الطلابي جريمة لا تغتفر.

غلب على خيمة معرض الكتاب طابع البؤس، صغيرة الحجم ومتربة، منصوبة على الرصيف في شارع جانبي بجوار أحد مباني كلية التجارة. وقفت مها بجوار مدخل الخيمة ترحب بمن تعرف من الطلبة. كان ترتدي قميصا واسعا مفتوحا تحته قميص آخر مكتوب عليه «لا للتطبيع». داخل المعرض الكتب منثورة على الأرض كالدر. مناقشات حامية تدور بين طلبة يتناقشون في سياسة الانفتاح الاقتصادي وبيع الدولة لمؤسسات الدولة وسياسة الانبطاح للولايات المتحدة والتطبيع مع إسرائيل وحديث حول فتح سفارة للكيان الصهيوني في القاهرة والجميع غير مصدق أن ذلك يمكن أن يحدث. لم أجد كتبا عن الفن، كانت معظمها في علوم السياسة والاجتماع والاقتصاد والتاريخ والفلسفة والجغرافيا. كان أنجلو يرتدي شورتا طويلا وترك لحيته دون تهذيب فبدا فنانا بوهيميّا حسب التصور النمطي الذي لا أعرف من دشّنه. أما ثورة فكانت ترتدي كعادتها فستانا أقصر من المعتاد في جامعة القاهرة. فكان كلاهما هدفا للنظرات النارية من ذوي العقول المغلقة على التافه من الأمور. استمعنا إلى هتاف: «الله أكبر»، رأيت قرابة العشرين شابّا يقفون على الطِوَار المقابل، يرتدي أغلبهم ملابس قريبة مما يرتديه الباكستانيون. كان أغلبهم ملتحين. قال لي مهند: يبدو أنهم صلوا صلاة الجهاد، ولك أن تعلم يا صديقي أن من مات مجاهدا كتب الله له الجنة، فمن المحتمل أن يقتلوا بعضا منا اليوم والله هو الأعلم. كانت علاقة مهند بالجهاد منعدمة فلم أهتم كثيرا بحديثه. دخل أحدهم إلى معرض الكتاب وتوجه مباشرة إلى أنجلو وسأله:

ـ أهناك كتاب لداروين في هذا المعرض؟

نظر إليه أنجلو باحتقار بالغ ولم يرد. اقترب منه مهند وحرك رأسه يمينا ويسارا علامة النفي، فنظر الرجل تحت قدميه تماما وقال لمهند:

ـ وما هذا الكتاب؟

قرأ مهند العنوان:

ـ أصل الأنواع.

ـ أتكذب أيضا؟ وماذا ننتظر من الكفار؟ ألا يكفيكم بيع مثل هذه الكتب التي تغضب الله عزَّ وجلَّ؟

ـ ليست لي علاقة بالمعرض. أنا هنا زائر مثلي مثلك، ولا أعرف الأستاذ داروين ولا كتبه.

خرج الرجل والغضب يفور من لحمه. قالت مها في سخرية: إن دواء هذا الشاب هو الحب. صرخ مهند في وجهها قائلا:

ـ لا وقت للفلسفة. يجب أن يخرج الجميع فورا فالهجوم وشيك.

أطلق شاب لا نعرفه ضحكة وقال:

ـ دعهم يدخلون معرض الكتاب، وسوف نلقنهم درسا لن ينسوه.

حاولت أن أدفع عائشة وثورة ومها وأنجلو إلى خارج الخيمة، ولكن الاجتياح كان أسرع مما توقعنا. هجم المتنكرون في زي الباكستانيين علينا هجوم الأبطال الضواري. كان أحدهم يمسك في يده بخوذة ضربني بها ضربة هائلة على أم رأسي؛ فسقطت على الأرض وسالت الدماء من جرح لم أتبين تماما حجمه. كان أمامي رجل ضخم يلكم أنجلو في وجهه، لكن فاجأني أنجلو أنه موهوب في العمليات القتالية. كان الوحيد من الحضور الذي استطاع رد الصاع صاعين. أما من كان يريد أن يلقن المهاجمين درسا فقد تلقى ضربة واحدة من عملاق نام على إثرها على الأرض دون حركة. نال مهند من الحب الجانب الأكبر وخرج بأكثر من قطع في مناطق متفرقة في جسده؛ بسبب محاولته الدفاع عن مها التي كانت تقاتل وكأنها شاركت في حياة سابقة في فتوحات المغول. ظلت ثورة هادئة وهي تتلقى نظرات الشباب الجهادي وهي تهتك تنورتها القصيرة. مزق المجاهدون في سبيل الله كتب منعها من يملك في جماعتهم حق المنع، وطلبوا من أسراهم مساعدتهم في تمزيق أوراق هذه الممنوعات. كان من نصيبي أن مزقت حوالي عشر نسخ من أصل الأنواع وكتاب بؤس الفلسفة لماركس تحت إشراف شاب في كلية الطب يشبه تماما الجربوع بأذنه المرتفعة وعينيه الحائرتين ولونه المائل إلى الصفرة وذراعه القصيرة وساقيه الطويلتين.

يصبح هذا الجربوع بطلا لعدد من لوحاتي في هذا العام والشخصية الرئيسة للوحتي الجربوع وأصل الأنواع. كان ذا وجه مستطيل وشاحب؛ عظام الوجنتين نائتة، أنفه حاد وبارز، وشعر اللحية أسود خفيف.

دار بيني وبين الجربوع حوار قصير عندما بادرته بالسؤال:

ـ ألا ترى أن بتمزيقكم كتبا بعينها سوف تجعلني أحاول أن أقرأ هذه الكتب.

لم أقرأ كتاب أصل الأنواع، وبالتأكيد كان لا يمكن أن أفكر في قراءته، ولكن

ماحدث الآن ألهب فضولي وسوف أسعى لقراءته بالتأكيد.
ـ هذه كتب كفر تسعى لمحاربة الدين وعلينا أن نحاربها والبادي أظلم، ودورنا أن نعلم المسلم خطورة هذه النوعية من الكتب التي تلعب دور الشيطان الرجيم في الوسوسة في روع البشر لتزيين الكفر.
ـ أكل من حولك مسلمون؟ كيف تعرف ديانتي؟ أليس من حقي أن أكون بوذيّا أو ملحدا أو غير مهتم؟
ـ شوه الشيطان عقيدتك، ومتى ضرب الإنسان في عقيدته اختلت تصرفاته وانحرف ذهنه، ودورنا أن نعيدك إلى رشدك.
أعجبت بأدائه الصوتي والحركي. كان يمتلك اليقين الذي يمكن أن يحوله إلى طاووس سعيد بجمال ريشه. نظرت إلى الخيمة ووجدتها مكتظة بالحيوانات. وقف ذئب أشهب ليس بعيدا عن «ثورة»، لونه بين الرمادي والبني الضارب إلى الرمادي، ثقيل الكف والروح. ثم تابعت ضبعا يتحرك في أرجاء الخيمة جيئة وذهابا، محني الظهر، ذا عنق غليظ وخشن، يدلدل رأسه وأطرافه كأنه هذا النمر اللعبة داخل سيارات الأجرة، بدا لي أنه أمير هذه المجموعة النضالية الساعية إلى قتل داروين بعد موته بقرابة القرن من الزمان. كان هناك أيضا فنك أو ثعلب الصحراء، لونه رملي، ذو أذن مرتفعة على شكل مثلث قاعدته في الرأس. كان هذا الفنك هو من تلقى ضربات هائلة من أنجلو. انضمت عائشة إلى جماعة من البنات في نهاية الخيمة بعيدة عن الاقتتال وقد وقف هناك عنكب له أربع أعين دائرية وإيحاء لزج ورائحة كريهة. رسمت أيضا في هذه اللوحة ثعبانا أرقط يزحف ببطء بحثا عن فريسة؛ ثعبانا يليق بخيمة داروين والجربوع وأصل الأنواع.

منبت البشرية

لفروج النساء أوصاف وأسماء عربية كثيرة. قرأتها جميعها في أحد الأيام في سعيي لوصف الفرج في لوحة «أصل العالم» أو «منبت البشرية» التي رسمها جيستاف كوربيه عام ١٨٦٦م. رأيت هذه اللوحة لأول مرة في كتاب عندما كنت في الرابعة عشرة من عمري. تصور اللوحة فرج وجذع امرأة مستلقية عارية على الفراش، فخذاها منفرجتان. لا تصور اللوحة وجه المرأة بل تنتهي عند نهدها الذي يغطى الجزء الأعلى منه بملاءة، كما لا تصور اللوحة ما تحت الفخذين. الفرج في قلب اللوحة ملحم، مغطى بشعر أسود كثيف، والشق أسفل كتلة الشعر رقيق كالزرزور. ويظهر جزء من الكين. من كانت الموديل؟ لا أحد يعرف على وجه اليقين. ولكن الترجيحات تشير إلى الرسامة الأيرلندية «جوانا هيفرنان»، حتى إن هناك احتمال أن يكون «كوربيه» قد رسم وجهها في لوحة أخرى وكأنه يستكمل جسد المرأة. رسم «كوربيه» منبت البشرية بناء على طلب من «خليل شريف بك» الذي كان يشكل مجموعة من اللوحات التشكيلية عن الشهوة الجنسية.

لخليل بك قصة مثيرة. ولد في القاهرة في أحد القصور الملكية، هو ابن «محمد شريف» باشا الضابط في الجيش المصري والقريب لمحمد عليِ ولعائلته. عمل خليل شريف بك في الحقل الدبلوماسي حتى أصبح سفيرَ الدولة العثمانية في أثينا ثم سفيرها في سانت بطرسبرج ثم أخيرا في باريس. يتزوج الأميرة نازلي فاضل التي تلعب لاحقا دورا مهمّا في تاريخ مصر عبر صالونها الثقافي السياسي وعلاقتها بسعد زغلول. كان خليل بك مولعا بالفن التشكيلي، يشتري ببذخ ويطلب لوحات لاستكمال مجموعاته. كما أنه كان مراهنا وزبونا دائما عند صالات القمار. وفي هذه الصالات يخسر في أحد الأيام أمواله حتى يضطر لبيع بعض مجموعاته التشكيلية من ضمنها عدد من اللوحات عن الشهوة الجنسية وعن الحمام التركي. وتباع في هذا المزاد لوحة «منبت البشرية». قصة خليل بك محمد شريف تحتاج إلى كتاب كامل سوف أكتبه في أحد الأيام لو مدَّ الله في عمري وخاب ظنّ ماما رفيعة.

أثارت اللوحة اهتمامي وأنا صبي وما زالت. تساءلت حينها: هل أستطيع أن أرسم بعد أكثر من قرن كامل منبتا مصريا للبشر؟ هل يمكن أن أضع وجهي بين فخذي موديل لأرسم لوحة تشبهها على الرغم من كل الممنوعات التي تسعى لتكبيل كل فن وتحريم الجسد؟

بالتأكيد ممكن، لكن من يمكن أن تكون هذه الموديل؟

كان من المنطقي أن أفكر في جيهان وناريمان اللتيْن تسكنان الدور الأعلى من عمارتنا.

في بنايتنا كان يسكن صاحب العمارة إسحاق بك عبد الرحمن وزوجته أريج مهران وقد خلفا بدر الذي يكبرني بخمسة أعوام، ولهما الدور الأرضي. وتسكن بالتأكيد صاحبة المشروع والمخططة لكل شيء «جليلة مهران»،

وزوجها د. رشاد شرف الطبيب المعالج للأميرة رتيبة هانم كامل، وابنتهما سارة التي تصغرني بثمانية أعوام في الدور الأول. والمعماري نهاد مهران باني البناية وزوجته بطة وابنتاهما جيهان وناريمان في الدور الثالث. تصغرني جيهان بعام وناريمان بعامين. وكنا نحن وخالتي برلنتة نسكن شقتيْن في الدور الثاني. كنا الغرباء عن عائلة آل مهران الذين أطلقت عليهم ألقاب:

الشريرة والفاتنة والمعماري.

ولكن مع مرور الزمن أصبحوا بالفعل عائلتي الحقيقية.

لم يكن أمامي إذن سوى جيهان وناريمان بنتي المعماري؛ فسارة ابنة الشريرة وهي الفتاة الثالثة والأخيرة في عمارتنا؛ صغيرة جدّا في السن وكنت لا أراها إلا في المناسبات السعيدة، على عكس جيهان وناريمان اللتيْن كنت أراهما بصورة شبه يومية. كان وجودي في شقتهم أمرا عاديّا؛ حيث كنت أتنقل دائما بحرية بين شقتنا وشقة خالتي وشقة نهاد مهران.

إذن سوف تكون إحداهما موديلا للوحة تحمل اسمي لمنبت جديد للبشر.

لكن أي فرج سوف أختار؟

كان لوالدهما نهاد مهران وجه يساوي حجمه ثلاثة أوجه من المقاس المنتشر في أسواق وجوه الهوموسيبيان. وجه مثلث ذو قاعدة علوية عريضة وذقن مدبب، تستحق جبهته وحدها عن جدارة الأرقام القياسية في المساحة. جبهة ذات منحنيات صاعدة وهابطة تشبه منحنيات جبال الأنديز، حتى أطلقت عليه «وزير المساحة» وهو لقب يليق بمعماري مثله. عيونه واسعة وحالمة وناعسة، نظرته تحمل قدرا كبيرا من الحب للجميع وكأن أمه وزعت كل الشر على أخته جليلة وكل الطيبة كانت من نصيبه، أما الهبل فكان من نصيب أختهم الصغيرة أريج. كان أنف نهاد مهران ينافس جبهته في الحجم. وفمه كان في اتساع جوف إسماعيل يس، وأسنانه قادرة ولا شك على قضم الحديد. كان وزير المساحة كثير الغياب عن العمارة فهو لم يكتفِ بكونه معماريّا، ولكنه أسس أيضا شركة مقاولات بالمشاركة مع المرعبة جليلة. بنى عمارات لصالح إسحاق بك عبد الرحمن في مناطق بعيدة وكذلك بنى عمارة في الصحراء في حي مدينة ناصر لصالح رزق ولعة زوج خالتي برلنتة. جعلني هذا الغياب ألعب كثيرا دور الرجل بين النساء الثلاث. كانت بطة زوجته مولعة بالحركة والخروج والسفر والانطلاق. بطلة سابقة من بطلات السباحة في النادي الأهلي، موفورة النشاط، تعلق ميدالياتها في الصالون بكل فخر بما أنجزته من بطولات وطنية وعربية وإفريقية. وكعادة الأبطال الرياضيين، زاد وزنها بعد اعتزالها ولكنني لا أستطيع أن أقول إنها كانت سمينة، ربما يمكنني القول إنها كانت ملفوفة القوام. اشترى لها زوجها سيارة فيات ١٢٨ لونها أصفر، أطلقنا عليها لقب «كناري». ولأن بطة كانت لا تجيد قيادة السيارات فأصبحت منذ سن الخامسة عشرة من عمري سائق كناري وأصبح مفتاحها معي بصفة دائمة، وبالتدريج أصحبت كناري تصاحبني أينما حللت حتى ظنَّ سكان الحي أنها عربتي الشقية.

كان لبطة عشق خاص، منطقة العين السخنة، فبعد أن انتهت الحرب أصبحنا في كل جمعة من شهور العام الدراسي ننطلق أربعتنا إلى هناك. تصاحبنا أحيانا أختها وبنتها؛ لأن زوج أخت بطة جاءه عقد عمل في بداية عام ١٩٧٤ لكي يعمل مهندسا لحدائق قصور العاهل السعودي في جدة. فأصبحت «ديك البرابر» بين خمس نساء. استمرت رحلات العين السخنة لسنوات طويلة وشهد البحر الأحمر بداية مغامرات اكتشاف مكامن الجنس الآخر، مغامرات تليق بمراهقين مثلنا نهمة للمعرفة. كانت لرحلة العين السخنة طقوس تكاد لا تتغير. أرتدي المايوه وفوقه شورت أو بنطلون حسب درجة الحرارة. أختار عادة قميصا قديما لأرتديه ثم أصعد إلى شقتهم وأشارك الجميع في تحضير السندوتشات. بيض بالبسطرمة. جبنة بيضاء بالطماطم. تونة. جبنة قريش بالزيتون. جبنة رومي بالخس. ثم ملء حوالي عشرين زجاجة مياه، نستعمل بعضها للشرب والباقي لشطف أجسادنا بعد الخروج من البحر. لا تنسى بطة أبدا إحضار ترمسين كبيرين من الشاي. كانت عائلة نهاد مهران مولعة بشرب الشاي، على عكس عائلتي التي نادرا ما كانت تشرب هذا المشروب الصيني الذي انتشر عبر الكوكب انتشارا عجيبا لم أفهمه؛ فأنا لم أحب شرب الشاي قطّ. أما بطة فكانت دائما ما تكرر أنها تود أن تعرف مخترع الشاي لكي تضع له تمثالا في حجرة نومها. بعد الانتهاء من تحضير الأكل والشرب؛ أخرج من المطبخ وأتجه إلى حجرة نوم جيهان وناريمان. أضع مقعدا أمام خزانة الملابس لأحضر من فوق الدولاب خمس سجاجيد بحر. ثم أحضر سكينا ضخما، نصله طويل وحاد اشتراه نهاد من إيطاليا لصيد قنفد البحر الموجود بكميات وفيرة في العين السخنة. دربني نهاد على اصطياده وفتحه دون جرح يدي من شوكه الطويل حتى أصبحنا جميعنا مدمني أكل قنفد البحر الطازج. ولأنني كنت أقود السيارة من دون رخصة قيادة، فقد كانت بطة تدعي المرض في حالة وجود لجنة مرورية، وتقول للضابط بصوت واهن إنها اضطرت إلى أن تلجأ لي للقيادة حتى أقرب مستشفى. ثم تخرج له رخصة قيادتها. كنا نأخذ طريق السويس، وفي نهاية الطريق نتجه جنوبا لمسافة أربعين كيلومترا حتى نصل إلى «شط الوصال». هكذا أطلقنا على شاطئنا المهجور الذي لم نغيره لسنوات طويلة. نفرش الأبسطة، ونخلع ملابسنا، ونتسلل بهدوء داخل البحر خوفا من أشواك قنفذ البحر. ومع حركة الجزر، كنا نشاهد ظاهرة مثيرة للاهتمام؛ وهي جزر المياه في اتجاه الشمال والجنوب والشرق فينفتح أمامنا طريق كالذي شقه الرب لموسى. نسير في هذا الطريق شرقا في عمق البحر لمدة طويلة. ويكون حينها الماء على يميننا وعلى يسارنا، حتى نصل أخيرا بعد جهد إلى عمق مياه نستطيع فيه السباحة. هذا الجزر الجميل جعلنا جيهان وأنا، أحيانا، نبتعد كثيرا عن بطة وناريمان. وهناك تبادلنا أولى قبلات بطعم الملح وأولى ملامسات. بدأت بوضع كفي المبلولة على صدرها الممتلئ، وانتهت باحتضان متبادل لكل نقطة في جسدها وجسدي. عندما أتمت جيهان عامها الخامس عشر كانت قد وصلت إلى قمة النضج الأنثوي؛ تلك القمة الملفوفة

التي لا تصل إليها ٩٩٪ من نساء الأرض. لبن طال وضعه على النار ففار واندلق. امرأة خلقت لتتفرغ لممارسة الجنس.

* * *

مع تكرار مغامراتنا الجنسية في البحر الأحمر؛ تشجعت جيهان وبدأت في زيارتي في منزلي بعد عودتها من المدرسة. كانت جدتي بستان قد توفيت، وأمي في عملها، وزوجها لا يعود إلا في الليل. ولا يوجد في المنزل سوى صابحة الخادمة. كنا ندخل حجرتي ليتفرغ كل منا لاستكشاف جسد الآخر. كان عليَّ أن أطفئ أولا نار شهوتي؛ لأملأ عيني بهدوء من تضاريس جسدها، فالفن التشكيلي نصفه جسد ونصفه الآخر الطبيعة التي تتحكم في هذا الجسد. كانت جيهان فرصتي الأولى للارتواء دون عجلة ودون وجل، أما شهوتها هي فأبدية لا تنطفئ. كانت على استعداد تامّ أن تستمر في الملامسة حتى أبد الآبدين دون ملل ولا كلل. اتفقنا أنه ليست بيننا حدود سوى البقاء على عذريتها، هذا المحرم الذي غيّر من طريقتي في التعامل مع الجنس الآخر للأبد. كان من الطبيعي إذن وأنا شبه مقيم بين ساقي جيهان أن أختار فرجها هي دون غيرها لأرسم لوحتي المرتقبة «منبت البشرية»، ولكنني وقبل أن أضرب أول ضربة بفرشاتي لمحت فجأة ناريمان.

* * *

كانت ناريمان أصغر بعام من أختها، ساذجة، باهتة الشخصية. جسدها لم ينبت عسلا. صامتة معظم الوقت، تضحك كثيرا بلا سبب. لكن جاءت الشرارة عندما بدأت تتلصص علينا. لمحت خيالها وهي تتابع بحذر من وراء الشباك ما كنا نقوم به أنا وأختها على الفراش. كنا في رأس البر ورأسي ملقى فوق فرج جيهان، وأنا أحكي لها عن ديانات ما زالت تنبض بالحياة تعبد فرج المرأة وتقدسه، عندما سمعت حركة طفيفة عند الشيش. ولأنني في الأصل، وكما أوضحت، وشق مصري، فقد تنبهت فورا أن هناك من يحاول أن يتلصص علينا، حتى لمحت ظل ناريمان. لم أقل لأختها شيئا وظللت أتابع تلصصها علينا. الغريب في الأمر أنني انتشيت.

كانت رأس البر مصيفنا، مثلما كانت العين السخنة مشتانا. اشترى إسحاق بك عبد الرحمن وأريج مهران منزلا كبيرا يسع العائلة كلها. فكانت تسافر معهم جليلة وابنتها، ونهاد وعائلته «آل التبريزي» وتابعهم قفة الذي هو أنا. يقع المنزل بقرب منزل أم كلثوم التاريخي، ولذلك نشأت علاقة بين جليلة مهران وأم كلثوم كانت تدوم الأيام التي تقضيها نجمة النجوم في مصيف رأس البر، وتظل جليلة تتحاكى عن الساعات التي نعمت فيها بلقاء أم كلثوم طوال عمرها. بدأت معرفتي برأس البر ولم أكن قد أتممت العاشرة من عمري، ومن حينها ظللت أسافر معهم كل صيف. وكانت جدتي تسافر معنا أحيانا وتقيم في منزل عائلة فيروبولوس مع صديقتها ريتا أحيانا أخرى. وكنت حينها أنتقل للإقامة مع جدتي وأسكن مع أنجلو في حجرته. لكن هذا العام لم تأتِ عائلة فيروبولوس في الأول من يولية كما كان متفقا معهم.

ففي يوم ٢٧ يونية تمَّ اختطاف طائرة بعد إقلاعها من أثينا متوجهة إلى

باريس، وعلى متنها أدونيس فيروبولوس أخو نيكولا. ولمزيد من تعقيد الموقف، كان أخو زوج يونانية من الإسكندرية، وهي من أقرب أصدقائهم، هو عضو الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وأحد الخاطفين للطائرة وهو عم الجميلة حبيبة أنجلو. وتأتي الأوامر من قيادة القوات المسلحة المصرية لزوج أمي أن يتابع عملية اختطاف الطائرة. لكن كل هذا لم يمنع بالتأكيد عائلة مهران من السفر في الأول من يولية إلى رأس البر وأنا معهم. كما لم يمنع أن أخطف دقائق مع جيهان في الفراش، كما لم يمنع ناريمان من التلصص علينا. ظل الحوار حول طائرة الخطوط الجوية الفرنسية هو بطل الجلسات المسائية مع المخبوزات ذات الطعم الطازج وأكواب العصير وترمس الشاي:

ـ وما ذنب الأبرياء؟

ـ وما ذنب الأبرياء المسجونين في سجون إسرائيل؟ إن الجبهة الشعبية أمام محتل وغاصب لأراضيها، عليها أن تلجأ لكل الوسائل لإخراج الأبرياء من سجن المغتصبين.

ـ هذا الطريق لن يصل في استقامته لتحرير فلسطين. يجب التفكير في طرق أخرى.

ـ أي طرق وقد تمَّ إغلاق جميع المنافذ؟ منذ أيام بدأ الهجوم على مخيم تل الزعتر وعلى مخيم جسر الباشا. حالة خنق عمدي، وماذا يمكن أن يفعل من يتمّ خنقه بلا رحمة؟

ـ أيمكن الدفاع عن العنف، عن الإرهاب؟

ـ استعملنا كلمة الإرهاب لأول مرة لوصف العنف المرعب الذي مارسته الحكومة الفرنسية بعد الثورة الفرنسية، هو إذن العنف الذي تمارسه الحكومات، وفي هذه الحالة يجب أن نتحدث أساسا عن إرهاب الحكومة الإسرائيلية.

أما أنا فقد رسمت في هذه الرحلة طائرة تدخل في برج سكني. استقرت الطائرة في أوغندا بعد أن مرت على طرابلس لساعات قليلة. وبعدها تمَّ الإفراج عن عدد كبير من الركاب من ضمنهم أدونيس. وصلت بعدها بيوم دنيز ومعها أفروديت وإليني ودعوني على الغذاء للاحتفال بنجاة عم الأولاد. وكانت فرصة أن أفكر في أفروديت أيضا مرشحة محتملة للحصول على بطولة لوحتي المنتظرة. استغللت الفرصة بعد أن انتهيت من تناول الطعام والأم في المطبخ ومعها إليني ودخلت حجرة أفروديت لأطلع بنفسي على مادة لوحتي. وجدتها وقد ارتدت المايوه وشعيرات من شعر عانتها سارحة خارج المايوه. أثارتني هذه الشعيرات. تساءلت كثيرا: ماذا يفعل هذا الشعر القصير المجعد ليثير غرائز رجل؟ أيذكرنا بما كنا عليه عندما كان الشعر يغطي أجزاء كبيرة من أجسادنا؟ لا أعرف بالضبط. لكن ظل السؤال الأهم هو في الطريقة التي سوف أستعملها لرسم الشعر. اختار كوربيه أن يضغط بفرشاته لرسم بقع لونية تنوعت بين الأسود والرمادي والأحمر؛ بحيث يحدث التناقض بين الألوان ليمنح الإحساس بخصلات الشعر، ثم اهتم كثيرا بالحواف الخارجية

لرسم خصلات دقيقة وكأنها التاج الذي يحيط بالكتلة ويمنحها صفتها. استعمل كوربيه أكثر من فرشاة للتنويع في حجم الكتل اللونية، أما الإضاءة فكانت محايدة وعامة. لكنني لا أنوي أن أقلد كوربيه في الطريقة التي اتبعها. سوف أرسم خصلات الشعر من الجذر إلى الخيط إلى النهاية فتلة فتلة. سوف أبدأ بأقلام رصاص مختلفة الكثافة، بعدها سوف أمسح برقة أجزاء من خيوط الشعر لخلق انعكاسات ضوء في نهايات كل خصلة. هذا التباين بين الخيط الواضح الصريح وبين الخطوط الممسوح أجزاء منها سوف يمنح الانطباع بشعر حقيقي. كانت أفروديت مشعرة؛ يمكن لرجل أن يضفر لها شعر إبطها، وكذلك شعر ساقيها. طلبت منها أن أرسمها. انتفضت مرعوبة ودفعتني خارج حجرتها بعنف. بعدها بيوم اعترفت لي عن حادثة مريعة قد حدثت لها منذ نحو العام.

اتفق أبوها مع صديق له رسام أن يعلمها فن الرسم. وفي أحد الدروس، طلب منها أن تخلع قميصها لرسم كتفها وإذ به يغتصبها ويفض بكارتها ويخرج بعدها لمقابلة والدها بدم بارد وكأن شيئا لم يحدث.

لم تفتح فمها.

لم تستطع مواجهة حالة الذعر التي انتابتها فاستسلمت للخوف.

أمرت حزمة من الألياف العصبية الفَصَّ الجبهي للمخ أن يسقط هذه الحادثة داخل جب عميق لا قرار له. كانت المرة الأولى التي تحكي فيها قصة رعبها. ارتعشت وتغير لون وجهها من الأبيض الناصع للأزرق الأدكن.

في اليوم التالي لحادثة اغتصابها اكتشفت أفروديت أن بعض خصلات شعرها الأسود العميق قد تحولت إلى اللون الأبيض. هزتني قصتها بعنف، وقررت أن أكتفي برسم حواجبها العريضة السوداء وعيونها الكحيلة.

وعدت مرة أخرى لاختياراتي الأولى.

أأختار جيهان، أم ناريمان؟

وكان عليَّ أن أحاول لأول مرة أن أقبل ناريمان.

رأس البر مثلث كفرج. يطل ضلع على النيل، وضلع ثانٍ يطل على البحر الأبيض ورأسه في قلب البحر وقاعدته ناحية ميناء دمياط. يطل منزل عائلة مهران على البحر الأبيض. فكان من الأسلم أن أقترح على ناريمان الذهاب إلى منطقة الجربي في الضلع المطل على النيل للسباحة هناك. والشيخ الجربي شيخ من شيوخ الصوفية، كان وجهه هو أول من رسمت في أول زياراتي إلى رأس البر. تخيلته يرتدي حول عنقه مائة مسبحة من حجر الياقوت. ويلف رأسه بعمامة من صوف الجمل. أما جلابيته فبلون سماء خزامية. اخترت يوم كانت جيهان ذاهبة مع بطة للسوق واتفقت مع ناريمان للذهاب معا إلى الجربي. قمت بتأجير مركب وجدفت حتى ابتعدنا عن عيون المتلصصين. قفزنا في المياه بحيث يكون المركب ساترا لنا، ولكن كيف نمنع تلصص النوارس المحلقة عاليا. اقتربت منها ولمست أعلى فخذها بعفوية. بعدها استكملت كفي توغلها لمناطق جسدها الحميمة على أمل أن تتحرك

فيها منابع الأنوثة. ولكن مع ناريمان، كان الوضع مختلفا تماما عن أختها جيهان شعلة اللهب القادرة على التهام ما حولها دون رحمة. ناريمان قطعة من ثلج القطب الجنوبي لا يلين ولو سلطوا عليه شمس القاهرة. كنت في الواقع أسبح مع بطريق ذكر. لكنها على الأقل لم تتمنع وظلت في حالة الاندهاش الصامت اللطيف لاستكشاف الجديد.

لاحظت بعد عودتنا أن قرون استشعار جيهان المثبتة فوق جفون كل نساء الأرض قد مالت قليلا ناحية اليسار ثم إلى اليمين، ووجدت نفسي مسحوبا بعنف على سطح المنزل. هناك سألتني جيهان بلسان سليط عما جرى وكان بيني وبين أختها. نفيت تماما بالطبع حدوث أي شيء واقترحت بعدها لتهدئة النفوس أن نذهب جميعنا إلى السينما. ولتوسيع الدائرة، دعوتُ أيضا أفروديت وإليني ودنيز، وذهبنا لمشاهدة فيلمي «الفك المفترس» و«بدور».

وفي الفجر وأنا بين النوم والتخريف، قررت أن تكون ناريمان هي بطلة لوحتي منبت البشرية؛ فتلك الفتاة سوف تظل صامتة بلا حراك. أما جيهان فسوف يمنعها نهمها الجنسي المذهل أن تسكن ولو لدقائق معدودات. وبدأت أرسم خطة محكمة انتهت بنجاح منقطع النظير وأصبح فرج ناريمان بعد عودتنا من رأس البر بشهر واحد هو «أصل العالم» الجديد، واستكملت ما بدأه خليل بك منذ أكثر من مائة عام.

* * *

عراقي كوني عاري الصدر أمام فوهة مدفع قومي

هجعت جيهان وناريمان في هدأة الليل وظللت أنا في الوسط بينهما أستجدي بعض الدفء لمقاومة البرودة التي سكنتني. ألتف يمينا لأحتضن ناريمان عسى أن تنتقل حرارة جسدها إلى مفاصلي المرتعشة، لكن الحراس الأوغاد التي عينتهم لحماية بدنها من المتسللين من أمثالي منعوا طلوع أي ذرة سخونة من جسدها، وعندما يئست درت ناحية اليسار، ألصقت جسدي في لحم جيهان البض أمتص منه الرحيق عسى أن تسري في دمائي بوادر الغزو الفاتن. لكن ظل الزمهرير هو بطل الموقف.

رفرفت داخل الخيمة انعكاسات أضواء نجوم. كنا ثلاثتنا في خيمة لشخص واحد كتلة واحدة من لحم مهدود، دققنا أرجلها في الرمل في منطقة الكامب في خليج نعمة، وعلى الرغم من طول المسافة التي قطعناها بين القاهرة وشرم الشيخ فإن رهبة سيناء أثلجت أطرافي ومنعتني من النوم.

ليلتي الأولى في شبه جزيرتنا المبهرة.

الأرض التي يتجسد فيها المعنى المطلق للمقدس؛ حيث كلم الله كليم الله؛ وحيث التقى سيدنا موسى بالخضر.

عرفت القداسة معناها عندما طرقت أقدامها أرض الفيروز.

الحضور الأمثل والأكمل للجبال والوديان والشطآن.

تكتسب كلمة السكون معناها فقط على أرض سيناء.

* * *

ذهبت شادية إلى مسرح الزمالك وغنت: «يا اللي من البحيرة ويا اللي من آخر الصعيد، يا اللي من العريش الحرة أو من بورسعيد» فعبرنا ثلاثتنا قناة السويس. كنا قد استعدنا شرم الشيخ، وتمَّ التصريح للمصريين بالسفر إلى هناك. لم يكن زوج والدتي سعيدا باستعادة سيناء بهذه الطريقة، كان معاديا عتيدا لاتفاقية السلام ويرى أنها اتفاقية استسلام وخنوع. ولأنه ضابط في الجيش فكان معاديا في السر، وظلت الحدود المرسومة للمساحة الجغرافية للعلانية هي داخل جدران المنزل. وبين حيطانها كانت تنفجر طاقات الغضب بداخله. حاول إلغاء الرحلة. طلب مني تأجيل الذهاب حتى نستعيد كرامتنا المهدورة. ولكنني صممت على السفر قائلا له إننا سوف نستعيد تلك الكرامة بعد أن أموت بفترة طويلة، ولي الحق في أن أرى الفيروز رأى العين. حاول إقناعي فأعلنت له أنني غير مهتم بعالم السياسة وما يهمني هو الجمال وفقط.

عندما علمت ناريمان بخطتي فتح سيناء؛ صرخت في وجهي صرخة مدوية: «فيها أو أخفيها».

لا مانع بالطبع ان تكوني فيها. كان لابد من تأليف كذبة صغيرة لإقناع نهاد مهران وبطة. ادعت ناريمان أنها رحلة جامعية سوف تضم خمسين طالبا

وطالبة. وصمم الأهل على أن تذهب معها أختها الكبيرة.

كنت في هذه الفترة أمارس كل أنواع ودرجات العشق مع الأختين، وكل واحدة منهما تدعي كذبا أنها لا تعرف أنني أتبادل آهات الغرام مع أختها. كانت أسعار الفندقين الوحيدين في المدينة: مارينا شرم وأكوا مارينا لا تناسب قِصَر لحافي. راقت لي فكرة التخييم. ظهر لي حينها صديق بالصدفة وأنا أسير في شوارع جاردن سيتي، وكعادتي في استقبال هدايا الحياة لي، لم أستغرب من المصادفة السعيدة. رحب بأن يعيرني خيمة كبيرة لأربعة أشخاص.

تعرفنا في الحافلة التي أقلتنا من القاهرة إلى شرم بامرأة جميلة في حوالي الخمسين من العمر جلست بجوار ناريمان. كانت صامتة وحزينة.

سألتها:

ـ لماذا كل هذا الحزن الذي يفيض من عينيك؟

ردت أن أباها وأمها خلَّفا الحزن بعد ميلادها بعام واحد وأطلقاه في المنزل يرعى ويفلح، ثم انتقلا إلى الإقامة في الملكوت الأعلى وكان عليها أن تحمي أخاها الصغير، فأخذته في حضنها وعاشت له.

ـ وما اسمك؟

ـ تارا.

ـ كم هو اسم جميل. وما معناه؟

ـ النجم باللغة الفارسية، أو هكذا قال لي أبي.

جاءت تارا إلى مصر من بلدها العراق منذ أكثر من ربع قرن لتتزوج مصريّا، منحها الجنسية المصرية ومات. عاشت غريبة في مكان لم تقع في عشقه وظلت دجلة تناديها، ولم يستطع النيل أن يعوضها. استطعنا بعد ثلاثمائة كيلومتر أن نضع ابتسامة شاحبة على وجهها. وبعد خمسمائة كيلومتر ضحكت ضحكة أسعدتنا نحن ..

الثلاثة. سألناها: وأين سوف تسكنين في شرم؟ قالت لنا إن لها قريبا سوف يستقبلها وهو من حجز لها مكان إقامتها.

* * *

فوجئنا بعد وصولنا أن الخيمة تسع شخصا واحدا شريطة أن يكون من قليلي التغذية، أو أحد المقيمين في منطقة مجاعات. كيف يمكن أن ندخل فيها ثلاثتنا؟ منطقيّا مستحيل. كان الوقت ظهرا والشمس ترسل أشعة نارية فلم نفكر كثيرا في الأمر. غيرنا ملابسنا ونزلت جيهان وناريمان إلى البحر، وجلست وقد أصابني سهم الله. هزيز كهزيز الرحى أدار رأسي. أحسست بثقل الجبال على كتفي. وأمسكتني رهبة لم أعرفها من قبل. مَرَّ اليوم ونحن نكتشف المكان. تعرفنا على بائع السمك وعلى البقال. لم يكن هناك خباز قريب من المكان الذي نقيم فيه، وبدت لي هذه المشكلة من الكبائر لكن اطمأن قلبي أن الأسعار في المتناول وأن ما معنا من النقود سوف يكفينا

لمدة أسبوع. وكما لسعتنا شمس الظهيرة سلختنا برودة الليل. حشرنا أجسادنا داخل الخيمة بعد الغروب بقليل وكنا لم ننم منذ يومين. نامت البنتان فورا وظللت أنا أكلم الله. غشى الخدر أعضاء جسدي كله عدا دماغي التي أبت أن تريح بدني وتنام هي الأخرى. تذكرت ما كانت تقوله لي جدتي بستان إن اتجاه الجسد يلعب دورا أساسيّا في التمتع بنوم عميق. وأظنها قالت لي إنه من الأفضل أن يتجه الرأس نحو الشمال. لم تكن معي بوصلة ولكن بالحسابات البسيطة كان يجب أن أقلب جسدي. فجعلت قدمي بين رأسي جيهان وناريمان ورأسي في مدخل الخيمة، وتوسلت للنوم أن يحضر بجلاله الأخاذ.

يبدو أنني نمت قليلا؛ لأنني وبسرعة أصبحت أعيش داخل حلم. جيهان وناريمان تلحسان وجهي بلسانهما. يلحسان وجهي بقوة غير معهودة. استمتعت في البداية ولكن سال لعابهما حتى بلَّ رأسي كله. فتحت عيني فلم أرَ شيئا؛ كانت عيني مغطاة بالكامل بلسان هائل الحجم. صرخت، فرفع جملٌ وجهه وعاد خطوة إلى الخلف مذعورا من صرختي. جمل ضخم يداعبني أو يلعب معي وهو يلحس وجهي، وبدلا من أن أداعبه بالمثل صرخت في وجهه. لم يعجبه الأمر ورحل في تمهل. لم تتحرك البنتان من صرختي. تركتهما وخرجت من الخيمة لأغسل وجهي في البحر وأزيل بقايا لعاب الجمل.

كنت ما بين اليقظة والمنام غير مدرك في أي زمن أعيش. ما بين الخيمة والجبال والجمل والبحر والرمال والسماء والنجوم، انتقلت إلى العام المجهول الذي وصل فيه سيدنا موسى إلى سيناء. جلست على الرمل أتأمل بريق نجوم السماء. تذكرت تارا نجمتنا في الحافلة فوجدتها تجلس ليست ببعيدة مع رجل يقاربها في العمر. كانا يتناجيان بصوت خفيض. وصلتني موسيقى صوتهما مع حركة الرياح. لم تكن موسيقى مصرية. كانا بالتأكيد يتحدثان بالعراقية. لم يكن ممكنا أن أقاطعهما وهما في حالة الوجد هذه. حملت موسيقى كلامهما حالة لونية بين الشوق والصبابة. ظللت في مكاني تمثالا من زبد البحر. كان اليوم محاقا، وبساط السماء مرصعا بالكامل بنجوم أرسلت عبر الزمن ضوءها إليَّ. تاه النوم وفقد طريقه إلى عيني. استسلمت للمشيئة وتركت أصابعي ترسم على الرمال نجوما خماسية كتلك التي تلمع فوقي. تأملت ما رسمت من نجوم وقلت بصوت عالٍ:

«أين أراضيك الآن يا أستاذ «فورسو؟».

كان «فرانسيس دالي» مدرس اللغة الإنجليزية بالمدرسة، شابّا من مدينة مانشستر خرج عن المسيحية واعتنق ديانة جديدة تدعى «ويكا» تمَّ تقديمها للجمهور في إنجلترا في عام ١٩٥٤. ديانة وثنية جديدة تؤمن بإله ذكر ذي قرنين وإلهة أنثى تمثل ثالوثا مقدسا: العذراء والأم والعجوز الحكيمة. كان الأستاذ فرانسيس يحمل دائما سلسلة فضية من نجم خماسي داخل دائرة. لفتت نظري من جودة صنعها ومن جمال الخرزة الزرقاء في وسط النجمة. بدأت صداقتنا عندما رسمت النجمة، وقد بذلت جهدا كبيرا ليظهر

لمعان الفضة على الورق وأعطيته الرسم هدية. حكى لي بعدها عن ديانته الوثنية وطلب مني ألا أخبر أحدا؛ لأنه من الصعب الحديث عن مثل هذه الأمور في الدول المتخلفة كتلك التي نعيش فيها. أخذتني الحمية وبدأت أدافع عن بلدي. ولكنني في نهاية النقاش كنت قد اقتنعت على الأقل أن موضوع الدين أمر حساس في بلادي أكثر منه في بلده. تعني كلمة «ويكا» الحكمة في اللغة الإنجليزية القديمة، وكان الأستاذ فرانسيس يمارس طقوسا دينية وثنية للإلهة «هيسات» إلهة القمر في حالة المحاق. أي في حالة التواري والاحتجاب. كحالة القمر في تلك الليلة التي اكتفت بتعليق النجوم على صفحة السماء. وفي منزله علق على الحائط لوحة للشاعر والفنان الإنجليزي «وليم بليك» وقد رسم «هيسات» وهي تغطي جسدها برداء أسود يليق بحداد السماء على تخفي القمر. كان يحب شعر بليك ويكرره كثيرا وقد حفظت بعضه. أتذكر حتى الآن القصيدة القصيرة: «الوردة العليلة». تلك الوردة ذات المهد القرمزي التي تموت من دودة خفية تعوي وسط العاصفة. في منزله تحدثنا كثيرا عن النجوم وكيف رسمها البشر عبر الزمن.

ترمز النجمة الخماسية لديانة الويكا للخماسي: الأرض والهواء والنار والماء والفراغ. تطلَّع الإنسان دائما إلى أعلى، وتأمل النجوم ورسمها، ثم مع تقدم الزمن أضاف بعض الرموز لزوم الشيء. كتب صديقي الحبيب فنسنت فان جوخ: «كانت لديَّ حاجة رهيبة إلى، هل أقول الكلمة، إلى الدين، فخرجت في الليل ورسمت النجوم». كلنا فان جوخ. يدفعنا المقدس إلى النظر إلى السماء، ثم يدفعنا حسنا الفني إلى رسم هذا المجهول البعيد المتناهي. احتاج الإنسان إلى الدين، واحتاج الدين إلى الفن، ثم أثقله بهذه الرموز.

ظللت أتابع السماء. لم أشهد قطّ ما أراه الآن. أنا ابن القاهرة المحرومة دوما من السماء. يا لغرابة وروعة ما أراه من نجوم، وتنويعاتها اللانهائية. رسم المصريون حول الإلهة «نوت» نجوما خماسية رقيقة وطائرة، ورسم الكلدانيون نجوما رباعية وثمانية، ورسم الجميع نجوما سداسية لأنها أكثر هذه الأشكال ثقلا. ستة أهرامات داخل دائرة. تخيلوا وزن هرم واحد، فما بالكم بستة أهرامات مرة واحدة داخل أكثر الأشكال الهندسية جمالا: قرص الشمس رع؟ معجب أنا بعملة صلاح الدين الأيوبي ذات النجمة السداسية. المضحك المبكي أن البشر الآن يتعاركون حول ملكية كل طائفة لشكل من أشكال النجوم. كم حققنا من تطور، وكم ننجز من سخافات! تنتصر دائما الخفة والتفاهة والضآلة على الجدية والعقل والانضباط.

طرقْت يد كتفي وأنا جالس مع الأستاذ «فورسو» سارحا في ملكوت السماء أرسم عملة صلاح الدين. كانت يد تارا.

ـ فليهنأ من أخذ عقلك.

ـ أهلا يا تارا. كنت أتذكر أحد أساتذة اللغة الإنجليزية.

ـ أين جيهان وناريمان؟

ـ تأكلان الأرز باللبن مع الملائكة.

ـ أعرفك على صديقي التاريخي صالح شفيق الذي لم ألتقِ به منذ عشرات السنين.

ـ أهلا وسهلا. حدثتنا عنك تارا في الطريق إلى هنا.

صالح شفيق رجل قصير القامة، بهيّ الطلعة، ذو جبهة عريضة وشعر خفيف بنيّ اللون، وصلعة معتبرة. لوحت وجهه الشمس حتى بدا وكأنه فرخة محمرة. وقف إلى جوار تارا وهو يبحلق في الخطوط التي حفرتها أصابعي على الرمال. لم أفهم سبب حالة التعجب البادية على ملامح وجهه الأحمر حتى بادرني بالقول:

ـ هل ترسم علم إسرائيل؟

ـ هذه نجمة سداسية.

ـ هذا رمز إسرائيل. نجمة داود.

أعرف أن هناك نجمة في علم إسرائيل، مثلهم مثل أعلام المغرب والجزائر وتونس وسوريا وموريتانيا والصومال والأردن وجزر القمر وهذا في منطقتنا فقط، فلم أفهم لماذا أهتم إلى هذه الدرجة بخطوط نجمة على الرمال.

ـ وهل احتكر الأستاذ داود كل النجوم المرسومة بست زوايا؟

ـ داود هذا ملك.

ـ وهل هناك ما يمنع أن يكون ملكا وأستاذا؟

ـ أظن أنه ليس هناك مانع.

قبلتني تارا من فوق رأسي وهي ترفع يدها للسماء.

ـ هذا يا صالح من حكيت لك عنه. فنان كما قلت لك، ومن الطبيعي أن تعزف أصابعه على الرمال.

قمت وسرت معهم على الشاطئ.

ـ أرأيتم مثل جمال هذه الليلة. لم أرَ قطّ نجوما تسطع بهذا اللمعان.

ـ لديك كل الحق. أسكن هنا منذ سنوات، وأعتبر أيام المحاق والبدر هما أجمل يومين في الشهر.

سكت فجأة وكأن أحدهم قبض عليه متلبسا بجرم.

ـ كيف تسكن هنا منذ سنوات ونحن استرجعنا شرم الشيخ منذ فترة قصيرة؟

ضحك صالح عاليا من خيبته. وخففت تارا حدة التوتر. وببساطة غير مفهومة عرفت أن صالح شفيق يهودي عراقي. ولد في بغداد عام ١٩٣١. هاجر إلى إسرائيل في سبتمبر من عام ١٩٥٠ مع عائلته الصغيرة المكونة من والده وأخته الأكبر منه. على عكس أخته لم يندمج في نمط الحياة في إسرائيل. فاستغل فرصة سنحت له بعد نكسة ٦٧، ووجد لنفسه مكانا للعمل في شرم الشيخ. ومن حينها انتقل للحياة هنا.

ـ وكيف استطعت الهروب من الجميع؟ كيف تركك الإسرائيليون هنا؟ وكيف لم يلحظ المصريون وجودك؟

ـ هذا الجميع هم كارثتي. مصيبتي أنني لا منتمٍ في عالم يرفع الأعلام فوق كل جثة وعلى كل حجر. لا أنتمي إلى أي دين. ولا أشعر بالانتماء إلى أي دولة ولا إلى أي مكان. انتمائي الوحيد إلى اللغة العربية التي ولدت أتحدث بها. هؤلاء المنتمون هم أعدائي. هم من يرفع السلاح ضدي باسم هذا الانتماء. دمر هؤلاء الأوغاد حياتي بالكامل. تلخص حلمي في أن أجد مكانا لا يرفع علما، ولا يدعي سكانه أنهم خير من سكن الأرض.

ـ لكنك لم تجب عن سؤالي.

ـ أصدقائي من عرب سيناء أخفوني عن العيون في أحد الوديان لمدة ثلاثة أعوام. وعندما بدأ المصريون يهلون على شرم الشيخ؛ صعدت فوق الأرض. وصلت إلى المدينة كما وصلت أنت. وتمَّ تدبير بطاقة هوية وكأنني من عرب سيناء. لكن كما ترى في أول حوار حكيت لك حكايتي. سوف يقبض عليَّ قريبا بتهمة التجسس. لن يفهم أصحاب البيارق الخفاقة من لم يمسك قطّ بعلم.

ـ من ناحيتي لن يسمع عنك أحدٌ.

ـ أرجو هذا.

ـ ولكن هل ممكن فعلا ألا تنتمي إلى بلد أو إلى دين؟ أليس هذا الشعور بالانتماء احتياجا إنسانيا أصيلا يعزز الجين الاجتماعي بأنني جزء من كيان أكبر من جسدي؟

ـ الجين الاجتماعي يجعلني أحب أصدقائي وأهلي. جعلني أهيم بتارا طوال حياتي. لكن أن أنتمي إلى جيش يصرخ بالدبابات والطائرات فهذا لا يمكن أبدا. بنيت للأسف حضارتنا على دين وجيش. تاريخنا كله هو تاريخ الفتوحات التي راح ضحيتها الملايين من البشر. قتل باسم الدين وباسم أوطان تخيلناها. منذ ولدت وأنا أهرب إلى مكان يمكنني فيه أن أشعر بإنسانيتي وحريتي. فأنا ضد الأديان وضد الجيوش. ولكن من يملك صياغة العقول يمنعني من الوصول إلى مرفأ.

ـ ومن هؤلاء الذين يملكون حسب قولك صناعة العقول؟

ـ الثلاثي المخيف: رجال الدين ورجال المال والجنرالات.

ـ يسألون في هذه الحالة: ومن سوف تشجع في مباراة كرة قدم تجمع بين العراق وإسرائيل؟

ـ لن تفهم. ربما لأن عقلك تمت صياغته من أجل ألا تفهم. لكن إجابتي أنني لا أهتم بمثل هذه الأمور. فكرة المنافسة لا أفهمها. من المنتصر أمر لا يهم. الأهم أن نفكر في إنسانيتنا. الألعاب والحروب قائمة على المنافسة من أجل أن ينتصر أحدهم. ولكن إذا فكرت أنه لا يمكن لأحد أن ينتصر. لكان من الممكن فقط للإنسان أن يحتضن مَنْ حوله بحبّ.

ـ لا أفهمك. ألا توجد في ظنك أوطان وقوميات؟ كيف إذن نبرر النعرة الفرنسية أو الألمانية أو العربية؟

ـ مفهوم الأوطان بالمعنى الذي تفهمه حديث جدّا. لعبت القوميات دورا أساسيّا في الحروب والصراعات في القرن الماضي. وبالتأكيد لا يمكن أن تكون ولدت بهذه القوة. ما حدث أن هذه القوميات القاتلة هي وريثة مفهوم قديم.

ـ أي مفهوم؟

ـ قدسية اللغة التي تتحدث بها كل قومية. هذا الشعور أن جماعة تتحدث لغة واحدة، وأن هذه اللغة لها قداسة. فاليهود يتصورون أن العبرية لها علاقة بدينهم، وكذلك المسلمون مع العربية، والهنود مع السنسكريتية، والصينيون مع الماندرية واللاتينية مع مسيحيي أوربا. منحت هذه القدسية القوة الدافعة للشعور القومي. وفي حالتي البائسة تعارض ديني اليهودي مع لغتي العربية وأصبحت تائها ثم محاصرا، وفي النهاية مطاردا من الجميع.

ـ أتمنى أن تجد الأرض التي تبحث عنها.

ـ لو لم أجدها فلي أمنية أخرى أكثر واقعية.

ـ أن تخطف تارا على حصان أبيض؟

ـ هذا ليس حلما بل واقع تحقق بعد طول انتظار. لكن حلمي الآخر أن أعود إلى عصر أخناتون. أشرح له قبل أن يقوم الكارثة التي أوقعنا فيها، أن ما سوف يفعله سوف يفتك ببني الإنسان للآلاف القادمة من السنوات. فكرة الإله الواحد التي أسسها، فعل القتل المعنوي لجميع الآلهة الأخرى، هذه كانت بداية مرحلة وبال ما بعده وبال. كانت الآلهة تعيش جميعها في وئام، ثم جاء أخناتون ليقضَّ مضاجع الآلهة. يا له من أحمق قصير النظر. أتمنى أن أعود إليه في شبابه وأحكي له عن نتائج ما سوف يفعله لعله يتعظ ويفهم أن التعدد أفضل من الواحد لأننا ببساطة مختلفون عن بعضنا البعض، ولكل شخص أن يبحث عن الإله الذي يرضيه.

ـ يعجبني أخناتون لأن الفن في فترة تل العمارنة تحرر من الكثير من القيود التي كانت تكبله.

ـ ألا ترى من الدنيا سوى الفن؟

ـ يكفيني وزيادة.

أحب صالح تارا وهو في السابعة عشرة من عمره. لم يهتم بكونها مسلمة ولم تعبأ هي بديانته اليهودية. عاشوا قصة حب تليق بقصص عشاق ليالي ألف ليلة في بغداد القديمة. وفي يوم لم تشرق فيه شمس طرد أبوه من عمله، وقتلت أمه في الشارع. زلزلت الدنيا من تحت أقدامه. وفي يوم عيد الفصح اليهودي وجد نفسه في ذراع أبيه متوجها إلى إسرائيل عن طريق قبرص فيما سمي بعملية «عزرا ونحميا». أدرك حينها أن السياسة التي تفصل الحبيب عن حبيبته هي عدوه الحقيقي.

عرف بعدها بسنوات بزواج تارا إلا أنه قرر أن يظل وفيّا لها مهما جرى. ودارت الأيام ليلمع النجم الساطع، ويتم اللقاء هنا بعد أكثر من ثلاثين عاما.

جلسنا بجوار نخلتين توأم يشكلان هلالين يرسم بدرا على الأرض. جاءت جلستي في الوسط بين النخلتين، بينما جلست تارا أمامي وصالح إلى جوارها. لم يفارقني قطّ منظرهم وهم جالسون أمامي في تلك الليلة. يفصلهما حياء، ويجمعهما ود هادئ. أتتبع صالح وهو ينظر إلى أصابعها المفرودة على الرمال، يحرك يده ببطء على أمل الملامسة. ولكن ما إن تقترب يده من كفها حتى يأتيه نداء باطني فيسحب يده لتبتعد ببطء عن مقصدها. عندما حلَّ بنا التعب لعبنا لعبة النجوم، حينها مَرَّ من أمامنا شابّ يرتدي قميصا عليه النجمة الحمراء وتحتها المطرقة والمنجل فضحكنا جميعنا.

لم أنم ليلتها. سكنتني سكينة وطافت طاقة من الصفاء تغلغلت في روحي. شاهدت شعلة النجوم التي قضت نحبها، وعرفت أن الموت حياة.

عدت إلى شرم الشيخ بعد عامين من زيارتي الأولى لها. بحثت عن صالح. وعرفت أنه قتل داخل شقته وقيدت الوفاة: أزمة قلبية داهمته خلسة في بهيم الليل.

* * *

يد الإله أوال على وجه ليلى الساطع

تركت لي ليلتي الأولى في منزل جدتي طعم العلقم في حلقي بينما أذابت ليلتي مع ليلى كل ما علق من علقم في روحي، وانطبع رأس الإله «أوال» في ذاكرتي كما لم تنطبع صورة أخرى. وجهه وجه ثور. طارد هذا الثور لوحاتي على مدى عمري حتى أضحى شعاري. تمنيت ولا شك أن أهرب من مصير الثور في الساقية وأصبح حرّا مثلي مثل «أوال». سكنني هذا الثور الرب بعدما ارتبط حضوره بقصة حب أتت كعاصفة قلعت روحي من جذورها؛ فأمسكت بقرن أوال حتى لا أطير في السماء بلا رجعة.

لا أعرف متى بدأت عبادة هذا الإله، ولكنني بالتأكيد عبدت العشق. كنت ممسكا بيدها عندما وقعت عيني على أوال. كنا في جزيرة المحرق في البحرين. تلك الأرض التي تشبه جسد الثور دون رأسه. يبدو أن الجغرافيا هي الأخرى آمنت برأس الثور مثلها مثل المؤمنين الذين وضعوا أوال داخل أرواحهم لفترة طويلة من الزمن.

هبطت ليلى على حياتي بعد تخرجي بعامين، بعد أن كنت على تمام الثقة أن ما يربطنا نحن معشر الرجال بالنساء هو غريزة جنسية هدفها الوحيد بقاء النوع. وإذ بي وأنا على أعتاب ربع القرن الثاني من عمري، أكتشف أن هناك وشيجة أخرى تربطنا بهذا الجنس العجيب. لفتت نظري ليلى بملامحها الفجة الأنيقة وتضاريسها البارزة الواسعة الكبيرة الشاهقة، وجسدها الفارع، وشعرها الطويل، وكفها الكبيرة، وبياضها الناصع. تتحدث ليلى وكأنها أميرة نوبية زرعت أنفها في البدر. يعيبها أنها تحشر كلمات إنجليزية وسط حديثها. ولكن لا يعيب الملكات ما يعيب البشر الفانين.

* * *

كنت أسير في شارع محمد محمود علي بعد خطوات من مدرستي عندما التقيت بكامل زهدي زميلي في الكلية. أخذني بالأحضان، وبعد السلامات والأشواق قال لي:

ـ ماذا تفعل في حياتك في الشهرين المقبلين؟

ـ ألون السحاب!

ـ ومن الملاك الذي يدفع لك ثمن هذه الدهانات القرمزية؟

ـ ألونها بأشعة الشمس.

ـ أما زالت أقدامك مغروسة في السماء؟ ألم تدرك أن جميع شياطين باطن الأرض قد خرجوا هذه الأيام إلى النور، وتركزوا جميعهم في القاهرة لتوزيع الأموال على من يريد؟ أسقط كارتر الفراخ فوق رءوسنا بطائرات سام ٧ وأنت لم تقبض بعد على قدم فرخة واحدة!

ـ أنتظر صدر فرخة.

ـ التقط إذن هذه الفرصة. ينظم أبي معرضا للمجوهرات في البحرين، ويريد

على هامش هذا السوق أن يقيم معرضا تشكيليّا ليمنح الانطباع الكاذب بأن المعرض فني في الأساس، وطلب مني أن أجد الشخص المناسب لتنظيم المعرض التشكيلي من شباب الفنانين العرب على أن يكون قادرا على جذب لوحات لها قيمة فنية. ما رأيك؟

ـ وماذا سوف أربح؟

ـ سوف تخرج بمبلغ لن يقل عن خمسين ألف جنيه.

خمسون ألف جنيه في هذا الزمان رقم يهز الوجدان، ويدفع غضاريف الركبتين إلى الارتعاش لمدة لا تقل عن الدقيقتين. الأهم أن المبلغ يكفي لشراء مرسم وأكثر.

ـ ومتى أقابل والدك؟

ـ سوف أتصل بك مساء لأبلغك بالموعد.

لم تكن مصادفة كامل أول مصادفة تؤثر على مسار حياتي. بل يمكن أن أقول إن حياتي كلها كانت سلسلة من هذه المصادفات حتى اقتنعت بأنني «فيَّ شيء لله». يتابع الله خطواتي ويقدم لي العون في كل محطة من محطات عمري.

أأنا محظوظ بشكل خاص، أم أن جميع البشر محظوظون بنفس القدر حتى من لم يعرف منهم ذلك؟

أثق اليوم بأننا كلنا محظوظون بنفس القدر، لكن كل واحد فينا يتصور أن الله اختصه بقدر أكبر من الشفقة.

التقيت كامل في زمن فوضى عامة عارمة، وداخل هذا الهرج السياسي والاقتصادي انتشرت معارض لكل أنواع البضائع: موبيليات. مجوهرات. كتب. سلع معمرة. ملابس. كان زمن الاستيراد والمقاولات والثروات السريعة وزمن شراء لوحات تشكيلية لتزيين جدران المنازل الجديدة التي يبنيها نجوم المجتمع الجدد، أو ممن أطلق عليهم حينها «القطط السمان» في هجوم لا معنى له على القطط الماو المصرية الجميلة. ذهبت في اليوم التالي مباشرة إلى الأستاذ زهدي والد كامل في مكتبه بشارع البطل أحمد عبد العزيز. كان الرجل نموذجا لرجل المرحلة. عاش في الستينيات من القرن العشرين في الكويت، وفي السبعينيات في الدمام. ثم انتقل إلى الإمارات في نهاية السبعينيات، وعاد إلى بلده في عام ١٩٨١ ليفتتح سلسلة محلات للمجوهرات. في يده مسبحة، وعلى جبينه زبيبة، ويتكلم بالأرقام، ويكرر بلا معنى مقولة إن تسعة أعشار الرزق في التجارة. صديقه وشريكه رجل أعمال من البحرين له صلات بأغنى أغنياء شرق السعودية. كان الأستاذ زهدي ودودا معي، وطلب مني ما أعرف أن أقوم به.

ـ أريدك أن تنظم معرضا يضم خمسين لوحة لخمسين فنانا مختلفا.

عرفت منه أن العارضين في المعرض الأساسي يمثلون أكبر محال المجوهرات في مصر وأوربا. سوف تعرض شركة ألمانية هي الأشهر في هذا المجال قطعا تصل قيمتها إلى أرقام بعدد أصفار لم يحددها، ولكنه استعمل

حركة من جسده المترهل توحي بضخامة المبلغ. أكد لي في النهاية أن جميع اللوحات سوف تباع في هذا المعرض، وأنني سوف أحصل على عشرين في المائة من قيمة المبيعات.

يا أهلا بالبحرين وأموال البحرين.

قبل أن أترك مكتبه بدقائق، دخل علينا الصائغ منير مجدي المشارك في معرض المجوهرات ودخلت وراءه ابنته ليلى. وهنا وقعت الواقعة دون العلامات والإشارات التي يجب أن تسبق قيام الساعة. عرفني الأستاذ زهدي عليهما، وعندما أمسكت يدها انتهى زماني الذي أعرفه ليبدأ زمن جديد، وانقسمت حياتي إلى ما قبل هذه اللمسة وما بعد هذه اللحظة.

خرجت أتساءل: كيف لفتاة أن تشعرك أنك صغير كذبابة؟

كيف أن الضوء الذي تبثه يضيئها وحدها ويُدخل من حولها في دائرة الظلمة؟

دخل البدر الحجرة فخرجت منها محاقا، نظرت في مرآة المصعد فلم أجدني. بطشت بكياني دون أن تدري. لم أفهم أو أهضم ما حدث.

وجدت الأمر بعد ساعات أمرا سخيفا وسطحيّا، ومن غير اللائق أن أشعر بمثل هذه المشاعر الرومانتيكية السقيمة. كما لم أرتح لشعوري بهذه الدونية المفاجئة أمام مطلق مشع مثلها.

قررت أن أنسف هذه الشمس من حياتي، وأن أبدأ في تنظيم معرضي التشكيلي في الظلمة، كما شرعت من فوري في البحث عن شقة لشرائها من السمك الذي ما زال في الماء لتحويلها إلى مرسم. دارت الأمور في فلك رسمته بدقة، كل شيء سار كما ينبغي أن تجري الأمور. اتفقت مع خمسين فنانا وأنهيت إجراءات شحن اللوحات التشكيلية، وتصورت أن الحياة لونها لون زهرة البنفسج المبهجة، لكن العقل الخسيس له عندما يهوى منطق الطير، تمركزت داخل رأسي في ليلة السفر إلى البحرين جحافل من جراد:

ماذا تفعل في أيامك يا أغبى بهيم الأرض؟

هل سوف تلقي حياتك في سلة مهملات؟

هل سوف تحولك الحياة إلى جامع «سبارس» تلتقط جنيها من هنا وعشرة من هناك؟

أيجب أن أندفع مستسلما مع الجميع في الاتجاه الواحد الأوحد؟ القبلة المقدسة؟

تذكرت السؤال الذي قرأته صغيرا في كليلة ودمنة:

(أيُّ هذه الخلال ينبغي لمثلي أن يلتمس؟

وأيها أحرَى - إن هو بغاه - أن يُدرك منه حاجته:

ـ «المالُ، أم اللذاتُ، أم الصوت، أم أجرُ الآخرة؟).

حدد عبد الله بن المقفع أو المؤلف الهندي إذن مطالب أربعة:

أسافر الآن من أجل البغية الأولى في الترتيب.

وأتساءل بالنسبة إلى الثانية: هل يندرج يا ابن المقفع تحت اللذات القيام بما يسعدنا، أي أن أرسم وفقط؟

أما الصوت أو الشهرة فلا أبتغيها.

وأجر الآخرة هو ما أفكر فيه الآن وأنا على أعتاب موت أعلنته لي خريستيانا، وأعترف أنني لم أفكر فيه حينها.

شعرت ليلتها باحتقار عميق لنفسي. ولكنه شعور تبخر صباحا بعد أن تذكرت مبلغ خمسين الألف جنيه. يبدو أنني خلقت لأكون جامع «سبارس» وأنا أصطنع نفيا كاذبا.

أأنا فنان، أم تاجر؟ هل أرسم ما أعشق، أم أرسم ما يريده من يدفع؟

تبدو هذه النوعية من الأسئلة الآن ساذجة، لكنها كانت علامات الاستفهام التي تدور في رأسي وأنا في هذه السن في أول مواجهة لي مع فكرة أن أربح مبلغا خياليّا.

بعد أن وزنت حقائبي في المطار، رأيت ليلى زهرة من ألق يدور حولها النحل لخدمة ملكتهم المتوجة. قررت ألا أعيرها اهتماما؛ فلن أكون إيكاروس ولن أحترق اليوم من وهج أشعتها.

جلست في القاعة المخصصة أنتظر موعد الاقلاع. وعندما لمحتها تهل من بعيد فتحت كتابا لأقرأ فيه. لكنها تقدمت نحوي وعرفتني بنفسها تذكرني بلقائنا. سلمت ببرود من يريد أن يهرب من لهب القيظ وعدت إلى كتابي.

تأخر وصول الحقائب في مطار المنامة. جلست بعيدا أنتظر وأنا أتعجب من وجود أمن في المطار من غير سكان البحرين. لم أفهم الفكرة. جنود أجانب في دولة مستقلة؟

اقتربت مني ليلى وسألتني إذا كنت أتجنبها لسبب ما.

يبدو أن الشمس لا تطيق من يجلس في الظل.

أجبت بالنفي واستكملت مشروع الابتعاد عنها بأي ثمن.

انشغلت بقية اليوم وفي الليل جاء «كامل» إلى الفندق وأخذني لأسهر مع مجموعة من معارفه من البحرين وعدد من أصحاب محال المجوهرات في ملهى ليلي يضم جنسيات العالم. حضرت الألمانية صاحبة أشهر محال المجوهرات في ألمانيا لتنظر إلى الجميع من فوق برج ماسي وهي تحمل في يدها زوجها كأيقونة قوطية قديمة. كانت البائعات اللاتي جئن لبيع المجوهرات في المعرض لآلئ عقد هو أجمل ما رأيت في حياتي. لا أتصور أن إمبراطورا من الأباطرة العظام شاهد في جلسة واحدة هذا المستوى من الملاحة الوضاءة والبهاء كما رأيت بعيني في هذه الليلة. سوف تباع بالتأكيد كل المجوهرات المعروضة وغير المعروضة.

لم أمكث طويلا فجهازي العصبي لم يتحمل كل هذا الجمال. هربت من الجميع وآويت إلى فراشي أفكر في وجه ليلى.

في صباح اليوم التالي وبمجرد دخولي إلى صالة الإفطار، اتجهت ليلى إليَّ

وبادرتني قائلة:
ـ صباح الخير.
ـ صباح السعادة.
هل هناك شيء يمكن فعله في هذه المدينة؟ بحثت بالأمس ولم أجد شيئا فظللت محبوسة في حجرتي طوال الليل.
ـ هناك عشرات الأماكن. المنامة شهيرة بكونها مدينة حية وصاخبة.
ـ وماذا سوف تفعل الليلة؟
ـ أأفهم من هذا أنك تطلبين مني أن أدعوك إلى العشاء؟
ـ يا لك من فطن.
ـ أنا أذكى إخوتي.
ـ وكم عددهم؟
ـ وحيد أمي
ـ فهمت الآن سبب كبريائك المثلجة.
ـ سوف أخرجه حالا من البراد ونلتقي في السابعة مساء في قاعة الاستقبال.
ـ اتفقنا.
كنت في هذه اللحظة خبيرا في العلاقات الجنسية. مغامراتي مع أجساد النساء كانت عديدة، بدأتها مبكرا ولم أكد أتم الرابعة عشرة من عمري. كما كنت حينها قد قرأت الفاتحة استعدادا لخطوبة جارتي ناريمان. لكن عشاء مع ليلى كان أمرا مختلفا تماما. أخناتون يقابل الجمال الكامن في قرص الشمس.
سألت صديقي البحريني عن أفضل مطعم في المنامة فقال لي: الخليج الملكي هو أشهر مطعم في البحرين. كان المطبخ الصيني آنذاك هو موضة العصر بعد أن احتل الدرجة الأعلى في سلم المجد متخطيا الفرنسي والإيطالي، قبل أن يزيحه المطبخ الياباني بعد هذا التاريخ بعقدين من الزمان، ثم يعود المطبخ الفرنسي ثانية ليهيمن على المشهد لفترة من الزمن.
اتصلت بمطعم الخليج الملكي:
ـ صباح الخير.
ـ أهلا وسهلا.
ـ أريد أن أتحدث مع المدير.
ـ أهناك مشكلة؟
ـ إطلاقا، ولكن سفير مصر يريد أن يتكلم معه.
ـ لحظة لو سمحت.
انتظرت حتى وصلني صوت المدير الصيني.
حاولت تغيير صوتي:

ـ سفير مصر سوف يتحدث إليك.
ـ في الانتظار.
عدت إلى صوتي الطبيعي:
ـ أهلا وسهلا. هل معي مدير الخليج الملكي؟
ـ نعم.
ـ اسمعني جيدا. أتعلم أن هناك معرضا للمجوهرات تنظمه شركة مصرية سوف يتم افتتاحه بعد غد؟
ـ أظن ذلك.
ـ حضر إلى المنامة ابن رئيس وزراء مصر ومعه خطيبته ويريدون العشاء في مطعكم بترشيح مني شخصيّا. سوف يصلون في السابعة والربع تماما من مساء اليوم. مفهوم؟
ـ مفهوم.
ـ لا أريد بالتأكيد أن تقوموا بشيء خاص، كما لا أريد أن تقوموا بأي تخفيض. المهم هو حسن الخدمة. فهذا ابن رئيس وزراء مصر في أول زيارة له هنا. أتدرك أهمية هذا الحدث؟
ـ بالتأكيد. أفهم تماما. سوف نكون عند حسن الحظ.
أغلقت الهاتف وأنا سعيد بما أنجزت. توجهت إلى المعرض لاستقبل وصول اللوحات من شركة الشحن. انشغلت طوال النهار بتفاصيل المعرض التشكيلي. وفي السادسة كنت في حجرتي أستعد أن أكون على سنجة عشرة؛ فالأناقة ميراث عائلي ورثته عن جدي يوسف نموذج الوجاهة في حي المنيرة، هو من علمني كيف أن جمال الملبس ونظافة أجسادنا هما دليل احترامنا لجمال الكون وانضباطه. دخلت الحمام ودعكت صابونة في كفي وأمسكت قضيبي وجعلت أدلكه ذهابا وإيابا بحركة ميكانيكية وأنا أتردد بين كتف ليلى العارية وهي واقفة في المطار، وبين ساقي الألمانية العاريتين وهما تتدليان من نافذة برجها البافاري حتى قذفت ما فاض من إنتاج خصيتي وهدأ بالي. كان درس القذف أحد الدروس التي تعلمتها أيضا من جدي يوسف. قال لي بصوته الهادئ:
ـ لكي تكون هادئا وواثقا من نفسك وأنت مع امرأة لأول مرة؛ يجب أن تخرج من جسدك كل طاقة سلبية، والوسيلة الناجعة هي قذف عدد من ملايين الحيوانات المنوية التي تشكل ضغطا عضويّا لا معنى له، والتخلص منهم واجب وطني على كل رجل شريف.
وقفت كما الألف في قاعة الاستقبال أنتظر ليلى ذات الشعر الغجري في طمأنينة وثقة بالنفس. تأخرت قليلا كعادة كل من عرفت من نساء ولكنني في هذه المرة وجدتني أفور كلبن طال زمن تسخينه على النار. ثم شعرت، بمجرد ظهورها تتهادى خارجة من المصعد، مرة جديدة بالانسحاق. كيف أخفي من أمام ناظري هذه الهالة التي تلف جسدها؟ ألا يمكن أن تكتفي

بهالة أقل حجما فوق رأسها؟ لماذا لم أقذف كل مخزوني حتى يهدأ توتري؟ كانت ترتدي رداء أحمر فتمنيت أن أتحول ذئبا وآكلها الليلة دون جدتها.

على الرغم من قرب المسافة بين الفندق والخليج الملكي فإنني كنت قد حجزت سيارة الفندق. وجدنا عند وصولنا المدير الصيني في انتظارنا أمام البوابة ومعه أربعة من العاملين. تمَّ استقبالنا استقبال الفاتحين. نفخت أوداجي ولعبت دور المتواضع. لم تصدق ليلى ما رأت من حفاوة في شرف استقبالي. سألتني: من أنت؟ لم أجب.

حجزوا لنا حجرة مستقلة جدرانها ستائر من حرير. جلسنا على أريكة ملوك. جاء لنا رجل صيني مهيب الطلعة وقال لنا بإنجليزية صينية: هل تفضلون أن نختار لكم أفضل ما لدينا، أم تودون أن تطلبوا أطباقا بعينها؟ لم أكن خبيرا في المطبخ الصيني، بل إنها كانت أول مرة في حياتي تطأ قدمي محلا يقدم مأكولات إمبراطورية السماء، فجاء اقتراحه إنقاذا لي من جهلي التام ووافقت ليلى على أن يختار هذا الرجل الذي تبدو على شواربه الرفيعة أمارات الحكمة والدهاء ما نأكله. وبدأت الأطباق تهل علينا من كل صوب وحدب وكئوس خمر لا أعرفها أذابت تدريجيّا المسافات. أبهرتني ليلى بحديثها وبلغة جسدها. كانت تستعمل كل حواسها مع كل طبق جديد، تشمه وتتحسسه أحيانا قبل أن تضعه في فمها بطريقة ساحرة وكأنها تقيم مع كل وجبة جديدة علاقة حسية رهيفة. تحدثت ليلى عن نفسها وظهر الجزء الطفولي الممتع المختفي تحت هيلمان فخامة كيانها الخارجي.

أبوها من نسل فرع فقير في العائلة المالكة الروسية. جاءت جدته من آل رومانوف وزوجها إلى مصر وبعض من أفراد عائلتها هاربين من الثورة البلشفية. عاشوا في القاهرة داخل دائرة شبه مغلقة من الأمراء السابقين الأوربيين. تزوج أبناؤهم روسا مثلهم، ولكن أحب الحفيد مصرية. تزوجا وجاءت ليلى إلى الدنيا. وقبل أن تتم ابنتهما الخامسة اختفى الأب. عرفوا بعد سنوات أنه هاجر دون مقدمات إلى الولايات المتحدة. تطلقت الأم غيابيّا من الزوج الهارب، وتزوجت صائغا شهيرا توفيت زوجته. وعاشت ليلى مع أبناء زوج الأم الذي أصبح أبا حقيقيّا لها. انزلقت كلماتها على سفح اللوحة التي كنت أرسمها لثغرها الممتلئ وعينيها العميقتين. أثارني ثَغْرُها المُفَلَّجُ حتى توترت عضلات جسدي. فانشغلت بالأكل وساعدني أن سيل الأطباق لم ينقطع. سألتني:

ـ لم تقل لي من أنت.

ـ رسام يبحث عن نفسه ولا يجدها.

ـ وماذا رسمت؟

ـ أرسم منذ ولدت. رسمت كل ما تقع عليه عيناي. جربت كل الطرق، ولكنني لم أجد بعدُ طريقي. أخاف أن أنجرف في هذا النوع من النشاطات الذي أقوم به حاليّا من أجل جمع القروش وتضيع حياتي.

ـ بعد خمسين سنة من الآن سوف تجد ما يبرر لنفسك كل ما فعلت في

حياتك. وسوف يجعلك هذا راضيا عن اختياراتك. فلا تقلق.
ـ يا لها من نظرة مأساوية. إذن فلأتخذ أي قرارات مهما كانت مرعبة، ما يهم في النهاية هو مدى نجاحي في إيجاد مبررات.
ـ قل تلفيقات. سوف تجمع في النهاية كل أحاديثك وأفعالك وتلفقها في قماشة جميلة لتلف بها جسدك العجوز. أحاديثك الملفقة وأكاذيبك المزخرفة سوف تجمل وشم جلدك. هكذا أرى ما يفعله جميع العجائز من حولي. أظنك درست الزخرفة؟
ـ وأنت أسوف تفعلين بالمثل؟
ـ لقد درست في سويسرا تصميم الحلي والمصوغات، ودرست أنا الأخرى الزخرفة. يبدو أنها سنة الحياة، أن نكبر ونرتدي راضين رداء الأكاذيب؛ كي نموت ونحن مقتنعون أن الجنة نصيبنا.
ظللنا في الحجرة الحريرية نتحدث حتى شعرت أنني أعرفها منذ قرون. هأنا أستخرج جملة من المحفوظات القديمة: «أعرفها منذ زمن». سمعت هذه الجملة مرارا من الأصدقاء الذين وقعوا في الحب حتى أضحت الجملة مثارا لضحكنا. وهأنا أكررها دون أي شعور بالخجل من كوني نسخة مكررة من بلايين غيري.
طلبت مني ليلى أن أوقف هذا السيل من الأطباق؛ لأننا لن نستطيع أن نأكل كل ما في البحرين من غذاء. طلبت الحساب ويدي على قلبي أن يأكل الرقم نسبة كبيرة من ربحي خصوصا أننا في أحد أغلى مطاعم البحرين. لكن جاء الحساب وكأننا أكلنا في محل فول وطعمية في السيدة زينب. رقص قلبي طربا. شكرا. هدية مقبولة لابن رئيس وزراء مصر. خرجنا من المطعم وسألتها إذا كانت تريد أن تمشي إلى الفندق. فرحبت بالفكرة. التصقت كتفي بكتفها في أثناء سيرنا دون قصد. اهتز جهازي العصبي من هذا التلامس. فوضعت كفي على أعلى ذراعها. ارتعشت رعشة خفيفة. قالت لي بعد شهور إنها تعجبت أنها تركتني أضع يدي على كتفها. وتعجبت أنا أكثر مما سمحت به لاحقا.
وصلنا إلى الفندق وأمام باب حجرتها سألتها أن أدخل معها. وافقت على شرط ألا أتعدى حدود الأدب. ولجت الحجرة ووجدتني ارتفعت عن الأرض ببوصة على الأقل. قالت لي بحسم ودود إنها عذراء وسوف تظل حتى ليلة دخلتها، ثم همست في أذني:
ـ اقضِ معي إن أردت الليلة. استلقِ بجانبي واكتفِ بهذا. هل ترضى بشرطي؟
ـ كل الرضا.
لم أتخيل أن أقضي معها أول ليلة نخرج فيها معا. مفاجآت النساء بلا نهاية. خلعت قميصي فقالت لي: لا تخلع شيئا آخر. استأذنتها أن أخلع حذائي فضحكت موافقة. دخلت الحمام وخرجت بقميص نوم مرجاني رجَّ فؤادي من أركانه. كنت على استعداد في هذه اللحظة أن أدفع عمري من أجل قبلة.

جعلتني هذه المفاجأة المبهرة أصدق لأول مرة أن هناك ما يسمى بالحب؛ وعلى قدر ثقتي قبل لقائي بليلى بأن الحب كما الحرب خدعة، على قدر انجرافي الكامل لطوفان المشاعر الذي جرجرني من أنفي دون أي قدرة مني على الوقوف أمام سطوته. اقتربت منها أريد منحها شفتي. دفعتني وابتعدت. دارت بعدها على عقبيها وفتحت حقيبتها، أخرجت قطعة من الشوكولاتة ووضعتها في فمها، اقتربت مني وقبلتني قبلة طويلة أذابت الشوكولاتة في حلقي. كانت تلك أول قبلة عرفتها ليلى في حياتها، وأول قبلة لي مع من امتلكت قلبي.

رفعت ليلى إبهامها في وجهي وقالت بحزم:

ـ سوف نكتفي تماما بما حدث. أتفهم؟

ـ أفهم.

ـ احترم رغبتي.

استلقت على الفراش. مددت جسدي بجوارها. وضعت يدي داخل خصلات شعرها الغجري الغزير. أغمضت عينيها ونامت في لحظة واحدة كطفلة جائعةٍ نوما. تدفق الحنان من جوفي وكأنني أب منبهرة أنفاسه من حلاوة ابنته الوحيدة حتى طفرت من عيني الدموع. ظللت لساعة أتأملها. زواج الملامح السلافية مع الملامح المصرية أنجب بهاء منقطع النظير. لا جمال يعلو فوق تمازج الأجناس وتهجينها. ذهبت جريا إلى حجرتي لإحضار أوراق وألوان وعدت إليها. وجدتها كما تركتها تمثالا من براءة. حاولت أن أرسمها ولكنني فشلت. كنت في حالة توهج منعني من فعل أي شيء سوى النظر إليها. استلقيت مرة أخرى إلى جانبها ليختفي العالم الواقعي من حولي. ذابت الظلال والألوان، وتبددت وحشة قديمة لا تفارقني. وبدا كل شيء رهيفا حانيا.

شعرت لأول مرة بالاقتران المبهر بين الرغبة الجنسية المتدفقة، والحنان الطاغي الذي لا يحلم سوى بملامسة جبهتها العريضة.

كيف لنقيضين أن يجتمعا؟

هذا الحُنُوّ الرفيع مع تدفق الدماء في قضيبي؟

لا أعرف، فقد كان طعما جديدا لم أذقه من قبل، ولم أستطع قطّ أن أرسمه كما شعرت به في هذه اللحظة. لماذا يا ربي لا توقف الشريط ها هنا؟

ولجت في حالة صوفية حين يندمج المحبوب في المقدس.

نعم، بدت لي إلهة نزلت من علياها لتلتقي بي.

ولكن كان مقدرا للشريط أن يتقدم وأن نلتقي معا بالإله أوال في صباح اليوم التالي. أوال يعني «الأفضل» في لغة هندية، ويبدو مشابها جدّا للإله ناندي الهندوسي، هو الثور الذي يركبه شيفا. عدنا مرة أخرى لجمال التهجين والتزاوج والتقارب بين الهند والسند وبلاد الصحراء. وعندما قالت لي ليلى إنها تحب الثور فهو برجها، أصبح أوال جزءا من عالمي حتى بعد أن اختفت

بجسدها عن عالمي بعد أشهر قلائل من هذا اليوم؛ من أجل المؤسسة المقدسة المدعوة بالزواج.

طلبت مني أن أتقدم لأهلها ولم أكن مستعدّا ماديّا ولا نفسيّا. افترقنا وسار كلٌّ في طريق، مرت الأيام وإذ بي أجد نفسي، في لحظة لم أتوقع حضورها، في أقسى امتحان يمكن أن يمر به الإنسان. يرن الهاتف، أقوم من فراشي وأنا في حالة كسل وعدم رغبة في التنفس. يأتيني صوت ليلى من الجانب الآخر. صوت فقد لأول مرة نبرته الهادئة العميقة الواثقة.

ـ شهاب فرحي اليوم. أنا في حجرتي في الفندق. طردت جميع صديقاتي لأتحدث إليك. وصل المأذون وتركني أبي ليستقبله. سوف يعقد القران خلال ساعة على الأكثر. هل تسمعني؟

ـ أسمعك بالتأكيد.

ـ لو طلبت مني الآن أن أترك كل شيء، فسوف أهرب حالا.

توقفت عن التنفس، وثبتت حدقة عيني. خيم صمت كصمت القبور:

ـ شهاب.

ـ لا أستطيع أن أطلب منك الهرب. أنا أشعر أنني أصغر سنّا من أن أتحمل مسئولية الزواج.

ـ لا أطلب منك أن نتزوج. فقط اطلب مني الهرب.

ـ لا أستطيع.

ـ شكرا يا شهاب على شجاعتك وحبك لي.

أغلقت الهاتف وظللت واقفا لا أتحرك لمدة لا أعرف طولها. هل أحببتها بالفعل؟ أكان تعلقي بليلى حالة انتشاء بملامسة الشمس؟ ما أعرفه أنها ظلت معي في كل دقائق عمري، وأنا الآن يعتصرني ألم فراقها بعد خمسة وثلاثين عاما من هذا اليوم.

* * *

الهاربيز تطير فوق جزيرة الذهب

المطر خطر. لم أعرف قطُّ يوما ممطرا كمثل هذا اليوم. تهبط على أم رأسي كتل متماسكة من سلاسل مياه ولا أمل في أن أفلت منها، كما لا يمكنني الامتناع عن الذهاب إلى زوج أمي. لا أستطيع تركه وحده في المستشفى، خوض الطريق وسط الأهوال هو قدري الوحيد. السيول نذير شؤم، ولكل منذر رسالة واضحة لمن له عينان ورأس يفكر.

يوم لن يفوت على خير.

تمنيت أن يخونني حدسي ولكنني وجدت «لطيف» في حالة صحية سيئة. زمَّ وجهه المسكين من ألم يعتصره، وعندما رآني اجتهد في الابتسام. وضعت يدي على جبهته محاولا أن أفرد الخطوط المقتضبة، فبسط أصابعه على كف يدي الأخرى الممدودة على الفراش بجانب جسده المسجى.

عصرت ذهني على أمل أن يخرج بفكرة تمكنني من بدء حوار مشوق ينسيه لثوانٍ قلائل شعوره بالألم. لمحت من النافذة عصفور الشوك. هذا العصفور الذي رأيته أكثر من مرة هنا في باريس. عصفور صغير، ظهره بني أدكن مع خطوط سوداء، ورأس رمادي مزرق. فلأتحدث معه عن عصافير باريس، ولكنه غيَّر مجرى الحوار بالحديث عن أمي، ثم رقرقت عيناه بدمعة وهو من لم أتصور قطّ أنه من الممكن أن يبكي. قال لي:

ـ أنا آسف جدّا يا بني. لم أستطع أن أترك لأمك مبلغا من المال يكفيكم طوال حياتكم. عندما سالت أولى قطرات الندى حدث لي ما حدث.

ثم انهمر دمع كدمع الأمهات يوم دير ياسين.

* * *

كنت عائدا من البحرين ورائحة ليلى تملأ إحساسي عندما وجدت رائحة الموت تنتظرني، وأمي تمني نفسها بأنفاس المسيح تحيي زوجها الحبيب. طرقت باب المنزل وأنا أبحث عن المفتاح، ألهث من الإنهاك، وحقيبة السفر على الأرض تحمل علامات أصابع يدي. ربت على كتفي نهاد مهران، ارتجَّ جهازي العصبي. ابتسم لي «نهاد» ابتسامة عذبة وقال لي إن الجميع في مستشفى المعادي العسكري لمرض ألمَّ بزوج أمي. ثم طلب مني أن أضع حقيبتي في شقته وأن أتوجه فورا إلى المستشفى.

ـ ما الذي حدث؟

بصوت واهن أنبأني:

«المرض الخبيث، ربنا يعينه».

استقبلتني أمي باكية أمام باب الغرفة في المستشفى التي يرقد فيها زوجها. سألتها: كيف لم تخبرني عندما اتصلت بها هاتفيّا؟

ما الذي حدث؟

بعد ألم لا يطاق، ذهب زوج أمي إلى المستشفى. اكتشف الأطباء بعد عدد

من الفحوص والتحاليل والأشعة أنه مصاب بالسرطان، وأن الورم الخبيث انتشر في أكثر من مكان في الجسد.

في مساء نفس يوم وصولي، اتخذوا قرارا بسفره إلى باريس للعلاج هناك. رفض زوج أمي تماما أن تصحبه زوجته، وقرر أن أكون من سوف يرافقه في رحلة علاجه. لن يرافقني سوى ابني شهاب.

توجهت في صباح اليوم التالي إلى القنصلية الفرنسية في القاهرة في وسط البلد مع مندوب من القوات المسلحة. الطابور في الحارة الضيقة طويل لا ينتهي، ولكننا دخلنا من الباب الرئيس. كان البواب النوبي يتحدث بحدة وكأن في يده صولجان ملك، ولكنه اضطر إلى أن يقبل مرورنا من باب الجنة بعد أن تلقى أمرا جعل وجهه يتغضن بغضب غير مفهوم. صعدنا عدة درجات واستقللنا المصعد إلى الدور الثاني. استقبلنا القنصل بابتسامة ودودة. ولشدَّ ما كانت دهشتي كبيرة عندما حصلنا على التأشيرة بعد ساعة واحدة. سطوة السلطة يضوي لمعانها أينما حلَّت. على بعد دقائق قلائل سيرا على الأقدام من مبنى القنصلية وصلنا الخطوط الجوية الفرنسية في ميدان سليمان باشا. اشتريت تذكرتين على الطائرة التي سوف تقلع من القاهرة إلى باريس في اليوم التالي.

ما لم أكن أتوقعه أننا سوف نمكث في باريس تسعة أشهر كاملة على أمل حدوث المعجزة.

يدعى زوج أمي عبد اللطيف، طالبتني أمي أن أناديه بلقب «أبي» أكثر من مرة على مدار الحياة. اشتعل صراع صامت ورفض لساني أن يطلق لفظ أبي، حاولت بالفعل أكثر من مرة ولم أستطع. ناقشتني بستان في الأمر: الأب يا حبيب قلبي هو من يرعى ويربي وليس من يمنح بعض حيوانات منوية. لا يا جدتي. أبي هو أبي. صلتي به عضوية، يجري في دمائي، هو من لا أراه ولكنه معي. يسكن في مكان ما داخل روحي. أعرف أنني لو قصدته فسوف يفتح لي مغارات الجنة. لن أقول أبي سوى لأبي.

ابتدعت سبلا شتى للحديث مع زوج أمي دون أن أذكر لقبا أو اسما. بعد سنوات من هذا العذاب الداخلي جلس معي زوج أمي وقال لي: يا شهاب إن الرسول عليه الصلاة والسلام يطالبنا عندما يكبر أبناؤنا أن نتعامل معهم كالإخوة. أنت منذ الآن بمثابة أخي وليس ابني الذي أحبه أكثر من أي إنسان على كوكب الأرض. أطلب منك أن تناديني باسمي: «لطيف». أزاح الرجل من لطفه حملا كالجبل جاثما على صدري. وقفت يومها وقبّلته وقلت له: «أنا أحبك يا لطيف». بالفعل كنت أحبه. لطيف كان أول من طرق قلب أمي، وهو من أحبت عايدة طوال حياتها. أعرف جيدا أنها لم تبادل أبي الحب. لكن هذا لا يمنحه صفة «أبي».

عندما خرجنا من باب حجرته في مستشفى المعادي بعد الفجر بقليل أمسكت ذراعه، اكتشفت أن لطيف قد فقد بضعة كيلوجرامات من وزنه. كان سائق من الجيش ينتظرنا في سيارة لطيف السفينة. جلست بجواره

ووضعت يدي على ركبته. لمحت لمعة خوف تتألق فوق حدقتي عينيه على الرغم مما أعرفه عنه من قوة البأس. أمسكت كفه وشكرته أنه لم يؤاخذني مرة واحدة على سرقتي اليومية لسيارته طوال فترة الكلية. رد قائلا: يا عبيط.. لقد كنت أترك سيارتي خصيصا من أجلك.

نام لطيف طوال الطريق السماوي من مصر إلى فرنسا. ظللت أتابع تنفسه وأنا في حالة هلع. ارتدي لطيف البدلة التي أهداها له جدي يوسف في عيد ميلاده الخامس والأربعين من حوالي الشهر، تبدو الآن وكأن الخياط قد فصلها لشخص آخر. دخلت الطائرة في مطبات هوائية شديدة لكنه لم يستيقظ. كيف بالله تسلل المرض إليه هكذا؟ لا أتذكر أنه عرف المرض. كانت أمي دائما ما تمسك الخشب وتقرأ أكثر من مرة سورة الفلق إذا ذكر أحدنا أن زوجها لا يمرض أبدًا. ها هو جسده يتهاوى بسرعة غريبة. هل هناك أمل في الشفاء؟ أكد الأطباء أن الشافي هو الله.

توجهنا من المطار في باريس مباشرة إلى معهد «جوستاف روسي» في حي «فيل جويف». كان سائق التاكسي من تونس. عبّر عن سعادته بنا بوضعه شريط كاسيت لمحمد عبد الوهاب، واستمعنا معه إلى «يا وابور قل لي رايح على فين؟». ضحكنا من فكرة أن عبد الوهاب هو من استقبلنا في بلاد الفرنجة. قال لطيف بصوت حاول أن يكون مرحا: إنه يعرف إلى أين يأخذه الوابور، فمحطته التالية سوف تكون: « أيها الراقدون تحت التراب». رد السائق التونسي أن هذه الأغنية ليست في هذا الشريط. لم أعلق وفضلت أن أجلس صامتا.

وجدنا في انتظارنا الطبيب المعالج الذي تلقى التفاصيل كافة عبر الهاتف من الطبيب المصري، وكانت الغرفة الخضراء التي سوف يظل فيها لطيف لشهور طويلة في انتظارنا وهي متأنقة. قضيت الليلة الأولى في المعهد الذي تحول تدريجيّا إلى منزل أعرف دروبه وأبوابه، وصار عدد من الممرضين والأطباء أصدقاء عرفتهم لسنوات طويلة بعد وفاة زوج أمي. عرفت سراديب المبنى. كنت أتغذى مع العاملين في الأماكن المخصصة لهم. ومع الأيام تماست مسالك الهوى بين فتاة تأتي يوميّا لزيارة جدها وبيني.

ماجدة. ذات وجه مثلث، عيناها واسعتان حالمتان، نحيفة إلى الهزال، بشرتها بيضاء شفافة حتى إن جريان الدم في عروقها واضح لكل عين ترى. شعرها أحمر بلون وهج النار، لا، بلون حمرة الورد البلدي، تشبه تماما السيدة العذراء كما أتخيلها. خجول إلى درجة لم أعرفها من قبل. تذكرت معها بستان عندما كانت تمتدح الحياء وتقول إنه سيد الخصال. فالإنسان الحيي هو من تأمن الحياة معه، أما القحة والجرأة فهما صفتا قساة القلوب.

عرفت بفضل ماجدة طريق هاتف في حجرة مكتب يمكنني من خلاله الاتصال بالقاهرة كما أشاء. ظللت خائفا من أن يفتضح أمري، ولكن ظللت أقوم بمكالمات هاتفية للقاهرة مجانا طوال إقامتي، أقصد على حساب المستشفى. لم أفكر حينها أنه من الممكن أن أكون قد صرفت من مال يجب

أن يوجه لعلاج المرضى، ولكنني في هذه الفترة من العمر كنت سعيدا بالاتصال بأمي دون أن أدفع لأخبرها بتفاصيل العلاج ونتائج الفحوصات الطبية.

سكنت في الشهر الأول في فندق صغير في الحي اللاتيني، ما بين الحي الخامس والحي السادس. واكتشفت ليس بعيدا عن محل إقامتي شارع «مفتار»، وينطق على نفس وزن «مختار». ومنذ لقائي بهذه الحارة الطويلة أصبحت كل يوم بعد أن أخرج من المستشفى داعيا الله أن يشفي زوج أمي، أمر على شارع «مختار» وأتمهل وأنا أسير عبر دربه الضيق المكتظ بالمحال الصغيرة والباعة الذين أتوا من أركان الأرض الخمسة، ووقع نصيبي في «سوخ» بائع شاب من منغوليا تحول مع الوقت إلى صديق عزيز. مفتار شارع يشبه شوارعنا: حي ومستيقظ وشاب ومتسخ. عشقت هذا الدرب، أجمل شوارع باريس قاطبة. كنت أتذكر وأنا أسير فيه مختار زميلي في المدرسة. أين أراضيك يا مختار؟ كان حارس مرمي الفصل، يذود عن المرمى بكفاءة. دائم الابتسام، ذا وجه دائري بشوش، يرتدي نظّارة طبية معوجة بصفة دائمة، لم يعرف شعره المشط، مهرجلا لم يعرف قميصه قطّ الانضباط داخل بنطلون، رفض دَوْمًا الانصياع للأوامر وكأنه ولد ليعيش حرّا بين الأشجار ولكن أخطأت السيدة والدته وأنجبته في مدينة الأسمنت، كنا نطلق عليه «مخ» لأنه يفعل ما يحلو له. يشبه مختار زقاق مفتار المهرجل هو الآخر. حلمت في ليلة أنني التقيت زميلي القديم في شارعه الباريسي، والعجيب أنني التقيت في نفس هذا اليوم، ليس بمختار وليس في شارع مفتار، ولكن بزكريا عبد الحافظ ورامي فرحات زميلي الفصل. لم ألتقِ بهما منذ تركتهما أمام محطة باب الحديد في مساء هذه الليلة البعيدة التي قررنا فيها ثلاثتنا الانتحار. لم أعرف مصيرهما بعد أن انتقلت إلى مدرسة أخرى، وانقطعت علاقتي بعدد كبير من زملاء مدرسة الليسيه. أمعقول يا عالم أن ألتقي بهما صدفة هنا في فرنسا؟

أهي صُدفة، أم حظ، أم قدر؟

ينقسم البشر إلى جماعات: مجموعة تعلن: إنه لا توجد صدفة في حياة البشر وإنما خطوط مرسومة مقدر لها اللقاء، وجماعة أخرى تتحدث عن «الحظ» الراعي الرسمي لجريان الأعمار، وقلة تقوم بحساب الاحتمالات على أسس الرياضة البحتة.

أعندما أفتح محارة سوف أجد داخلها صَّدَفة، أم تراها خالية الوفاض؟

على أي حال، لقد وجدت محارتي حاملة صديقي طفولتي.

يا له من خبر سعيد.

نعم، كنت في باريس، عاصمة الدولة التي درسنا لغتها وفي مدارسها، والدولة الأشهر في علاج مرض السرطان. كانت فرصتنا سوف تتقلص كثيرا لو كنت أسير في أحد شوارع «تفاريتي». لا يهم كل ذلك. المهم أنني معهما الآن. تضخم جسد رامي وتحول إلى جذع شجرة جميز متحركة، وذبل زكريا حتى صار كحبل أبيض مشدود معلق في الهواء.

الأمر الذي لم أكن قد سمعت به ونحن في المدرسة أن السيدة عمة زكريا قد تزوجت رجلا كويتيا فاضلا، وأن أخت هذا الرجل وتدعى «ياقوت» تعمل في حقل الغناء وقامت بفتح مطعم في باريس يقدم فقرات غنائية عربية مع مأكولات شرقية. سمع رامي بالأمر في أثناء زيارة قصيرة لياقوت في القاهرة، فطلب من زكريا التوسط ليعمل نادلا في هذا المطعم. كان رامي قد فقد الرغبة في دخول امتحانات العام بعد أن توفى والده، وبزغ حلم الحياة لمدة عام في باريس. فليؤجل الدراسة عاما واحدا، ولا فارق كبيرا لديه فقد كان كثير الرسوب.

أبلغت ياقوت زكريا أنها لن تستطيع تعيين أحدٍ حتى لو كان صديقا حميما له، فطلب منها أن تقابله لمدة خمس دقائق فقط ثم ترفض بعد هذا. لم تتوقع ياقوت أنها سوف تلتقي بزارع جميع جميز بنها. لم تمر خمس دقائق إلا واقترحت عليه أن يعمل في أمن ملهاها الليلي. الأمن. هذا ما أعجب رامي.

بدأ يتدرب يوميّا في صالة للألعاب. ثم اشترى عددا من الخناجر وبعض الآلات المعدنية الحادة لزوم الشيء، وفي الصالة التقى بملاكم مصري سابق واتفق معه أن يتدرب على يديه. برع رامي في رياضة الملاكمة حتى اقترح عليه مدربه أن ينسى أمر رحلة فرنسا ويتفرغ للملاكمة. لكن أضواء باريس كانت أكثر توهجا من بريق رياضة الملاكمة. بعد شهرين من لقائه بياقوت، كان في باريس يعمل في ملهى «الفم الذهبي».

كما أصبح معهد «جوستاف روسي» منزلي الصباحي، أصبح «الفم الذهبي» مكاني الليلي المختار لشهور بفضل توطد علاقتي بياقوت؛ بعد أن عقدنا صفقة قوامها أن أرسم لوحات تغطي جدران الملهى في مقابل أن آكل وأشرب كما يحلو لي.

وصل رامي إلى باريس لأربعة أشهر قبل مجيئي، وجاء بعده زكريا. كان فرانسوا ميتران قد فاز في انتخابات الرئاسة الفرنسية، والعلاقات مع المهاجرين بدأت تدخل في شهر عسل لن يدوم طويلا، هكذا أبلغني صديقي «سوخ» القادم من أولان باتور. ومع الصدمة البترولية في النصف الثاني من السبعينيات والتدفقات النقدية غير المسبوقة للأغنياء العرب من الدول البترولية، جاء عدد كبير من السائحين العرب إلى باريس، وملئوا ليلا قاعات «الفم الذهبي». تدفقت النقود في حساب ياقوت البنكي؛ الأمر الذي جعلها دائما في حالة نفسية جيدة ورفعت من مرتب رجل الأمن رامي، واتسع رداء الكرم لديها فأدخلت النبيذ من ضمن ما يمكنني طلبه مع العشاء مجانا.

تقاسمت مع ماجدة، بعد شهرين من إقامتي في باريس، إيجار شقة وبدأت قصة حب مترعة بالآمال العريضة، منحت حياتي رمادية اللون ألوانا أكثر بهجة. حولت بعد أسبوع من إقامتي جزءا من الشقة إلى مرسمي الباريسي الصغير. لكن ظلت في العموم الكآبة هي عنوان المرحلة مع التدهور المستمر لحالة زوج أمي. وأصبح لطيف هاجسي؛ أجلس معه صباحا وأرسمه مساء نائما في حجرته الخضراء على فراشه الأبيض.

* * *

أقف اليوم أمام لطيف لا أعرف أين أضع ذراعي، والمطر المنهمر يصدر عويلا ينذر بالتهلكة. أجرب بشتى السبل أن أمنعه من أن يلفظ أمامي وصيته التي كتبت بضع كلمات منها على لوحة «عبد اللطيف أمين»، ولكنني لم أستطع في النهاية أن أوقف سيل الحروف المنهمر هو الآخر من فمه. قال لي:

أوصيك بأمك عايدة، فهناك بشر خلقوا لكي يخدمهم من حولهم. هؤلاء لو تركناهم لماتوا جوعا. لا تصدق دائما مقولة إن البقاء للأقوى. فأحيانا البقاء للأكثر رقة وعذوبة، استمرت جيناتهم لأنه كان هناك دائما شخص يحتاج للحنو والليونة من جنس عايدة. أمك من هذا النوع من البشر وأنت الآن من سوف يرعاها، هي ليست جدتك المقاتلة ولا خالتك التي يمكن لأسنانها أن تنفذ في الجليد. هل تعرف يا شهاب ماذا فعلت أمك في أول زيارة لي لمنزلكم؟

صمت ليأخذ أنفاسه حتى تخيلت أنه ينتظر مني ردّا:

ـ لا أعرف.

ـ قطعت البطيخ بحيث يكون من نصيبي قلب البطيخ. هذه الكرة الصغيرة في الوسط تماما. القطعة العسل داخل أجمل فاكهة على الأرض. أعطت أمها وبرلنتة ورزق قطع البطيخ العادية ثم منحتني القلب. شعرت حينها أنني مَلك حصل على تاج العرش.

ـ ما زلت أرى التاج ينير رأسك.

ـ وصيتي الثانية لك أن تكون مثل أمك. امنح يا شهاب دائما من تحب أجمل ما لديك. احضن حبيبتك وقبلها وأمتعها جنسيّا وامتدح خصالها. تأكد أنه لا يمر يوم إلا وتكون قد امتدحتها ثلاث مرات. الحب هو أجمل مشاريع العمر.

غارت خطوط الألم في عمق الجبهة. حركت رأسي علامة الموافقة وتوسلت إليه ألا يتكلم. هزَّ أنفه الكبير علامة الرفض واستكمل حديثه:

كل ما ربحت في حساب أمك البنكي. لديكم ما تعيشون به لمدة عامين أو ثلاثة. لو أطال الله في عمري عاما واحدا لكنت قد ربحت ما يكفيكم لحياة رغدة لمدة عشرين عاما. لكن لو لم يشأ العليم فالدور عليك الآن وقد أصبحت رجلا.

شهاب، أريد أن أعتذر. تأثرت بدموع أمك ومنعت والدك أن يقترب منك، قمت بتهديده وتخويفه. أنا آسف. كنت أيضا لا أستطيع فراقك.

* * *

طاردتني بعد عودتي من فرنسا «الهاربيز»، هذه الوحوش النسائية المجنحة المخيفة تكرر في أذني بصوت أنثوي يشبه الفحيح: «لم تعتنِ بلطيف كما ينبغي أيها التعس، سوف نقذف بك في أحقر ثقب لتتلوى داخله مع دود الأرض».

أرواح الرياح العاصفة تأخذ شكل فتيات مجنحة ذوات رائحة عفنة لتعذيبي.

رسمت الهاربيز يطيرون مع لطيف الذي يحلق فوق جزيرة الذهب، وأنا منزوٍ

مرتعد على طريق الصعيد لا أكاد أرى. لوحة الهاربيز تطاردني وأنا أتوسل لها: لقد رعيت زوج أمي بكل حب.

فارقنا لطيف بعد وصولنا إلى القاهرة بأربعين ساعة. انتقل إلى بارئه في فراشه كما تمنى. لم تتزوج أمي بعد وفاته وحتى الآن بعد مرور أكثر من خمسة وثلاثين عاما. عرفت بعد سنوات طويلة عن الرجل الكثير. كان رجلا خفيف الظل، متوسط الذكاء والقدرات والموهبة، وهو ما لم أدركه وأنا ما زلت شابّا. كان فاكهة الجلسات بنكاته ولطفه ورغبته في نشر حالة مرح في أي مكان يوجد فيه. لم يأخذه زملاؤه مأخذ الجدية وكان موقعه دائما هامشيّا، اكتفى هو بالنصيب الأصغر في الأرباح التي ربحوها. ثم بعد سنوات أطول اكتشفت كم كنت محدودا وأنا أطلق أحكاما عامة مثل أنه متوسط القدرات. أصبحت أكن احتقارا عميقا لمعايير الإنجاز وحسابات الأرباح التي يفرضها النظام الاجتماعي الخرب. الأهم أن عبد اللطيف أسعد أمي وكان دائما خير صديق لي، وعاش حياة تليق بلطيف مثله. يا ليتني أنال ما سوف يناله على الضفة الأخرى من العالم.

* * *

رمح داجون يخترق الجسد وحضن الربة عنات يقتل العزيز

استيقظت في الثالثة صباحا وحلقي جاف من شدة العطش. كانت زجاجة المياه على الأرض بجوار الفراش، شربت وحاولت أن أنام ثانية. لكن تطاير النعاس من فوق عيني كفراشة نشطت فجأة ورفضت أن تحط على سطح الزهرة المقدسة. تقلبت في الفراش أستدعي آلهة النوم ولا هم يسمعون. لم أكن أريد أن أوقظ ماجدة فسرت على أطراف أصابعي خارجا من حجرة النوم. اضطجعت على أريكة مريحة في حجرة المعيشة. الغرفة حيطانها مبطنة بقماش أزرق أدكن به خطوط سماوية تكاد لا تراها العين، تزدان الحيطان بعدد كبير من اللوحات الصغيرة تكاد تغطي مساحة الحائط، جميعها رسوم لعصافير فرنسا لنفس الفنان. كانت ماجدة عاشقة للعصافير. كثيرا ما تذهب لغابة بولونيا أو فينسين بنظارات معظمة لمتابعة العصافير وتحديد أنواعها. عددت عدم قدرتي على النوم أمرا من العجب العجاب، ظاهرة لابد أن أسجلها في كتاب التاريخ. فأنا في النوم لا يوجد لي مبارٍ. لكن أراد الله أن أنتظر طرق رامي الباب في الثالثة والربع من هذه الليلة المشئومة.

لم أصدق في البداية أذني وأنا أسمع الطرقات. ظننت أنها طبل يدق داخل جمجمتي، من المستحيل أن يأتي شخص في هذه الساعة المتأخرة من الليل. فتحت الباب والقلق ينهشني، وجدته وجنون يلمع في عينيه ونزق يرف حول ملامحه. هل أصابه مَسّ؟ أكنت أنتظره دون أن أعلم؟ اقتحم رامي الشقة وهو في حالة لهاث، فتح فمه لكن لم يخرج صوت. أخذته من يده وأجلسته على مقعد. بعد نزيف عرق قال لي بصوت مشروخ: لقد قتلت زكريا.

لم أفهم ما قاله. كرر الجملة أكثر من مرة بصورة هستيرية ولم يقل سواها.

استيقظت ماجدة وخرجت وجلة لا تفهم ما يجري من حولها. طمأنتها بكلمات كاذبة، وطلبت منها استكمال نومها.

تأكدت بعد دقائق أن رامي قتل زكريا بالفعل.

أمر يفوق أسوأ الكوابيس. هل يمكن أن يصل الأمر إلى هذا الحد؟

سقطت على المقعد غير قادر على الحركة أو التفكير.

* * *

اعتبر رامي دائما صديقه زكريا الرجل الأكثر منه خبرة بالحياة، يطلب منه النصح للقيام بأي خطوة في حياته. الديناصور المنتظر إشارة الثعلب لكي يتحرك إلى الأمام. أخ كبير. محتمل بديل لأب كان لرامي علاقة حب – كراهية معه. هذه الرابطة الملتبسة التي يفشل فيها الوالد في إقامة علاقة سوية مع ابنه، الوالد الذي يطالب ولده بما لا يحتمل، يشعره أنه دائم التقصير. كان فارق العمر بينهما أكبر من المعتاد. رجل حاد الطبع، يحمل مرارة داخلية تظهر دائما على ملامح وجهه. لم يفهم هذا الرجل ابنه. لم يحاول أن يقترب. تسول رامي أبا ووجد زميله في الفصل متطوعا ليلعب دور الموجه الراشد، وظل الأمر على هذا المنوال. وعلى الرغم من الثقة بالنفس التي يدعيها رامي

فإن نصف روحه ظلَّ خاويا. هذا النقصان الذي يجعل الإنسان في احتياج إلى قشة خارجية للتعلق بها، فذراعاه غير كافيتيْن لطوفانه فوق المياه العذبة وإلا فالغرق مصيره. حاول رامي في الأشهر الأخيرة أن ألعب معه أحيانا دور هذا المرشد الأمين. ولكنني رفضت أن أوعز إليه بموعظة. منذ معرفتي برامي عرفت كيف يمكن لإنسان أن يحتاج إلى مفتٍ لديار حياته. وها هو أتى لي الآن محطما تماما، ولا أدري كيف يمكنني أن أكون قشته.

يمكن تأريخ بداية الأزمة بين الصديقين بمعرفة رامي بفرانشيسكا. اختل حينها نظامه العام، وبعد أن كان يعتمد فقط على زكريا في اتخاذه القرارات المصيرية، ظهر ربٌّ آخر واختل الكون داخل رأسه.

* * *

لماذا يا رامي قابلت فرانشيسكا؟

هذا اللقاء المصيري العجيب الذي قلب الأحداث. كنا نسير رامي وأنا في شارع شيفالريه في الحي الثالث عشر في باريس، متوجهين إلى مطعم صيني في شارع تولبياك لنحتفل بعيد ميلاد رامي الرابع والعشرين. غيوم تكفن السماء ومطر خفيف أعلن رامي تحت قطراته عن بؤسه وحنينه إلى القاهرة، ثم صرخ في الشمس صرخة بحروف من لغة مندثرة، لكن السماء فهمت وأوقفت نزيف السحاب وأصدرت «نوت» أمرا إلهيّا، وربما تكون قد شهقت توسلا، فأشرق رع. شرب الهواء اللون الأصفر والأزرق، فتغير العالم من حولنا، بزغت حينها فتاة من العدم. هجمت علينا دون تردد لتسألنا وهي في حالة انبهار غير مفهوم بلغة عربية ركيكة: «هل أنتم من مصر؟». شابة تبدو في العشرين من العمر، متوسطة في المطلق: متوسطة الطول والجمال والبريق والذكاء، حتى عيناها عجين بين الأخضر والليموني والزيتي والرمادي. ينسدل شعرها ذو اللون بين الأصفر والأبيض في خصلات أشبه بخصلات فرس بري. فرانشيسكا إيطالية تدرس اللغة العربية في معهد اللغات والحضارات الشرقية. التصقت بنا لا تريد الرحيل. غيرنا وجهتنا فرحين بالشمس نحو حديقة «شوازي». كانت فرانشيسكا في حالة أشبه بنشوة الخمر وهي تسمعنا ونحن نتحدث المصرية. تكرر الكلمات العربية التي تعرفها وهي تضحك وتقفز وتدور ككناري فرح حول قفص ذهبي جدرانه جسدانا. في طريقنا وقفنا أمام «شجرة الحرية». قلت لرامي: شجرة أرز أطلسي، جاءت بذرتها من جبال الأطلس ليزرعها الفرنسيون في عام ١٩٣٩م بمناسبة مرور مائة وخمسين عاما على الثورة الفرنسية. عجب عجاب. شجرة من بلادنا العربية المحتلة، تنبت في جبال الأطلس العالية يزرعها المحتلون في باريس، في الأرض الواطئة، للاحتفال بثورتهم ثم يطلقون عليها «شجرة الحرية». كم عدد المتناقضات في هذه القصة القصيرة؟

لم تفهم فرانشيسكا سوى كلمتي الحرية وأطلس. تصورت أننا نتحدث عن المعبود «أطلس» حامل قبة السماء على كتفيه. قالت إنها يمكن أن تتحول إلى أطلس روماني وترفع رامي على كتفيها. نزلت بكتفيها تريد أن تدخل رأسها بين ساقي رامي لمحاولة رفعه، فما كان من رامي إلا أن أمسك

بوسطها ورفعها كالفراشة وأقعدها على كتفه. أظنها هي اللحظة التي وقعت فرانشيسكا في غرامه، لحظة تحولها إلى عصفور بين يديه. تحرك الهواء وخبط أوراق شجرة «الاسترقاق» فعزفت لحنا حزينا أطرب قلب الفتاة الإيطالية.

لم تنتظر فرانشيسكا كثيرا، ففي حديقة شوازي وضعت كفها على وجنة رامي، ثم طبعت قبلة. قالت له: تعالَ نعقد صفقة: أبيعك نفسي لمدة عام في مقابل أن تعلمني لغتك. متسرعة بالنسبة إلى فتاة من صقلية. ولدت في مدينة «ألكامو»، منطقة من العالم تتحكم فيها العلاقات الأسرية التقليدية. جاء أبوها إلى باريس ليدير شبكة توفر حراس أمن لشخصيات مهمة تزور فرنسا. كان من قبلُ عضوا في واحدة من عصابات جنوب إيطاليا، أو هذا ما استنتجته مما جرى لاحقا. عاشت فرانشيسكا حتى الرابعة عشرة من عمرها في «ألكامو» ثم انتقلت إلى باريس. كان أبوها عبر وكالته للأمن الشخصي، وهو ما لم أتيقن منه، يقوم بأعمال مشبوهة لصالح من يدفع.

سعد رامي بهذه الشقراء الملتصقة في فخذه. قال لها: أول درس لك أن تعلمي أن الرجل مثله مثل الجزار لا يعشق سوى السمينة، فعليك التهام الدُّهْن، أما نساء الجلد على عظم فعليهم أن يتركوا دراسة اللغة العربية ويتجهوا إلى دراسة الإنجليزية أو السويدية. خرجنا إلى شارع السبيلين متجهين إلى شارع إيطاليا وهناك دخلت فرانشيسكا إلى محل واشترت منه عسلا. دبت أصابعها في البرطمان ثم لحست أناملها وقالت: سوف أبدأ من الآن مشروع السمنة. ضحك رامي فأدخلت أصابعها داخل فمه ليلعق عسلها هو الآخر.

ما بدأ بالعسل ينتهي بالبصل.

في مساء هذه الليلة، كان زكريا في أفضل أحواله. أراد أن يحتفل بعيد ميلاد صديقه الحبيب وفوجئ بهذا النتوء الصقلي الذي برز في جسد رامي. كانت تلك ليلتي الأولى التي تطلب مني ياقوت أن أقوم بالدور الذي سوف ألعبه كثيرًا بعد ذلك.

قالت لي ياقوت:

ـ الأمر سهل يا عزيزي. عندما أقف على المسرح وأبدأ في الغناء تقف فوق مقعد، أو على مائدة، تحرك جسدك في سلطنة، ثم في وسط الأغنية تتجه نحوي في فرح وتخرج أوراق الفرنكات من جيبك وتلقيها على جسدي، ثم تعود إلى مقعدك. تنتظر قليلا، وإذا لم يتحرك غيرك، تكرر الكرة.

سألتها:

ـ أليس من ينقط بالمال عادة هم رجال أكبر مني في العمر؟

ضحكت وقالت لي:

ـ في الظلمة لا فارق بين تلميذ وأستاذ.

احتفلنا ليلتها حتى الفجر بعيد ميلاد رامي. رقصنا وغنت ياقوت «عقبالك يوم ميلادك». وطلب رامي أن يبات زكريا، زميله في السكن، معي لكي يدعو

الصقلية للمبيت معه. دخلنا زكريا وأنا إلى حجرة الفندق وقد تعدت الساعة الرابعة صباحا. واعترف لي حينها بالسر الذي سوف يقضي عليه:

ـ أريد أن أعترف لك بأمر بدأ مسليا وتحول إلى كابوس. لقد أدمنت الرهان على سباقات الخيل. أتابع بشغف كل يوم كل ما يتعلق بأخبار السباقات، واليوم الذي لا أراهن فيه لا أعده من عمري.

تحدثنا حتى بزغ نور النهار ووصل الحديث للحلال والحرام في أمر الرهانات. ذكر لي حينها قصة رهان أبي بكر الصديق مع الكفار حول نتيجة المباراة العسكرية بين الفرس والروم، والتي وضع فيها رهانه على الفرس البيزنطي. برهن لي زكريا بحجج لا أذكرها إن أبا حنيفة قال إن المراهنة في ديار الكفر جائزة. وبما أننا في بلاد يعيش فيها كفرة فيحق له الرهان. لا أعرف من أين جاء بهذا الحديث. حاولت أن أبتعد عن مسالك المحلل والمحرم وأصل إلى المنطق البسيط، إلا أنه أصر أنه لا يفعل شيئا شائنا، ولكن ما يعرفه أن الإدمان مهلكة وهو ما سوف يحاربه بكل قوة. ولأنني كنت عاجزا عن منعه فقد أعطيته في اليوم التالي رواية المقامر لدستويفيسكي وطلبت منه أن يقرأ حال المقامر في الرواية لعله يتعظ. لكن انتهت الحرب بفوز ساحق للإدمان، وظل زكريا يراهن على سباقاتٍ دورُها أن تنهك المراهنين أكثر من الفرس التي تجري. ومنذ هذا اليوم اللعين بدأ الأخدود العظيم بين الشابين يتسع، وبدأت مشارف الحجيم تظهر لي من بعيد.

مع ألوان ومشاهد جهنم رسمت زكريا يعانق الإلهة «عنات»، التي ترتدي درعا معدنيّا يضوي وتحمل بيد فأسا وبالأخرى تمسك رمحا. ينير ضي الدرع وجه أسود الصحراء الشرقية الشرسة التي ترتعد من سطوة الربة «عنات» وفي الخلفية يقف «داجون» أبو «عنات» نصف رجل ونصف سمكة يرمح زكريا من ظهره. العالم صحراء، والأصفر البطل المهيمن على اللوحة والأحمر بقع دم تتناثر حول فم زكريا. قتلت زكريا في لوحتي قبل أن يقتله رامي. قتله داجون الآشوري وابنته التي جاءت إلى مصر مع العدو الهكسوسي وتزوجت ست وحاولت أن تنتحل شخصية حتحور، وكانت تحتضن زكريا حضن الإوز بلا «بز».

* * *

كنت ملقى على الأريكة ورامي يبكي أمامي وجسده المرتعد يرجف صوته وهو يحكي لي أنه كان في كل شهر يعطي مرتبه كله لزكريا يدفع بنصفه المصروفات الشهرية ويدخر له النصف الآخر.

في اليوم الملعون طالبه رامي أن يعطيه مبلغا من المال من مدخراته لشراء هدية لفرانشيسكا.

اعترف له زكريا أنه قامر بالمبلغ كله في سباقات الخيل.

احتدم الخلاف بينهما.

قال له زكريا إن نيته الصافية كانت أن يمنحه نسبته من الربح، ولكنه خسر، وإنما الأعمال بالنيات.

صرخ رامي. علا الصوت. دفعه زكريا في صدره، فما كان من رامي إلا أن رد الدفعة. ومع الفارق الهائل بين الرجلين في الحجم وفي الوزن. طار زكريا واصطدم رأسه في أداة حادة كانت معلقة على جدار. لم يتخيل رامي أن دفعة واحدة يمكن أن تصيب صديقه بأذى. لكن زكريا سقط ولم يتحرك. اقترب منه رامي معتذرا وراجيا منه أن يسامحه وعندما لم يرد عليه رفعه من على الأرض محاولا أن يساعده على القيام. استمع رامي لحشرجة الموت تخرج من حنجرة صديقه. صرخ فخرجت فرانشيسكا من الحمام مذعورة من هول الصرخة وهي شبه عارية سألت رامي عما حدث، لم يرد عليها بكلمة. أمسكت بقبضة زكريا وعرفت أنه فارق الحياة. لم تقل لرامي شيئا. طلبت منه ألا يتحرك وألا يتصل بأحد حتى تعود، وألا يستعمل الهاتف. أكدت عليه بصوت قاطع أن يلتزم بأوامرها. خرجت مسرعة وعادت بعد ساعة مع والدها واثنين ممن يعملون معه ووجدته كما طلبت منه جالسا في مكانه. احتل رجال صقلية المكان ورامي ساهم لا يتحدث. أخذته من يده ودخلت به حجرة النوم الصغيرة الذي لا يتعدى حجمها الفراش المنصوب. وضعت كفها على جبهته وقالت له:

ـ زكريا مات؛ لو أبلغنا الشرطة فسوف يلتهم السجن سنوات عمرك.

بكى رامي في صمت. قبلته حبيبته:

ـ يا حبيب قلبي إنها إرادة من ليس لنا أن نرد إرادته. لا ذنب لك. هل كنت تقصد قتله؟

ـ بالطبع لا.

ـ إذن لا ذنب لك. لكل إنسان خيط حياة صرفه الله له. خط حياة زكريا انتهى اليوم.

حمل الرجال جثمان زكريا بعد أن جاوزت الساعة الثانية صباحا ورحلوا. شعر رامي برحيلهم بقدر من الحرية سمحت له أن يهرب من المنزل. قال لفرانشيسكا إنه سوف يخرج ليشم الهواء. حاولت فرانشيسكا منعه بالقوة ثم بالمنطق. كيف نبرر للشرطة خروجك في هذه الساعة المتأخرة لو شاهدك شاهد؟ لكن هل تنفع القوة أو المنطق مع ثور هائج؟

* * *

أأبلغ الشرطة؟

أسينقذ هذا زكريا من الموت؟

أسيتركني والد فرانشيسكا أعيش لو قمت بهذا الفعل؟

أسوف أقضي على رامي وعلى نفسي دون أن أنقذ صديقي الذي رحل عن الدنيا؟

ماذا عن العدل؟

وهل كان هناك عدل في هذه الدنيا؟

سوف أضمن على الأقل أن يدفن زكريا بصورة لائقة.

لكن هل يمكن استرجاع جثمانه، أم أنهم تخلصوا من الجثمان بصورة لا

يمكن معها استرجاعه؟
عشرات الأسئلة جلدت روحي في هذه الدقائق التي كان خلالها رامي يرتجف كورقة شجر داخل طاحونة من الرياح العاتية.
ما لم أفكر فيه هو كرة الجليد التي سوف تكبر كل يوم بعد حالة الاختفاء المريب الغامض. هذا التضرع لعودة الغائب، المناشدة التي أعرف أنها بلا طائل. حجر جثم على روحي وظل قابع لا يتزحزح. عشت حياتي نادما على عدم الاعتراف بالحقيقة للعالم في هذا اليوم، وظل رمح داجون في ظهري أنا يكويني بنار جهنم.

* * *

التقيت فرانشيسكا ورامي من سنوات قليلة في باريس في عيد ميلاد رامي الخامس والخمسين. لم نكن قطّ اقتربنا من موضوع زكريا على مدار هذا العمر. فوجئت بفرانشيسكا تعترف لي أنهما لم يعرفا ماذا حدث لجثمانه. لم أنم ليلتها. باب الجحيم يتأرجح أمامي. لم أفتح فمي طوال هذه السنوات. ما زال الأمل يراود والدة زكريا بعد اختفائه بواحد وثلاثين عاما. تكرر دائما أن الغائب حجته معه. فكما اختفى يمكن أن يبزغ من العدم. ما زالت أخته تجري الاتصالات. ذهبوا إلى وكالات متخصصة للبحث عن المختفين. لجئوا إلى من يعرفون من أنس لهم اتصال مع عالم الجن. أكد لهم البعض أنه توفيَ إلى رحمة الله، ولكن آخرين قالوا إنه حيّ يرزق ما زال يدب على الأرض. أتعذب وأنا أراهم متمسكين ما زالوا بالرجاء المراوغ. أسمع توسلاتهم الخاشعة وأعرف أن الربَّ لن يسامحني.

* * *

أشعة السماء تنير وجه العذراء ماجدة

كانت تسميني «أوريس».

وبعد مجهود: حورس.

تناديني: أنت يا من سوف تحميني بالقوة الكامنة في عينيك.

قالت لي إن لي عينا كعين الوشق المصري، والأخرى هي عين حورس: تلك العين التي اكتسبت كمالها من تهشمها.

بعد أقل من أسبوع من وصولي إلى باريس، لاحت لي ماجدة كنجم «العملاق الأحمر» بضوئها الساطع. جذبني اسمها ووجهها الملائكي وحياؤها وتاج رأسها أحمر اللون. ثم غصت بعدها في ديجور عالمها النفسي المركب والغريب والذي عجزت تماما عن فهمه.

كانت حجرة جدها بالقرب من حجرة لطيف في معهد جوستاف روسي. كهل جميل، عيونه زرقاء تتطلع إلى لا شيء. قال لي إن مللا بلا ملامح قد أقام في جدار قلبه منذ سنوات. شرح لي بصوت محايد:

ـ لا، ليس شعورا بالاكتئاب، ولا حزنَ أليما ألمَّ بي. ليس هذا. بل فقط إحساس بالاكتفاء، أو الامتلاء.

عمر عاشه منذ ولد في نهاية القرن التاسع عشر، ثم شبع من تفاصيله.

أعلَن للرب أنه أنهى طريقه في هذه الدنيا، لكن الرب لم يستمع إليه في حينه وها هو الآن يلبي النداء. لم يصمد الرجل طويلا. على أي حال، لم يكن يسعى للصمود. مات وهو في حالة تعجب كيف نجا من قرن أشعل حربين عالميتين وعددا لا يحصى من حروب في كل مكان بالعالم، هذا بالإضافة إلى مجاعات وعمليات إبادة عرقية وملايين تمَّ الزج بهم في السجون من رجال سياسة تصوروا أنهم يمتلكون وحدهم الحقيقة. قال لي وحفيدته في حضنه:

ـ أنا غير راضٍ عن الميراث الذي تركه جيلي لكم. مع التقدم السريع والمجنون ظل مشروع عبادة القوة هو الأساس. القوة في مفهومها الجسدي أو السلطوي أو المالي هي وصمة العار الأصلية في جبين كل من يفكر ويشعر. سعيد أنا لأنني سوف أترك هذا العالم البغيض الذي يكرر ببغاواته أقذر الأفكار ذوات الروائح المرعبة على أساس أنها من إنتاج أجمل الزهور.

قبل حفيدته وقال لها:

ـ ظللت أدفع بلا توقف هذه العربة المسماة بالحياة حتى أوجعتني كتفي.

ضمت الصورة التي وضعها الجد بجوار فراشه امرأة جميلة. وجهها فلاحة سلافية لم تترك قطّ حقول البطاطس. كانت تقف أمام قصر مدينة «كون» في النورموندي. تبدو في منتصف العقد الثالث. كانت تلك جدة ماجدة التي وقع في حبها، وعندما رفضت أن تترك قريتها في منطقة «يلينيا جورا» بالقرب من الحدود البولندية التشيكية، ترك النورموندي وزحف وراءها وعاشا في «يلينيا جورا» حتى توقفت ساقية حياتها، وعندما شرفت ماجدة الدنيا كان جدها قد

عاد إلى بلاده وظلت علاقتها به هي علاقة الاسم الذي منحه إياها.

* * *

نادت عليَّ ماجدة: حورس.

ثم ركعت على الأرض ورفعت رأسها نحو صورة العذراء المعلقة على الحائط وقالت:

ـ طلب مني جدي ألا أعشق بجنون؛ فالعشق ضربته موجعة. وهأنا أعشق رجلا خرج من حيطان المعابد المصرية. والغريب أن جدي عرفني على هذا الرجل بنفسه قبل وفاته بأيام. كيف أفهم هذه الرسالة يا عذراء؟

آه يا ماجدة. تسببت في أذيتك دون أن أقصد. فلتسامحني يا من يقبض في يده على طاقة العفو.

لم تحكِ لي ماجدة قصتها بالكامل. شذرات جمعتها بعناية لرسم لوحتها. شذرها لم يكن معظمه لؤلؤا لكن أغلبه كان حديدا صدئا. عاشت حياة عسرة خلّفَت ثقوبا سوداء في روحها لا يمكن ملؤها.

في الخامسة من عمرها، استيقظت من النوم على بكاء والدها وهو يقرأ خطاب الفراق الذي كتبته له زوجته. اختفت أمها من حياتها دون أن تلقي عليها كلمة الوداع. هربت من منزل الزوجية من أجل رجل يصغرها بنحو عشرة أعوام. فقدت الطفلة ماجدة النطق لمدة شهرين بعد هرب أمها، ووجدت ماجدة خلال هذه السنوات الصدر الحنون في شخص «لودميلا» صديقة جدتها لأبيها.

في العاشرة من عمرها، نام والدها بجوارها ولم يستيقظ من نومه. حاولت أن توقظه مرارا وتكرارا لكنه ظل نائما. مات الأب دون أن يحاول عزرائيل أن يطرق بابهم للإعلان عن قرب وصوله. انتقلت ماجدة للحياة مع أم لا تكاد تعرفها في شقة غريبة عنها. سكنتها غربة من يعتزل داخل خيمة في صحراء قاحلة.

وفي الخامسة عشرة من عمرها ولتأكيد ثبات دورة الأعوام الخمسة القدرية يغتصبها زوج أمها فتهرب للحياة مع شاب أحبها بعنف يعمل في صيانة المركبات والجرارات، ولكنها لن تبادله أبدا هذا الحب. عاشت معه في جحيم لم تعلن عنه. وداخل هذا الجحيم، اكتشفت أن معاقرة الخمر وسيلة طيعة للهروب من واقعها. تستيقظ صباحا وتبدأ في ابتلاع كميات كبيرة من البيرة والفودكا. أدمنت الخمر وهي دون العشرين، وأصبح التسمم الكحولي رفيق أيامها.

تعترف ماجدة في النهاية للودميلا أنها تخضع لعملية تعذيب في كل مرة تمارس الجنس مع رفيقها؛ فتتذكر لودميلا الجد الفرنسي وتقرر لَمَّ شمل الشرقي مع الغربي وتبدأ من فورها في إجراءات ترجمة الشهادات المدرسية لماجدة باللغة الفرنسية على أمل أن تلتحق بجامعة أو معهد فرنسي وتلحق بجدها في باريس. تنتهي إجراءات السفر بنجاح وتعلن لرفيقها الخبر قبل سفرها بيوم واحد. يحتد النقاش بينهما إلى أن تصل الأمور إلى الضرب

واللطم ثم يأخذ سكينا يريد قتلها. تفلت من يديه وتخرج إلى الشارع. يجري وراءها كمجنون فقد صوابه. وينتهي المشهد بوجود رجل شرطة في الشارع يضع حدّا للمأساة.

رحلت ماجدة عن قريتها وهي في العشرين من عمرها. وجدت جدها في انتظارها في مطار شارل دوجول مستعدّا أن يمنحها الوقت والدعم والحب. لم تصدق عينيها عندما وجدت أنه أعدَّ لها حجرة نومها. بذل الكثير من الجهد لتلائم تفاصيلها ما يمكن أن تحتاجه فتاة في مثل عمرها. شعرت بطاقته الإيجابية ورغبته في إسعادها، ولكن وعلى الرغم مما بذله جدها من تفكير لم يفارقها الشعور بالغربة. قالت لي:

ـ بون شاسع يفصل بين الحياة في قريتي الحدودية والحياة في باريس. معاناتي مع اللغة الفرنسية كانت كبيرة في بداية الأمر على الرغم من أن أبي كان يتحدث معي أحيانا بالفرنسية. عشت عمري في مكان أعرف معظم سكانه، محيطي أراضٍ زراعية، وفجأة وجدت نفسي في عاصمة يجري سكانها مقتنعين بإن الوقت أهم من الإنسان.

اتفقت مع جدها على أن تدرس الفنون المسرحية. لا ترى من الدنيا سوى الفن والجمال والدراما والله. أما الحب فوجدته في المعهد. وقعت في شباك شاب في شهرها الأول وكان حبها الأول. رقصت أخيرا الفراشات أمام عينيها، وانتهت الرقصة على صوت حبيبها وهو يعترف لها في نهاية العام أنه مثلي. لطمة لم تتحملها بعد أن غزلت من نول العشق قماشا قادرا على أن يمنحهما الدفء طوال العمر. تحطم النول، وتبخر الدفء، ولم يبقَ أمامها سوى العدم.

قررت ماجدة أن تلتحق بدير في جبال الألب للخضوع لفترة تجربة على أمل أن تنتهي المدة بانخراطها في سلك الرهبنة. يسوع سوف يكون منقذها، وعلى كتف العذراء مريم سوف تسند رأسها المنهك.

ـ لطالما حلمت بأن أمنح جسدي للمسيح.

ـ لا أتخيلك راهبة.

ـ أشعر منذ صغري بانجذاب لحياة الرهبنة.

عندما أبلغها رجلها الذي اختارته بمحض إرادتها وحريتها أنه يفضل إقامة علاقة عاطفية مع رجل مثله؛ أدركت أن رسالة الرب واضحة؛ طريقها على الأرض هو طريق المسيح المحمد ذكره.

حان الوقت لتكون ملاكا في خدمة الملك الإلهي، وألا يقف لسانها عن تمجيد الرب لتشق نهج التوبة التي أشار إليها السيد المسيح، ووصفها بالباب الضيق والطريق الكرب. ذهبت ماجدة إلى الدير وكلها أمل. لكن روحها المشتتة وطبيعتها المتقلبة جعلتا أيامها صراعا وأجيجا وماءها أُجَاجا.

* * *

كانت راكعة على الأرض أمام غرفة جدها في معهد «جوستاف روسي» تضم كفيها أمام وجهها تبتهل إلى الله وهي في حالة توحد كامل مع القوى

العليا، هكذا رأيتها لأول مرة. ذكرتني بحالة الخشوع التي يكون عليها رزق ولعة عندما كنا نذهب معا إلى المسجد، يجلس قرب المنبر ويميل برأسه قليلا، يغمض عينيه، ويهمس قائلا: اللهم إني أسألك يا فارج الهم ويا كاشف الغم يا رحمن الدنيا يا رحيم الآخرة ارحمني برحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك يا أرحم الراحمين، اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت. ثم يتسلل بهدوء من عالمنا إلى عالم آخر؛ عالم تسكنه خريستيانا. هكذا كانت ماجدة أمام باب غرفة جدها.

أتساءل اليوم: هل كانت حقيقة في حالة خشوع، أم كانت تتقمص حالة تمثيلية؟

تتأرجح ماجدة بين عوالم عدة: تمثل وتعيش في عالم تشخيصي حتى تظن أنه عالمها، ومرة تتخشع نحو التضرع وتذوب في الذات الإلهية، وتارة تتملكها قوى غيبية غامضة، حينها تتحدث عن إبليس: المشتكي وتصلي: نجنا من حيل المضاد وأبطل سائر فخاخه المنصوبة لنا.

من هي بالضبط؟

اعترفت لي بإنها تشعر أحيانا وكأنها داخل سجن انفرادي عاجزة عن إقامة علاقة حقيقية مع أي إنسان.

تقول: ثم ظهر لي حورس ليخرجني من هذه الزنزانة.

لم أكن لها الحامي، بل إنني ألحقت بها ضررا ألقى بها داخل جُبّ.

* * *

دعوتها على العشاء بعد وفاة جدها في ملهى «الفم الذهبي». كنت ناشدت ياقوت أن تكرمنا فغنت لي بصوتها الرخيم: «أنا راعية الحب أينما بزغ» على مقام حجاز كار. أما رامي فقد جنّد جميع العاملين لخدمتنا. أكلنا وشربنا ورقصنا. لم تكن قد تذوقت من قبل المأكولات الشرقية الشهيرة أمثال الحمص والكبيبة وورق العنب ومحشي الكوسة بالزبادي فتحولت إلى مرشد سياحي غذائي، وسعدت بمدى قدرتها على التكيف مع مذاقات لا تعرفها. ولكنني فوجئت أن هذه الشخصية المرنة كانت طبيعة الشخصية التي تقمصتها ماجدة في هذه الليلة. لعبت دور الفتاة التي قضت حياتها ترقص في مراقص عواصم العالم تحرك ذراعيها لأعلى وتدور حولي وهي تصدر أصواتا فرحة ومصطنعة.

ولأن سيماء ماجدة رصين، ووجهها أيقونة داخل كنيسة من العصور السحيقة، فبدت في الدور الذي اختارته في منتهى الغرابة وكأن المخرج أخطأ تماما في اختيار الممثلة. خرجنا من الفم الذهبي يصحبنا رامي. أوقف لنا تاكسيا وقال لي: ادفع على الأقل ثمن أجرة الانتقال لكي تبدو في عينيها حاتم الطائي.

عندما خششنا في غرفة الفندق خلعت ماجدة حياءها بصورة تليق بممثلة تلعب دور الفتاة الشبقة. قبلتني بوحشية بالغة ولم نكد نصل إلى منتصف

الغرفة. اضطررت أن أفتح ما بين ساقي كي أكون أقصر طولا بحيث لا تضطر هي إلى الوقوف على أطراف أصابعها. وضعت أصابعها داخل شعري ثم غرزت أظافرها في فروة رأسي. وفي حركة مسرحية تليق بمسرح يوسف وهبي مزَّقَت أزرار قميصي وهي تسعى إلى خلع ملابسي، فتسلمت منها جرس أدائها التشخيصي ووضعت ذراعي حول خصرها وشددتها نحوي وكأنني سوف أراقصها التانجو، وبادلتها أحضانا وقبلات عنيفة. شمبانزي بعد انتصاره على غريمه في غابة استوائية يضرب صدره، ويهجم ببهيمية على أنثى يشتهيها. بادلتني العنف بعنف، خلعت قميصي الممزق بيد فلاحة سلافية أصيلة، قذفته بعيدا، ثم قبلتني بشهوانية ولسانها يلعق وجهي. دفعتني على الفراش، فسحبتها بقوة وخلعت فستانها بعنف تمثيلي وأنا في حالة تركيز ألا أمزقه. مارسنا الحب والجنس بحدة وعنف مستمرين على نفس شَدّ الوتر الذي بدأنا به؛ كي لا تهرب منا النوتة الموسيقية. شباب في أوائل العشرينيات من العمر يلعبون أشهر ألعاب جنسهم بطاقة أعمارهم الجبارة. صرخت من الألم أو من النشوة أو لأن المخرج المتخيل أمرها بالصراخ، لا أعرف على وجه الدقة. أرجح أنها كانت تقلد أحد الأفلام الإباحية التي اعترفت لي لاحقا بأنها شاهدتها بعد أن وصلت إلى باريس. وبعد ساعات من الدوران داخل الدوامة الهادرة اختفى الدم عن الدوران في جسدها. تحول وجهها إلى لون أبيض شاهق. أبيض ينذر بالخطر. خرج صوتها واهنا: أتنفس بصعوبة. بدت وكأن روحها تفارق الجسد. اتصلت بالمطعم وطلبت على وجه السرعة عسلا أبيض ومخبوزات حلوة. جلست بجوارها وأنا أرتعد خوفا وهي تلتهم العسل وأنا أدعك أطرافها على أمل أن تنشط دورتها الدموية، استرد وجهها أخيرا لونا أحمر باهتا، ثم غفت. لم أستطع النوم لفترة وظللت أجس نبضها كل عشر دقائق حتى أغشي عليّ في بحر العسل. عندما استيقظت وجدتها قد ملأت البانيو واستلقت في داخله.

ـ كان عليَّ أن أغطس جسدي كله في الماء.

وجدتها جميلة جدّا.

ـ أنت رائعة البهاء.

ـ أنا أتطهر بالماء.

كنت في حالة انبهار. لم تكن ماجدة تعرف علاقتي الحميمة بعالم الحمام، علاقة أكثر قربا من علاقة فناني القرن التاسع عشر في أوربا بلوحاتهم الاستشراقية الغبية للنساء العاريات داخل الحمامات التركية التي طلبها خليل بك ليستكمل مجموعته عن الحمام.

ـ هل ممكن أن أرسمك وأنت تتطهرين؟

تحمست. استيقظت الممثلة داخلها تريد أن تظهر على قماش أو على شريط فيلم. أتيت بأقلامي وأوراقي وجلست على الأرض بجانبها. لم أر سوى وجهها وذراعها الذي يستند على جانب البانيو. ملاك هبط من السماء يمتلك في وسط وجهه بحيرة من السكينة كافية ليتعمد أي إنسان يعيش

على وجه البسيطة. ظللت أرسم وهي مسترخية وأنا في حالة نشوة تفوق نشوة الأمس. وقفت فجأة وقطرات المياه تتساقط من جسدها بحركة بطيئة. طلبت مني أن أخرج من الحمام لترتدي ملابسها. لملمت أشيائي واستلقيت على الفراش. خرجت وهي ترتدي فستانها الأسود. فستانا بسيطا، أزراره تبدأ من الرقبة وتنتهي أسفل الفخذين، صدرها بلله شعرها الندي الذي أراحته إلى الأمام. أخرجت من حقيبتها سبحة من قطع الكريستال تنتهي بصليب كبير. ركعت أمام النافذة، أغلقت عينيها وبدأت في التسبيح. ظللت صامتا أتابعها. كانت تهمس بالبولندية التي لا أعرف منها حرفا ولكنني كنت على ثقة أنها كانت في هذه اللحظة صادقة تماما، كتلة من الخشوع والتزهد. راكعة تجثو أمام الرب، تسبح لتبارك اسمه. هتفت باسم المسيح بفرح حتى فاضت عيناها بحبات الدموع. أنارت أشعة الشمس القادمة من النافذة وجهها وكأن قوى عليا تضبط إضاءة المشهد لتسهيل مهمتي. رسمت التصور المبدئي للوحة وظللت أرسم في هذه اللوحة لمدة تعدت العامين. لازمتني هذه الساعة على مدار عمري وأظنها إحدى أهم لحظات حياتي.

* * *

طلبت مني بعد شهر أن أنتقل إلى شقتها. خطوة لم تكن سهلة لمن تلقت منذ طفولتها ضربات متوالية أفقدتها الثقة في العلاقات العاطفية. فمن انفصال أمها وأبيها، إلى اغتصابها من زوج أمها، إلى الحياة مع رجل لم تحبه قط، ثم السفر إلى بلاد غريبة والتعلق برجل مثلي. لم يكن الحظ حليفك يا أيقونة من السماء.

كانت تناديني: يا «منو» الآتي من بعيد ليمنح جسمي لأول مرة ماء الحياة.

وأيضًا: يا «مين» يا من أيقظ جسدي من الموات.

ثم تعود وتتطهر من الإثم وتتضرع للعذراء.

* * *

بانتقالي للحياة معها، انفتح أمامي عالم المسرح وقاعات عروض الفنون البصرية. تعرفت على فنانين فرنسيين ومخرجي مسرح وكتاب وفلاسفة. دخلت معهم في حوارات أنارت مناطق معتمة في ذهني. ثم وقعت ماجدة في حب التصوير الفوتوغرافي حتى أصبح التصوير هو حياتها ومستقبلها. كانت تريد أن تصور الله على الأرض. جريت معها إلى حدائق وقنوات وجسور، لمست أناملنا لحى أشجار لم أعرفها من قبل، ودود طين، وطيور. كانت عيناها تلتقطان ما لا يراه غيرها. ثم بدأت مرحلة كلاسيكية يمر بها معظم من يقع في عشق التصوير وهي مرحلة تصوير المهمشين في مدينة النور، وبولوجها داخل عالم المعدمين فطنت إلى قسوة النظام الرأسمالي، هي التي أتت من نظام اجتماعي واقتصادي لا يعرف الإعلان عن منتج، وإذ بها تعيش في مدينة الإعلانات الملونة الموجودة على كل جدار. لم تتحمل كل هذه الفوضى داخل جمجمتها، فقررت بعد عدة شهور أنها لا تحب التصوير وأن التمثيل المسرحي هو مصيرها.

* * *

هل أحببتها؟

افتقدت دائما دلالة المفهوم.

هل سقطت في دنس بئر الجملة السائدة بين الرجال أنه لا فرق في النهاية بين ثقب وآخر؟

الإجابة بنفي قاطع. ما زال أنفي يميز بين رائحة السنبل ورائحة الياسمين وعطر مسك الليل. لا أشك أن فؤادي قد خفق وأنا أتابعها وهي تسبح باسم الرب بمسبحتها الكريستال أمام النافذة، لكن لم يمنعني هذا من معاشرة صفاء.

* * *

ما حدث لنا مع فرانشيسكا تكرر بالتمام مع صفاء.

يبدو أن للغتنا المصرية سحرا خاصّا. كنت أسير مع رامي عندما اقتربت منا امرأة شابة وسألتنا نفس سؤال الإيطالية:

ـ هل أنتم مصريون؟

ـ نعم.

ـ أأنتم من القاهرة؟

ـ نعم.

ـ أتعرفون عبد الحليم حافظ؟

ـ البقية في حياتك. عبد الحليم مات.

ـ أنا صفاء.

ـ أهلا صفاء. كومون صفاء؟ (كيف حالك بالفرنسية؟).

ولدت في باريس من أصول مغربية في الحي الثامن عشر في باريس، كان أبواها من عشاق السيدة أم كلثوم وفريد الأطرش وعبد الحليم. تشكلت لديها حساسية خاصة لهذه اللغة التي يشدو بها المطربون المفضلون لأمها وأبيها. سارت معنا وانجذبت هذه المرة لي وتركت رامي في حاله. وانتهى بنا الأمر في فراش شقة ماجدة في يوم كان من المستحيل على المستوى النظري أن تظهر ماجدة من العدم وتفاجئنا بالحضور. لكن حدث غير المتوقع ودخلت علينا ماجدة ونحن عرايا في حجرة نومها.

دائما ما تهبط من السماء هذه القشة قاصمة الظهر. فقدت الفتاة المسكينة ثقتها في العالم بسببي، وقررت قرارا نهائيّا الالتحاق بسلك الرهبنة. كانت هذه الليلة قبل سفرنا لطيف وأنا إلى القاهرة بأيام قليلة. حاولت بعد عودتي إلى مصر أن أتصل بها وبأصدقائها دون جدوى. عرفت بعد عام أنها تعيش في أحد الأديرة في جبال الألب في شرق فرنسا. وعلى مدار السنوات الطويلة فشلت تماما في الوصول إليها، ثم عن طريق صديقة مشتركة جاءني خبر وفاتها في الدير بعد أن أتمت الخمسين من عمرها بيوم واحد. جريت إليها لأشاهدها جاثية على ركبتيها أمام النافذة تتضرع إلى الله وبكيت.

* * *

يد الجنين ترسم على بطن الأم علامة الانتصار

عاش جدي يوسف في حي المنيرة الأربعين عاما الأخيرة من حياته، وجميع أهل الحي على ثقة بأنه يهودي الديانة. عرفت هذه المعلومة العجيبة عندما علا صوت القرآن في أحد الأيام من داخل شركته بعد وفاة طبيب كان يعده جدي يوسف من أقرب الأصدقاء، فسألني المكوجي: «هل أسلم الخواجة يوسف مراد؟».

قضى الرجل حياته مختبئا داخل رداء فضفاض يمنع عنه عين المتطفلين. لم يربط سكان الحي بينه وبين عائلته، فلم يكن قطّ سوى صاحب شركة «عنتر للتوزيع» التي أسسها الأستاذ «زكي عنتر» المصري اليهودي الديانة. تعود هذه الحكاية إلى عقود طويلة مضت عندما انتقل يوسف مراد مع أخته بستان وبناتها للإقامة في عمارة إسحاق بك عبد الرحمن في حي المنيرة. تعرف حينها على الأستاذ زكي عنتر صاحب شركة لتوزيع السلع غير الدوائية على الصيدليات، كالقطن والسرنجات والشاش وغيرها من هذه السلع التي تباع لدى الصيدلانيين. كان محله والمخزن الملحق بالمحل في البناية الملاصقة لعمارة إسحاق عبد الرحمن. ومع تبادل الزيارات أصبحا أقرب الأصدقاء. جمعهما احتساء الكونياك وحب النساء وزيارة الملاهي الليلية. خاض «زكي عنتر» مغامرات نسائية لا عد لها بعد اكتشافه أنه غير قادر على الإنجاب. كان قد زار عشرات الأطباء وانتهى القرار الطبي بصدمة لكبريائه الذكورية: «حيواناتك المنوية عليلة يا أستاذ عنتر». ضرب عجزه عن الخلفة غريزة بقاء النوع في مقتل. سوف يموت ولن يترك من ورائه من يخلفه في الأرض. لكن لأن لكل عملة وجهين فكان الوجه الآخر جموحه المتهور لإثبات قدرته الجنسية. قال له جدي يوسف: (لن تلعب معك واحدة من البغايا اللعبة التقليدية وتصرخ في وجهك: «ارحم من في رحمي).

ولأن الحياة ملهاة دكناء اللون؛ فقد وقع جدي يوسف ضحية لنفس اللعبة وهو في السبعين من عمره.

عرف جدي يوسف عالم المومسات من البوابة التي فتحها له الحاذق زكي عنتر. وقع في غرام عوالم العارفات بأمور متعة الجسد، ومنحني بعضا من خبراته، وعن طريقه أصبحت أكثر من قوادة من ضمن صديقاتي وبعضهن كن أبطالا للوحاتي.

مع اندلاع حرب ١٩٥٦ وبدء ترحال اليهود من مصر، اضطر زكي عنتر إلى الرحيل إلى الولايات المتحدة الأمريكية. باع بثمن بخس شركته ومحله ومخازنه والبضاعة الموجودة لديه لصديقه يوسف مراد على شرط أن يظل اسم المحل يحمل اسمه إلى النهاية. أثبت عنتر أن لديه مهارات مبهرة في مجالي التعليم والتدريب. ففي ظرف ستة أشهر، استطاع أن ينقل خبراته كلها إلى يوسف مراد الذي سوف يصبح بعد رحيله صاحب محال عنتر. واعتبر أهل الحي أن هذا الانتقال قد تمَّ داخل نفس عائلة عنتر؛ ولذلك لم يتغير

اسم المحل أو طبيعة العمل ومنح سكان حي المنيرة الديانة اليهودية لجدي يوسف.

استكمل جدي دورة حياة الرجل بحذافيرها وكأن عنتر ارتدى جسدا جديدا يفوقه في الطول والعرض والجمال ومعالم العز البادية على وجه البدر الذي يحمله. يفتح المحل في الثامنة صباحا ويبدأ في استلام شحنات البضاعة من المصانع ومن المستوردين. تدخل المنتجات في المخزن بنظام حديدي أبدعه عنتر. وفي التاسعة والنصف تبدأ خمس عربات تابعة له في توزيع البضاعة على صيدليات القاهرة والجيزة. يصعد جدي يوسف للغذاء في الثالثة بعد الظهيرة ثم ينام لساعة واحدة. يكون في المحل في الرابعة والنصف تماما. في السابعة مساء يأتي صبي الحاتي بنصف كيلو من الرّيَش الضاني، وفي السابعة والنصف يشرب أول كأس كونياك ويغلق الدكان في الثامنة مساء، وينطلق بعدها إلى حانات القاهرة الجميلة. وعندما كانت بستان تحدثه عن الزواج يرد قائلا: إنني أتزوج كل يوم امرأة جديدة، ألا تعرفين أن أخاك هارون الرشيد؟

كانت من ضمن هوايات هارون الرشيد أن يغدق عليَّ بالنصائح، ظلت معي بعض عظاته وكأنه حفرها على جدراني بأظفاره. ما زلت أسمع جرس صوته وهو يقول لي:

ـ لا تقتل دون سبب واضح.

كان يعلمني الشطرنج، ويكرر على مسامعي أن القتل العشوائي أسوأ من الخسارة.

ـ الأهم يا شهاب هو التفكير المنطقي والرياضي في كيفية التقدم الحثيث، وجيشك كله أو معظمه معك.

لا تمت هذه النصيحة إلى لعبة الشطرنج بأي صلة، لكنها تمت إلى شخصه الهادئ الرافض تماما للعنف. كان يرفض الاعتراف بأن الشطرنج -في نهاية الأمر- لعبة هدفها قتل الملك المنافس، وقائمة على التراتبية في المنزلة وفي القدرة. فالطابية أهم من الفيل، والوزير أهم من الحصان، وجميع هؤلاء أهم من البيدق، وبالتأكيد كلهم في خدمة الملك وحمايته. هرم اجتماعي وسياسي رذيل مفروض علينا منذ آلاف السنوات، وحان وقت التخلص منه جذريّا. أما هو فكان يشرح لي أن قواعد اللعبة ترتكز على التناغم والانسجام بين جميع القطع، الكل راضٍ تماما عن موقعه الذي اختاره له الله. والنصيحة واضحة: ابتعد عن القتل العشوائي فالحياة في سلام بعيدا عن الصراع القائم هي الغاية التي يجب أن نسعى إليها في هدوء.

ذهبت إليه في أحد الأيام في المحل بعدد من مجلة التطور التي صدرت عام ١٩٤. مجلة قديمة وقعت تحت يدي وأنا صبي مراهق لاهتمامي بجماعة الفن والحرية، والخبز والحرية، كتب أنور كامل في هذا العدد:

«إن الفن قوة تخترق الجدران وتفتح النوافذ، تشعل المواقد في كل مكان وترتاد أخطر المجاهل، تمزق الأقنعة وتغير على كل الحدود».

ولأنني أريد أن أكون فنانا تشكيليّا فكان عليَّ أن أعرف هل يجب أن أمزق الأقنعة كما يقول أنور كامل، أم أضع الأقنعة على فمي وأذني وعيني كما يطلب مني جدي يوسف. كان يحتسي كأس نبيذ أبيض وأمامه جوز ولوز وعين جمل. أجلسني أمامه وقال لي:

ـ الفن هو تصوير الجسد، اهتم بفهم جسد المرأة؛ وسوف تكون فنانا عظيما دون أن تشعل أي مواقد.

أدركت لاحقا كم كان جدي يوسف مخطئا، وأنني لابد أن أغير على كل الحدود كما قال أستاذنا أنور كامل.

كان جدي يوسف يأخذني إلى الملعب الرئيس في نادي الجزيرة لنشاهد مباريات التنس في أثناء البطولة السنوية التي كان النادي يقيمها. لاعبون من مختلف أنحاء العالم يتنافسون على المركز الأول. كان يكره المنافسة ولكن على الرغم من ذلك كان يحب هذه اللعبة؛ لأنه كان يلعبها صبيّا في الإسكندرية. كنا نذهب يوم إجازته الأسبوعية للإفطار في النادي جبنة بيضاء بالطماطم، وجبنة شيدر ساخنة، ولسان. ثم نتوجه إلى الملعب ونظل هناك طوال النهار نتابع المباريات. كنت ألتقط صوت المتفرجين في المدرجات لتشجيع أحد اللاعبين، فينصحني ألا أصفق على لعبة خاسرة من الخصم.

ـ من حقك التشجيع والتصفيق فقط في حالة لعبة موفقة من اللاعب الذي تقف في صفه. أما أن تفرح من لعبة فاشلة من الخصم فهذه خسة وضعة.

ـ ولماذا يا جدي؟

ـ لأنه عليك أن تكون إيجابيّا. أن تتمنى أن يلعب كلا اللاعبين بأفضل ما لديهما من فنون اللعبة، والرابح سوف يكون من لعب أفضل.

ولأنني كنت صغيرا فلم أفكر كثيرا في معنى ما كان يقال لي. ولكنني مع الزمن أحببت ما كان يمثله هذا الرجل في حياتي من قيم.

أما نصيحته التي لا تنسى فكانت تتعلق بولعه بالجنس الآخر فقد كان يقول لي:

ـ يا شهاب عندما تجد مجموعة من الصديقات في مكان، فتوجه فورا إلى أقلهن جمالا، فمعها مهمتك سوف تكون أسهل، ومن خلالها سوف تتعرف على جميع من معها من الجميلات.

* * *

في ليلتي الأولى التي أقضيها دون أمي وأبي، في هذه الليلة التي سال فيها خيط دافئ رفيع تسلل ببطء من تحت سروالي ليبلل الدنيا، كانت جدتي بستان تحضنني وأنا أقف في وسط غرفة مجهولة هَلِعا. سمعت الباب الخارجي يفتح ثم يغلق. حلمت أن يكون أبي قد قدم من بعيد. كان جدي يوسف عائدا قرب الفجر. ذعر عندما رأى الأنوار. جرى إلى غرفة أمي التي سكنتها. كان يعرفني بالكاد، ولكنه أخذني هو الآخر في حضنه وصمم على أن أنام معه في فراشه. هو من أخذني إلى الحمام لأستحم وأغير ملابسي. رفضت تماما أن أخلع ملابسي أمامه. أحضر شاشا ولف به عينيه ومد ذراعيه

للأمام ليلعب دور الأعمى، ثم سقط على أرض الحمام وهو يمثل دور المتألم. ضحك وحكى لي حكايات لا أتذكرها. نمت ليلتها في فراشه وهو يربت بلطف على شعري في حنان بالغ. لم أعرف مثله في خفة الظل والروح، ضحَّاك، يكره الغم ويهرب من الأخبار المزعجة جري الوحوش. موقفه من الحياة واضح ويتلخص في جملة واحدة:

ـ لا تهتم بما يحدث حولك فكل ما يبدو مهمّا هو وهم صنعه خيال مرضى نفسيين، أما المهم فهو أن تعيش اللذة وتمتلك اللذات دون أن تملكك أو تتحكم فيك، وأصل كل الأشياء لذة الجسد.

حديث يرفضه أغلب البشر ولكن به عاش جدي يوسف دائم الابتسام لم يضر أحدا، ولم يستطع أحد على وجه البسيطة أن يعكر مزاجه.

* * *

تغيرت الدنيا. ماتت جدتي بستان، ثم مات زوج أمي، ومرض رزق ولعة، وتحولت أنا من حال إلى حال، وظل جدي يوسف كالجبل لا يتغير، تمر عليه العواصف وهو راسخ أبدا، يأكل الريش الضاني في السابعة، ويتقيّل في الثالثة، ويتابع تحرك سيارات التوزيع في التاسعة والنصف حتى أتى الزلزال المدمر «سوسن».

عاهرة شابة، جميلة الوجه، تتمتع بذكاء وحيوية، لجأت إلى الطرق القديمة. قالت له في أحد أيام الصيف: «ارحم من في رحمي». كان جدي قد تعدى السبعين من عمره، ويبدو أنه في هذه السن، التي لن أصل إليها، يفكر الرجل فيما ضاع من فرص كان من الصواب استغلالها ليأتي للدنيا بولد من صلبه. تجسد أمامه حلم الخلود. من الجلي أنه لم يكن يريد الرحيل دون أن يترك بصمة من جيناته في وحل الحياة.

قال لي:

ـ أن تكون خالدا غريزة أكثر رسوخا من جميع الغرائز الأخرى.

داعبته الفكرة، كان لدى هذا الرجل القوي القدرة على أن يلفظ هذه السوسن بقسوة، فهو يعرف أن جدول يومه الثابت سوف يتشظى لو رضخ لها ورحم من في بطنها، ولكنه انصاع وسلَّم.

تمَّ عقد القران في مبنى ملحق بمسجد صغير في العباسية. لم يحضر أحد من عائلتها. وفي المساء أقام حفلا صغيرا في بار قديم كائن في زقاق في وسط البلد. ارتدى ليلتها قبعة فرنسية وبذلة بيضاء وحذاء أبيض وبدا قادما من على صهوة رولزرويس من الحرب العالمية الأولى. كنت الوحيد من عائلته الذي حضر عقد القران والحفل، أما أغلبية الحضور فكانوا من العاهرات اللاتي تعرف عليهن عبر سنوات عمره. جاءت جلستي بجوار «ريري»، قوادة في الأربعين من عمرها، كانت عاهرة في شبابها الغض، لجأ يوسف كثيرا إلى خدماتها وهي في العشرين من العمر، ومع السنوات أصبحا أصدقاء. حكت لي أنها تحبه بالفعل. قالت:

ـ خال أمك هذا نبيل من زمن الفرسان.

صهل جدي يوسف كفرس أصيل، استدعى هواء الكون، رشف من كأس الكونياك، وقام يرقص على أنغام الموسيقى وعصاه الأبنوسية تتراقص معه.

أراه يدور ويلف، يتفرس في وجوه من قضى معهن لياليه بعينيه الواسعتين الصافيتين وهن يقرصن ركبة سوسن، على أمل أن يجدن هن الأخريات عريسا كعريسها.

تداعى فجأة من الإرهاق، والعرق يملأ جبينه وقال لي:

ـ أنا اشتراكي يا ولد فقط مع النساء؛ فقد خلقهن الله متساويات في كل شيء. أما الرجال فالنظام الإقطاعي هو النظام الأمثل للتعامل معهم؛ شرط أن تكون بالطبع مالك الأرض.

كانت هذه الليلة الأولى التي تقضيها سوسن في منزلنا، دخلت وراء زوجها وأذان الفجر يلفنا، وكنت من تبعهما لأغلق الباب. قبلت جدي يوسف وتمنيت لهما نوما هانئا، وكنت أعرف أن أمي يخفق قلبها وراء باب حجرتها تستجدي النوم ولا يأتي.

لم يعترف لأحد في المنزل أنها عاهرة، لكن الأمر لم يكن يحتاج إلى إعلان. ففي مجتمعنا الطبقي الجميل المريع القذر كل طائفة لها لغة خاصة بها، جملة واحدة تكفي لتعشيق الشخص داخل الخانة الطبقية التي ينتمي إليها، ثم داخل الشريحة الاجتماعية في طبقته. في صباح اليوم التالي طلب من أمي عايدة أن تكون رحيمة بها.

بدأ منذ هذه الليلة الامتحان الصعب. طلب مني جدي أن ألعب دور المدافع عن سوسن عندما تكون داخل فكي الرحى: بين أسنان أمي عايدة وفك خالتي برلنتة التي ما زالت تقيم في الشقة المواجهة لشقتنا. يعرف خال أمي كثافة المرارة التي تراكمت طبقة وراء الأخرى في روح برلنتة. كان يهمس لي بعد أن تجلده بالكرباج المقيم في فمها:

ـ عدم خلفتها سن لسانها حتى بات أحَدَّ من سكين الجزار.

كنت أرد أن قدرتها الساطعة على جرح البشر بأكثر الكلمات قسوة، تلك الحروف التي تنطلق من فمها بسهولة عجيبة لتدمي روح محدثها، هي جينات ولدت بها ولا شك في هذا. فهذه قدرة لا يمكن أن نتدرب عليها.

كان جدي يوسف قلقا من هجوم عايدة الدائم على زوجته في أثناء وجوده في المحل. تركت أمي عملها قبل وفاة زوجها بعام، وأصبح وزن الساعات والدقائق ثقيلا عليها، ووجدت في سوسن أول فرصة أمامها لتبدأ حالة عداء صريحة، وصار إضرام النار في حروب منزلية عادة عائلية تحارب بها الملل. أما سوسن فلم تكن في حاجة إلى مدافع عنها فهي تستطيع بكل سهولة الفتك بهاتين المرأتين، هي التي عاشت طوال حياتها بين ديوك متصارعة فخرجت لها نصال طبيعية في غضاريفها. لكنها لم تكن تريد إشعال معركة. تعلم تمام العلم مكامن قوتها وأرادت أن تختبر قوة صبرها وحكمتها في تلقي الهجوم تلو الهجوم وهي مبتسمة متجالدة، وفي هذا تدريب لها لتلعب لأول مرة دور الهانم. بالطبع لم تستطع أمي أن تطالب خالها بالرحيل فهو في

مقام والدها، والشقة تتسع لنا وزيادة. كما أن مستأجر الشقة في عقد الإيجار هو خالها وليست بستان، وهو أمر لم تعرفه قطّ سوسن. فكّرَت أمي بعد مرور شهرين في الرحيل، ولكنني كنت أنتوي الزواج بناريمان خلال أشهر قلائل بعد أن دامت خطوبتنا لأكثر من عام. فكرة أن تعيش وحيدة في بيت غريب بعد زواجي لهو أمر لم تكن تتخيله.

لجأت أمي إلى ماما رفيعة، طلبت منها أن تأتي لزيارتنا. لم أكن حاضرا ولكن حكت لي أمي أن خريستيانا طمأنتها وأبلغتها أنها سوف تعيش حياة مديدة سعيدة، وأنني سوف أكون دائما سندا لها. وقالت لها إن عليها ألا تقلق من سوسن فسوف تتحسن أخلاق هذه الشابة مع الزمن، وإن خالها لن يرى له خلفا.

لا حلَّ إذن سوى التعايش السلمي داخل شقة واحدة حتى يسقط الطفل ميتا، وتنتهي علاقة خالها بزوجته. لكن كيف تتعايش مع عاهرة؟ وضع مربك لعايدة فسوسن زوجة خالها، وفي عمر ابنها، وحامل في الشهر الخامس، والكلمات تخرج من فمها كما تلوك البقرة البرسيم في حظيرة نتنة حسب تعبير أمي الطبقي. أما برلنتة فلم تبخل في قذف سوسن كلما أتيحت لها الفرصة.

ـ عشنا وشاهدنا دود الأرض يتسلق ليسكن الأدوار العالية.

لم أستطع في البداية أن أتعايش معها أنا الآخر. لم أفهم قدرتها العجيبة على المكوث في المنزل لفترات طويلة دون أن تفكر في الخروج منه ولو مرة واحدة. قلت لها يوما بصراحة: لماذا لا تخرجين يا سوسن لتتنسمي الهواء الطلق؟ أجابت وهي تمط شدقها: ولماذا أخرج وأنا أعيش في هذه المساحة الشاسعة؟ إنها شقة يجري فيها الخيل.

كنت معتادا على أن أختلي بنفسي داخل الشقة، خصوصا بعد أن حولت حجرة جدتي بستان إلى مرسمي، أن أقتنص فرصة خلو الشقة وأخوض بعض المغامرات الجنسية السريعة، أن أقيم مع ناريمان داخل الفراش لمدة ساعتين أو ثلاث كلما سنحت الفرصة.

كنت في هذه الفترة أستعد للاشتراك في معرض جماعي لمجموعة من شباب التشكيليين، فكان عليَّ أن أعمل بكل جد. وكانت سوسن تستغل وجودنا وحدنا في المنزل لتدخل إلى حجرة بستان، أو إلى مرسمي؛ لتتبادل معي الحوار. ولأن أمي كانت كثيرة الغياب عن المنزل، فقد أصبحت أكثر عرضة لعمليات الهجوم المباغتة. حاولت أن أشرح لها أنني أعمل ولكنها كانت تجيب:

ـ يدق الولد جوفي بعنف، دعه يتفرج عليك لعله يهدأ قليلا؛ فأنا لم أعد أتحمل ضرباته.

عندما شاهدت لوحات لنساء عاريات سألتني:

ـ هل رسمت امرأة حاملا وهي عارية؟

لم أرد. يوما بعد آخر سيطرت الفكرة على ذهنها بقدر من النزق الطفولي.

إنها تريد أن تخلع ملابسها لأرسمها عارية وبطنها أمامها. راقت لي الفكرة فلم أكن رأيت جسد امرأة حامل. طلبت منها أن تحصل أولا على موافقة زوجها. استمرت المناوشات لمدة شهر. استكملت برلنتة مهام مدفعياتها الثقيلة في سب زوجة خالها، وطاب لأمي الهروب الدائم لكيلا ترى وجه سوسن الذي أصبح مثيرا لجهازها العصبي. كبر بطن سوسن حتى ظننا أنها تحمل توأما. ولكم كانت فخورة عندما قال لها الطبيب إن رحمها فخم يتسع لإقامة ثلاثة. ولأول مرة في تاريخه يعود جدي يوسف إلى المنزل بعد أن يغلق محله ويكتفي بتناول كأس الكونياك في المنزل.

دخلت عليَّ المرسم في شهرها الثامن وهي برداء واسع. لم أهتم بها، واستكملت الرسم لكنها وقفت أمامي مباشرة وخلعت رداءها ووجدتها أمامي عارية تماما. يبدو أن الذعر بدا على محياي لأنها قالت لي وهي مبتسمة:

ـ لا ترتعد هكذا، أنا لن أغتصبك بالتأكيد. أريدك فقط أن ترسمني.

ثم اقتربت مني ووضعت كفها على رأسي وهمست:

ـ لا تخف، لن يعرف أحد أنك رسمتني. العاهرات يعرفن جيدا كيف يحافظن على الأسرار.

استلقت على مقعد وذكرتني بأن الخادمة لن تأتي اليوم، وأن أمي لن تعود قبل المساء لأنها سمعتها وهي تتحدث في الهاتف مع صديقتها، وأن زوجها اليوم سافر إلى طنطا في مهمة عمل.

لم أجد أمامي إلا أن أبدأ في رسمها.

مات جدي يوسف في هذه الليلة.

وصل من طنطا وهو يرتجف، وصعدت روحه وهو بين يدي.

لم يرَ ابنته التي وضعت يدي على كفها وهي تدفع ذراعها من داخل الرحم حتى بانت قبضتها الصغيرة من فوق سطح بطن سوسن.

لم أغفر لنفسي قطّ أنني رسمت زوجته عارية دون الحصول على إذنه.

وأصبحت ياسمين يوسف مراد مسئوليتي على مدار سنوات عمري كله.

* * *

تموت السادية عندما تقضي الماسوشية نحبها

استمعت إلى طرق خافت. كانت فريال تقف هزيلة أمام باب شقتنا. لم أكن قد رأيتها من قبل ضامرة إلى هذا الحد. سألتها عن سبب ما اعتراها من ضعف، أجابت أنها بخير، وأن سيدتها تطلب لقائي. نزلت معها إلى شقة جليلة في الدور الأول. اعترتني رعشة في جسدي من برودة تسكن هذا المكان، نفس الرعشة التي هزت عروقي آخر مرة دخلت فيها هذه الشقة منذ سنوات طويلة. لم يتغير شيء في هذا المسكن منذ سكنت جليلة وزوجها المرحوم رشاد الدور الأول منذ عقود طويلة، وكأن أثاث المنزل قد تجمد وسط حرارة القاهرة التي اندحر جبروتها أمام جليد هذه المرأة.

جلست أنتظر في حجرة الصالون وأنا في حالة رهبة. ماذا تريد مني الآن سيدة الشر. عليَّ أن ألبي من فوري ما سوف تأمرني به فنابها أزرق، ورحم الله امرءا عرف قدر نفسه. طال انتظاري فعادت بي ذاكرتي إلى سنوات طويلة مضت عندما سألت جدتي بستان عن سر معرفتها بالقصة العجيبة لمقتل الأميرة رتيبة هانم كامل. خصوصا أنه لا أحد يعرف السر سوى القاتلة، وإفشاء السر فيه خطر على حياتها أو على الأقل تدمير لسمعتها.

كنا داخل الإطار التقليدي لمجلسنا. تفرد بستان جسدها على الفراش مرتدية قميص نومها الليلكي، ورائحتها العطرة تفوح منها لتغرق الغرفة بشذا بستاني، وأنا جالس بجوار قدمها، أدلك لها عرقوبها، ومنه أضغط بأصابعي على عظام المشط، ثم أتحرك ذهابا وإيابا على القوس الأخمصي، وأنتهي بضغطة قوية على رسغها وأكرر بلا نهاية أنواع الضغط المختلفة لتدليك خريطة أعصابها، وهي في أثناء ذلك تحكي لي حكاياتها بلا انقطاع. لقد ولدت بستان لتحكي وما زال صوتها معي:

في يوم وأنا أحتسي كأسا من النبيذ الأحمر لأجالس خالك يوسف الذي كان يشرب كعادته كأسا من الكونياك ويحكي لي طرفة من إحدى مغامراته النسائية، سمعت طرقا على باب الشقة. كانت فريال خادمة جليلة تطلب مني للضرورة أن أذهب لسيدتها لعدم قدرتها على الحركة. سألتها وأنا منزعجة: كيف لا تستطيعين الحركة؟ فأجابت فريال أنها متوعكة. كانت جليلة قد اختفت عن ناظري لمدة أسبوع، وكان هذا أمرا عاديّا لا غرابة فيه. لم أتوقع أن حالتها تدهورت ووصلت إلى هذه الحالة السيئة التي رأيتها عليها. شعرت المسكينة أن روحها تتحرك ببطء لتصعد إلى بارئها. قالت لي إنها واثقة تماما أن ساعاتها على الأرض قد انقضت. كان من الطبيعي أن أكون إلى جوارها في هذه اللحظات الصعبة. فتحت لي جليلة خلال أيام مرضها صندوق أسرارها وأنا لا أكاد أبرح مكاني بجوار فراشها. كانت وكأنها تجلس على مقعد الاعتراف على أمل أن تتطهر قبل لقاء ربها. نحتاج جميعنا إلى أن نفرغ ما في جوفنا من نُفايات، أما أخطر ما في جَعْبتنا فنلفظه عادة قبل لحظة انسدال الستار.

تدفق السيل ينفي الغثاء، باتت جليلة على فراش الاعتراف كالكير تنفي خبثها. أخرجت ما طيه الزمن. العجيب أنها كانت تحب الأميرة رتيبة هانم. نعم، قتلتها وفي ذات الوقت تقول عنها إنها كثيرة الفضل، عالية القدر والمنزلة. الحقيقة أن جليلة كانت تشعر وهي في حضرة الأميرة أنها فأر داخل مصيدة لا فرار منها. انتابتها في بداية الأمر سعادة غامرة عند انتقالها من منزل أبيها في الصعيد إلى قصر رتيبة هانم وأصبحت وصيفتها. انفتحت أمامها عوالم لم تكن تدرك وجودها. ومع دورة ساقية الزمن، توجست خيفة أن يفوتها قطار الزواج، أن يبتلعها ظل رتيبة هانم الرطيب. أن تعيش في كنف أميرة، لديها من الأموال ما لا يحصى، هو أن تتماهى دون قصد مع نسق قيمها، ونمط حياتها، أن تنصهر في عالم ليس عالمك وتقع في شرك صائد تفشل في الخروج منه. أن تعيش في كنف أميرة هو أن يتم استلاب روحك ولا يبقى أمامك سوى الاقتداء بها. أن تصبح خليطا من سمات لم تكن قطّ من سماتك. تكشّف لجليلة أنها تحذو حذو رتيبة هانم في كل تفصيلة: حركة مشيتها، جلستها، طريقة حديثها. ووضُح لها أن هذه المماثلة سوف تمحو جليلة مهران من الوجود. وعندما وهجت حدقتا عينيها وتسارعت دقات قلبها عندما وقع بصرها على الطبيب رشاد شرف عندما حضر للقصر لعلاج الأميرة، قررت أنه آن الأوان أن ترعى مصالحها. ثم جاء التجاهل الكامل للدكتور رشاد لها، أغلق الرجل بصره عنها ليؤكد لها أنها في حضرة ضياء تاج الأميرة كائن غير مرئي، كتلة لونية بلا ملامح ابتلعها الظل الأسود للأميرة. لن تستطيع أن تصل إلى الحب دون أن تتخلص من ولعها برتيبة هانم. نعم، هي مولعة بها، لا تقتبس منها فحسب ما تستحسن، ولكنها تفني ذاتها في ذات الهانم.

* * *

كان د. رشاد شرف طبيبا نابها. عاد لتوه من لندن بعد أن أتم رسالته للدكتوراه واكتسب سريعا سمعة طيبة وشهرة باعتباره طبيبا متميزا. ابن لعائلة من الموظفين الذين خدموا في الأجهزة الحكومية المصرية. أبوه موظف في السكك الحديد. ويعيش بعد عودته من إنجلترا مع والديه في شقتهم في حي السيدة زينب. اختارته إدارة المستشفى لعلاج الأميرة رتيبة هانم لثقتهم الكاملة في كفاءته وعلمه الغزير. وعندما أدركت رتيبة هانم المنية لم يصدق ما حدث. قاموا باستدعائه، وهو من أعلن رسميّا خبر وفاتها. قبل الجميع خبر موت رتيبة هانم، فالأمر في النهاية في يد من بيده الأمر، وكل نفس ذائقة الموت ما عدا د. رشاد الذي ارتاب في الأمر. كشف عليها أكثر من مرة، يعرف أنها لم تكن في حالة صحية خطيرة. خرج من باب القصر وظل يدور حول المبنى وهو في حالة هياج كامل. لم يكن من النوع الذي يقبل غير المفهوم. فالعلم يمكنه أن يجلو الغامض من الأشياء. قتلته الحيرة. ما الذي يتعين عليه فعله؟ كان ما زال شابّا وخبرته في الحياة قليلة. أيجب أن يطلب طبيبا شرعيّا لتحديد أسباب الوفاة؟ قرر بعد الدورة الخامسة أن يدخل مرة جديدة للكشف عليها ثانية. استقبلته جليلة مهران وكانت هذه المرة كاللبؤة المفترسة. حتحور وقد تحولت لسخمت المتأهبة لابتلاع دماء البشرية. كان

عليها أن تبعده عن جثمان رتيبة هانم وتقربه منها في آن الوقت. ماذا تفعل؟ لجأت جليلة إلى الحل الأقرب لشخصيتها. الترويع والإرعاد. أخرجت من حنجرتها طبقة صوتها العريضة وقالت له إن قصر عابدين اتصل بها لمعرفة سبب الوفاة. وإنها أجابت أن قلب رتيبة هانم توقف إثر إصابته بأزمة مفاجئة. ثم أشارت إلى أن جلالة الملك يعتبر الهانم من أقرب الناس إلى قلبه. وأنه طلب ألا يدخل كائن من كان إلى غرفتها واتصل جلالته بشيخ الأزهر وهو في طريقه الآن إلى القصر، ومن المحتمل أن يحضر جلالته بنفسه وأن عليه المغادرة من فوره. لم يفتها القول إنها كانت بمثابة ابنة الهانم، وإنها تريد زيارته في المستشفى لاحقا لفحصها لأنها تشعر منذ فترة بمشكلة صحية في جهازها الهضمي. وانتهى الحوار بطرده من القصر بصورة مهذبة.

كانت خلال سير الدكتور رشاد حول القصر قد نهبت ما تيسر من مجوهرات رتيبة هانم، جمعت من الماس والزمرد والياقوت ما يكفيها أن تعيش ميسورة الحال، اختارت تلك الفصوص الصغيرة التي تستطيع بيعها لاحقا. ومن جبروت جليلة أن جراب الجواهر كان في حوزتها وهي تتحدث مع هذا الدخيل الذي عاد دون موعد. ابتسمت ابتسامة واسعة بعد خروج الطبيب، وامتلأت ثقة في نفسها وقدرتها على الخداع والكذب بثقة ودون تلعثم. وسكنتها طمأنينة أنها قادرة على حسن التصرف خلال الأيام القادمة.

اعترفت جارتنا العتيدة جليلة مهران لجدتي بستان بقتل رتيبة هانم مع سبق الإصرار عندما أعطتها جرعة زائدة من الدواء. ولأنها كانت في هذه اللحظة تتطهر من جرم شنيع قبل أن تلقي ربها، فكانت تحتاج إلى إيجاد بعض المبررات التي صنعها خيالها. قالت لبستان:

ـ لم تكن رتيبة هانم سعيدة في حياتها الزوجية. فارق العشرين عاما وأكثر الذي يمكن أن يتصوره البعض نعيما للمرأة من فحولة رجلها المتوقعة، كان وبالا على شعورها بأنوثتها. نعم، مرَّ أول عام عليها كالحلم وأزهرت ينابيعها، لكن وقبل انقضاء السنة الثانية انطفأ التويج وامتنع عن نشر رائحته العطرة. قالت لي الأميرة أكثر من مرة إنها تبحث عن سبب واحد يجعلها تعيش هذه الحياة. كانت رتيبة هانم قد زهدت الدنيا.

ذهبت جليلة بعد الأربعين إلى المستشفى للقاء الدكتور رشاد وادعت مرضا وهميّا، متأثرة بشخصية «أرجان» وخبراته الطويلة في هذا المجال.

ـ أنت تعلمين كيد النساء، عندما يمتلك رجل عقلنا قبل قلبنا، نعرف جيدا كيف نصنع شبكة لاصطياده. أنا صنعت ملقاطا صغيرا لكي أستمتع بعملية الصيد. كنت أريده زوجا لي، ولم أكن متعجلة. دار السجال بيني وبينه لمدة عام ونصف العام وانتهى الأمر به داخل منزلي كما خططت.

انتظرت جليلة مهران ولم تتعجل حتى تتزوج أختها أريج بإسحاق بك عبد الرحمن، وأن يكتمل بناء أخيها المهندس نهاد مهران. ثم حركت البيدق الأخير بعد الانتهاء من تشييد العمارة، وقبل دخولها شقتها في الدور الأول عزفت الألحان فرحة بالزيجة السعيدة ويدخل العروسان معا شقتهما التي تمَّ

تعميرها من أموال رتيبة هانم.

إلى هنا كان لدى جدتي شعور بأن الاعترافات وصلت إلى نهايتها، ولكنها فوجئت بأن جَعْبة أسرار جليلة ما زالت تحتوي على الكثير، وأنها سوف تظل قابعة لفترة طويلة على مقعد الاعتراف، وسوف تستكمل بستان جلسة الاستماع كاهنة قديمة تقيم جسور المودة بين الرب والإنسان.

* * *

دخلت جليلة وفي يدها فنجان قهوتها. وقفت وتوجهت نحوها لتقبيل وجنتيها فأبعدتني بيدها.

ـ لا تقبلني. أنا غاضبة. ألا تعرف أن واجبك يحتم عليك أن تزور من اعتبرتها جدتك بستان، رحمة الله على روحها الطاهرة، أختا لها؟

ـ لديك كل الحق. أعتذر.

ـ اعتذارك غير مقبول. فأنا يا حمار في مقام خالة أمك الغافلة.

ـ سوف أسعد كثيرا في الأيام القادمة بزيارتك.

ضحكت جليلة وأشارت لي أن أقترب:

ـ قبلني الآن.

قبلت وجنتيها وشممت رائحة الليمون.

ـ أختك سارة سوف تصل من باريس إلى الأقصر اليوم، وسوف تستقل القطار إلى القاهرة لتصل غدا صباحا. أريدك أن تذهب إلى المحطة في شرف انتظارها وتحملها إليّ.

كانت سارة رشاد ابنة جليلة تعيش آنذاك في باريس مع زوجها الذي يعد رسالة دكتوراه في جامعة السوربون. وقد جاءت وحدها على متن طيران مؤجر من إحدى شركات السياحة إلى الأقصر. لم يكن نهاد في مصر خلال هذه الفترة، وكان بدر ابن أريج في الإسكندرية، ولم تجد جليلة غيري للقيام بهذه المهمة. ظلت سارة الوحيدة في بنايتنا من جيلي التي تعاملت معها دائما بوصفها أختا صغرى لي. فرحت حقيقة بخبر وصولها، كما أنني كنت دائما ما أستمتع بزيارة محطة القطار. ظل هذا المكان يحمل سحرا خاصّا وكأن القاطرات تصدر موجات ضوء ربانية تحفز على الإبداع. تشكلت عبر الزمن حالة افتتان بمحطات القطار في أثناء سفرنا الدائم بستان وأمي وأنا إلى الإسكندرية متوجهين إلى ريتا فيروبولوس وعائلتها عندما كنت أتابع بشغف كل تفاصيل المكان. ثم اكتشفت سيل اللوحات والأشعار والأغاني عن عالم الوابور كما كانت بستان تطلق عليه. ظلت لوحة «مطر، بخار، سرعة» التي رسمها «جوزيف ترنر» في عام ١٨٤٤م هي لوحتي المفضلة للقطارات على الرغم من غياب البشر عن هذه اللوحة وهم الأبطال الحقيقيون للمشهد في حركة أجسادهم وهم في حالة ترقب وانتظار ولهفة ووداع. في هذه اللوحة يمر القطار مسرعا وسط مراعي ذرة تمتد إلى السماء.

كم أعشق انعكاسات جسد القطار المعدني المخيف على صفحة المياه

وسط انعكاسات الأشجار والنخيل. حياتنا انعكاس داخل مرآة زمن لم أعرف كنهه ولكن الإمساك بلحظة منه ظلَّ شاغلي، وإفلات لحظات لا أريد استرجاعها ظل حلما أصبو إليه. ولكنني هنا سوف أقدم اعترافي كاملا دون إسقاط ما أخجل منه.

وهل في المقدور أن أكتم حرفا يوم كيل الكلمات؟

وصلت إلى المحطة قبل الموعد بعشر دقائق ووصل القطار بعد موعده بساعة ونصف الساعة. أخرجت كراسة أرسم فيها بعض ذبذبات حدقة عيني، لكن ويا لغرابة الدنيا لم أرسم ما تموج به محطة القطار من بشر، ولكن رسمت جليلة مهران على مقعد الاعتراف وأمامها جدتي في زي سيدة العرش وربة القمر إيزيس. بستان التي حملتني أسرارا أثقلتني بلا قصد منها ولا وزر مني.

ما لم تكن تعرفه سارة، أو أي من سكن عمارتنا، أن سارة ليست ابنة جليلة كما هو مدون في شهادة ميلادها، كما لا تعرف أن أباها لم يمت بل قتل.

على مقعد الاعتراف أقرت جليلة قبل موتها الذي ظنته دان بصوت منكسر لأول وآخر مرة في حياتها:

لم تظهر بعد الزواج بوادر نسيم الحياة المشتركة مع رشاد كما اشتهيت. انشغل هو بعمله في المستشفى والعيادة والتدريس في قصر العيني، وانشغلت أنا بأن أكون أمّا. ولكن كما لم يطل علينا نسيم الهوى، لم تهل البشارة التي ترقبتها طويلا. حاولت ما وسعني من جهد أن أسقي نطفته داخل رحمي بدمائي ولكن الرب لم يشأ. مضى عام والثاني والرابع لم أرتح خلالهم يوما. كنت أقضي وحدي معظم وقتي في المنزل تطاردني شياطين لا أعرف من أي جحيم هبطوا. أشباح وجن انتقلوا للعيش هنا. لم يصدق زوجي حديثي فقررت في البداية ألا أبوح بسرهم لأحد. ولأنني لم أستطع أن أكتم ما في جوفي؛ ظللت أبحث عن أذن تتلقى شكواي. تعرفت خلال هذه الفترة إلى ماما رفيعة. أظن أنك يا بستان من قدمها لي. حضرت إلى هنا، وجلست أمامي كما تجلسين الآن. حكيت لها على الجن الذي أراه. لكنها قالت لي إن المنزل لا يقيم فيه جن. كدت أجن. صرخت: «وما الذي أراه إذن؟» أسرت لي بأن عفاريتي هي من تطاردني. شبح رتيبة هانم الذي أحمله في روحي هو من أراه. خرجت ماما رفيعة وتركتني وحدي. لم أجد سوى حل واحد: أن أجد خادمة طيعة من بلدنا، غبية لا تفهم سوى في تسيير البقر، أستأجر أذنها وأعتق شياطيني لأزرعهم في جمجمتها. بدأت في البحث حتى وجدت أخيرا ابنة فلاح يعمل في أرض عمي. فريال. كان عمرها خمسة عشر عاما. جاءت لي بطينها في منزل جدي. كان همي أن أتأكد من غبائها. ولقد فَذَّت جميع من عرفت في هذا المضمار. أعجبت بها وأخذتها معي إلى هنا. غسلتها كما أغسل أرض الحمام، وتأكدت من عدم وجود قمل في شعر رأسها، وحرقت ملابسها واشتريت لها جلابية وقلت لها إن مكانها هو جوار قدمي. ضمنت بذلك ألا أجن. الفضفضة ترويح عن النفس.

كنت قد نسيت نسمة الهواء التي انتظرتها من رشاد، ولكن ريحا عفنة هبت فجأة لتزكم أنفي. كانت فريال جالسة كالعادة بجوار قدمي، وكنت أحكي لها ما يطن في رأسي، ثم طلبت منها أن تعد لي كوبا من الشاي، وإذ بي ألمح استدارة مريبة في بطنها. أمسكت جسدها، قلبتها من أعلى إلى أسفل. السافلة حامل. سألتها عما جرى فقالت لي بهدوءٍ ودعة: إن زوجي ظل يعاودها كل ليلة على الأرض في المطبخ حيث تنام. فَضَّ بكارتها وطلب منها ألا تخاف فسوف يعيد لها بكارتها كما كانت قبل زفافها، وقال لها إنه لن يقذف ماءه في جوفها، وعليها أن تطمئن وتتمتع بلذة الغرام. ظلوا على هذا الحال لمدة عام. أدخل أنام ويجري زوجي ليتمسح في وسخ المطابخ. فتشت المطبخ ووجدت بعض المال. ضربتها بالعصا حتى اعترفت أن الكلب كان يعطيها نفحات مالية. كان زوجي قد سافر في منحة إلى إنجلترا لمدة ستة أشهر، ولاحظت الملعونة انقطاع الطمث ولم تعرف ماذا عليها أن تفعل فقررت الصمت والانتظار وكأن شيئا لم يحدث.

* * *

ماذا تفعل جليلة؟ فكرت كيف تخرج رابحة من المعادلة القائمة. هي أمام ثالوث كلاسيكي شبيه بثلاثيات «فرانسيس بيكون» الدموية:

صبية حامل داخل بركة دم لا تعرف مصيرها، طبيب بنظارات دائرية، جسده متشظّ، ثلث وجهه على شكل ذئب تقطر من أسنانه دماء زرقاء، وامرأة ترتدي رداء الأميرات داخل سحابة بيضاء تنظر إلى المشهد من علٍ.

كما يمكن أن تخرج «الأميرة» جليلة مهران تماما من السحابة، وتنسحب من اللوحة، وتصبح الرسام وتترك الثلث الأخير من اللوحة لطفل رضيع داخل السحابة السماوية.

وجدت جليلة أن المعادلة بسيطة: أولا لم تعد في احتياج إلى رشاد، وثانيا هي تريد أن تستحوذ على الطفل، وثالثا تبتغي عبدة تخدمها إلى الأبد بالمجان.

وهذا ما جرى.

سألت فريال سؤالا بسيطا: هل تفضلين الموت على يد والدك الذي سوف تقبض عليه الحكومة بعد ذلك وتعدمه، أم تفضلين ألا أخبر أحدا بفضيحتك وأكتب الطفل باسمي وتظلي معي تخدميننني وتخدمين طفلك؟

سؤال بسيط جاءت إجابته بنفس البساطة لتوقع فريال على صك عبوديتها إلى نهاية عمرها. اغتصب رشاد جسدها، واغتصبت جليلة حياتها كلها.

حبست جليلة نفسها في حجرتها وأعلموا الجميع أن البذرة سكنت رحمها، وأنها لا تريد رؤية أحد. مرت الشهور وهي تتابع حالة فريال الصحية، وكانت هذه هي الشهور الوحيدة في حياة الخادمة التي أكلت فيها حتى شبعت.

عاد رشاد ووجد الخادمة حاملا وجليلة تتابع غذاءها بنفسها، وعلم من زوجته بالاتفاق، ولكن ما لم يعرفه أن خطة قتله قد تمت كتابتها برفق وعناية.

جاءت سارة على يد أبيها ليؤكد الجميع أنها الخالق الناطق أمها جليلة.

ويتابع الأب صحة ابنته حتى أتمت عامها الأول. وهنا قررت جليلة أنها اكتفت من وجود هذه الحشرة الدائرية المسماه برشاد، وبدأت خطتها:

مع كل كوب ماء يشربه كانت جليلة تضيف القليل من ماء الكلور. كوبا بعد آخر، ويوما بعد يوم، وأسبوعا بعد أسبوع. بدأت آلام لا تطاق في المعدة. ومع اكتشاف الطبيب ثقوب في جهازه الهضمي كانت الحالة قد وصلت إلى مرحلة حرجة أدت إلى وفاته بعد هزيمة يونية بأسبوع واحد. وخرجت لوحة جليلة الفنية مبهرة وكاملة كما خططت.

وعرفت وأنا ما زلت صبيّا أن الشر بحق موجود في هذا العالم.

* * *

وصل القطار بعد أن أتممت لوحة «تموت السادية عندما تقضي الماسوشية نحبها». مقعد ملقى بجوار شجرة هزيلة. حبات برتقال متناثرة بين الفروع، رجال في عز الفتوة والقوة والجمال يقفون حول المقعد. تجلس جليلة على شكل الإله «ياما» إله الموت الهندوسي وهي في حالة افتتان من صبوة الشباب الذين جاءوا لإغواءها وفي يدها تمسك سوطا قبضته من الجلد الكستنائي. يحتويها ذات المقعد الذي أجلس عليه الآن لأعترف أمامكم بألوان أوراق شجرة حياتي. وعلى الأرض بجانب الشجرة تستلقي امراة بائسة تتلقى ضربة السوط في استسلام. المرأتان مربوطتان برباط السوط. الأولى تقرع، والثانية تتلقى الغرزة.

* * *

خرجت أخيرا سارة من القطار محملة بالحقائب. أخذتها بالأحضان، وهجم علينا عدد من حاملي الحقائب فاخترت الأكثر ضعفا منهم؛ ظنا مني أن فرصته هي الأقل وسط هؤلاء الوحوش. حضرت سارة إلى مصر لترتيب منزل الزوجية قبل عودتهم لمدة عام سوف يجري خلالها زوجها البحث الميداني الذي يحتاجه لإعداد رسالته. طلبت مني أن نتجه أولا إلى منزلها لتضع حقائبها. ثم نتوجه إلى أمها.

* * *

رنَّ الهاتف في الثانية صباحا بينما كنت ألتهم أطباق الأرز باللبن مع الملائكة. استيقظت مذعورا. صوت سارة مشروخ ومحطم. طلبت مني أن أذهب إلى منزلها من فوري. لم أطرح عليها سؤالا. خرجت من فمي ذبذبات ناعسة: أنا قادم حالا.

* * *

بعدما تركتها عند أمها، ظلت الابنة بجانب جليلة حتى نعست. في طريقها إلى الخروج، دخلت المطبخ فوجدت فريال في أسمالها البالية ترتعش على بلاط المطبخ، ورائحة بول تملأ المكان. كان الوقت شتاء. والبرد يسري في أوصال الأشياء. كانت فريال قد عاشت عمرها كله ترتدي جلبابا خفيفا على اللحم. تأكل من فضلات سيدتها إذا تبقى منها شيئا. عاشت سارة حياتها مع خادمتها على هذا الحال. ماذا جرى وجعل سارة تنظر إلى الأمر باعتباره أمرا

غريبا؟ ربما الحياة الباريسية التي جعلتها أكثر رأفة بالعبيد، ربما السن، ربما الأمومة. لا أعرف، ولكن المهم أن قلب سارة قد رقَّ لمنظر فريال. أيقظتها من النوم وحملتها في تاكسي إلى منزلها. أدخلتها الحمام. ودعكت جسدها العاري بالصابون. كانت سارة ولأول مرة ترى حقيقة وجه فريال؛ تلك المرأة التي عاشت بجوارها دون أن تنظر فعلا إلى ما وراء ملامحها العامة، كما كانت تلك أول مرة تستحم فريال بمياه ساخنة في حياتها البائسة. تمهلت سارة وهي تنظف كل جزء من جسد من لا تعرف أنها أمها. أعطتها ملابس داخلية جديدة كانت قد اشترتها من باريس، وألبستها فستانا جميلا من فساتينها. كانت فريال لا تدري من أمرها شيئا. تعاني سكرات الموت، بعدها يهبط من حيث لا ندري زمن حلاوة الروح. حالة التيقظ المبهرة قبل الموت. أدركت أنها لا ترتدي جلبابها التاريخي. وأنها ليست في منزلها. صرخت في وجه ابنتها أنها يجب أن تعود حالا إلى سيدتها فربما تستيقظ ولا تجدها. أرادت أن ترتدي جلبابها المهلهل، طمأنتها سارة أنها سوف تقول لأمها إنها هي التي أخذتها عنوة. أصرت فريال على الرحيل فورا فهي لا تستطيع ترك سيدتها وحدها في المنزل. صرخت في وجه ابنتها:

ـ ماذا لو طلبت سيدتي كوب ماء؟

ـ أمي نائمة. لا تقلقي.

ـ لا أستطيع تركها وحدها. خذيني إليها حالا.

ثم وضعت رأسها على صدر سارة وتركت هذه الحياة.

* * *

عندما وصلت كانت سارة في حالة انهيار نفسي كامل. طلبت مني أن أحمل جثمان فريال بناء على وصيتها وأعيدها إلى منزلها. انهرت جالسا على أقرب مقعد. جثمان فريال مسجى أمامي وسارة تنوح. لست حانوتيّا لأتعامل مع الموت بهذه البساطة. قدسية الرحيل تمنعني حتى من الاقتراب من الجثمان. كان يجب أن أتماسك. ولكن هل يقبل الجسد أوامر عقلنا الواعي؟ حاولت التملص، ولكن أين المفر من عناد هذه المرأة؟ حملت الجثمان. كانت فريال خفيفة كالريشة. يمكن لأوزيريس ألا يكتفي بقلبها لوضعه في ميزان العدل، فليضع جسدها كله ولسوف تسقط كفة الريشة في الميزان. نظرت إلى وجه فريال الضارب إلى زرقة دكناء، كم تشبهها سارة. كيف لا ترى الشبه؟ فكرت لوهلة أن أقول لسارة الحقيقة.

لكن ما الفائدة؟

لا شيء.

العجيب أن سيدتها الجبارة جليلة مهران التي أذاقت عبدتها كل أنواع الذل والهوان عمرها كله، لم تتحمل هي الأخرى غيابها.

لم يمرّ أسبوع إلا ودخلت جليلة في حالة جنون مطبق.

صرخات غير مفهومة تمزق حبات الهواء.

فقدت بسرعة علاقتها بالمكان والزمان، وأصبحت أستيقظ في كل ليلة على

أنين وعويل. ماتت جليلة بعد عامين من فقدها كل علاقة مع الواقع وابنتها في باريس. لم تستطع سارة الحضور؛ لأن ابنها كان يخضع في نفس اليوم لعملية جراحية بسيطة في مستشفى بيتيه سالبيتريار.

* * *

عاهرات مبرة ريري الخيرية

قابلت الموت. صافحني فصافحته. وعندما سلخت يدي عن يديه، واجهني ملاك الموت بعينيه البغيضتين وبحلق في وجهي باستهانة القادرين، ثم أزاح وجهه عني وبدأ في مهمته بنشاط يحسد عليه لمن هم في مثل سنه. ظل يرجرج جنبات الجسد بجبروته اللين لمدة قاربت الساعة ظننتها أنا دهرا.

كانت أيادينا تتلامس.

أنا في محاولة مستميتة لإيقاف رعشة الجسد، وهو يرفع من وتر الرعشة حتى قارب الجسد على الانتفاض خارج الزمن.

كان حضور ملاك الموت غادرا ومباهتا وذا رائحة نفاذة.

رائحة لا يمكن شمها بحاسة الشم، وإنما هي رائحة تطبق على الروح فتعتصرها عصرا.

بعد انقضاء الأزل انتصر عزرائيل. انتصر كعادته وقبض على روحه ورحل بها وتركه لنا بلا حراك.

ظلت يدي، غير المصدقة، ثابتة على الجثمان تبحث عن ملمس يد عزرائيل لدفعها بعيدا. مسام كفي في حالة توهج حارق من لحظات التماس مع يده الملساء. الرجاء والأمل، لحظة البحث عن الكف الخفية التي كان تزلزل كيانه، تلاشى كل ذلك بفعل الصوت النحاسي البارد للطبيب ذي السماعة الطبية والبطارية الصغيرة للكشف عن قاع العين:

ـ البقاء لله.

على الرغم من قسوة زلزلة الجسد التي كانت، فإن حركة الطبيب الأخيرة وهي تدفع باستهانة وتعالٍ وتلقائية فظة رأسه للكشف عن قاع عينه كانت كفيلة بأن أشعر بأن يد عزرائيل المخادعة كانت أكثر رحمة من يد ذلك الطبيب.

فالموت أشرف من الاستهانة.

غسل الطبيب يديه بمادة كيميائية ورحل.

ظللت مع الجسد المسجى أفكر في إجراءات الدفن، وأبحث عن موطئ يستقر فيه حزني المحيطي داخل روحي في جلال، وأتساءل: لماذا غسل الطبيب يديه بكل هذه الهمة؟

بعد وفاة جدي يوسف مراد كاظم أدركت السبب.

يترك ملاك الموت على جسد كل من لامسه أثرا من الصعب محوه.

خلعت ملابسي وهي تعج بروح عزرائيل، ودخلت تحت الدش لكشط آثار مخالبه عن جلدي، ولكي أنزع رائحته من روحي. ولكن هيهات. أدركت وبعد ساعات من المحاولة أن ملابسي يجب حرقها، أما جسدي وروحي فعليهما أن يعتادا مرافقة الحضور الجليل للحقيقة المقدسة المسماة الموت.

* * *

قصدت إلى دارنا وفود لا تنتهي من العاهرات لتقديم واجب العزاء حتى ظننت أن نقابة العاهرات الدولية قد أرسلت أمرا رئاسيّا لجميع من يعمل في المهنة بضرورة الحضور شخصيّا، والامتناع عن التعزية تلغرافيّا. كن جميعهن يرتدين السواد وبدت عليهن أمارات الحزن الصادقة، أما ريري فقد كانت أكثرهن غمّا وكمدا. جلست بجواري وهي تبكي بحرقة.

قالت لي:

تعلم منه كيف تكون أميرا متوجا. كان يسير -رحمة الله عليه- كالطاووس، يرتدي أبهى الحلل. كانت رائحته تملأ الحياة بأنفاس من الجنة. عاش سلطانا ومات إمبراطورا، أسلم روحه في فراشه بين أهله وأحبابه. ربنا امنحنا هذه الميتة يا أعلم العالمين بالحال وأحْسِنْ خاتَمتَنا.

لم أفهم قطّ مدى تعلقنا بالطريقة التي يموت بها الإنسان. مات على فراشه أو في المستشفى أو سائرا على قدميه، ما الفارق؟ الأهم أنه لم يعد بيننا وأصبح في مكان آخر.

ـ اللهم آمين.

ـ هل عرق جبينه وهو يسلم روحه؟

ـ نعم، عرق جبينه.

ـ الله أكبر. قال رسول الله صلعم: «موت المؤمن بعرق الجبين».

سألتني أمي عن هذه الجحافل من النساء، فتأملت جمال السقف والزخارف الخشبية بين الحيطان ولم أنبس بحرف.

انتهى مولد الموت ودخلنا في أقذر التجارب الإنسانية قاطبة: قضية الميراث والسؤال عما ترك جدي يوسف، ثم انتظار جنس المولود وهل سوف يأتي ولدا، أم بنتا؟

ووجدت ريري أمامي تعرض عليَّ ما كانت تعرضه من بضاعة لجدي يوسف، ومن خلالها اكتشفت أن لديه شقة كان قد اشتراها لقضاء وقته الليلي في مجالس أنس.

تعجبت ريري أنني لا أعرف شيئا عن هذه الشقة، واتفقت معي على أنها سوف تصحبني في اليوم التالي وفاجأتني بأن لديها كذلك مفتاحا إضافيّا.

سألتها إذا كانت سوسن تعرف عن هذا المكان شيئا، ضحكت قائلة إنها كانت تعيش معه في هذه الشقة.

أصبحت في موقف حرج، فسوسن تعرف إذن أن لها دارا تنتقل إليها ولكنها تصر على ألا تترك المنزل. وعندما واجهتها قالت لي إن يوسف طلب منها في حالة رحيله عن الدنيا أن تصرَّ على الحياة مع عايدة وبرلنتة؛ فلم يكن يريد أن يتربى ابنه أو ابنته بعيدا عن عائلته.

استمرَّ دعاء سوسن ليل نهار أن يكون ولدا يستطيع فرض قوة نوعه على الجميع. لكن لم يستمع الرب لدعاء الأم، وجاءت ياسمين إلى العالم وخطط

لطردها هي وأمها من شقتنا على قدم وساق.

لم يكن أمامي في مواجهة هذه الدسائس التي تحاك ضد امرأة شبه أمية وطفلة لم تبلغ شهرا من عمرها سوى الهروب من هذا الجحيم، ونقل عدة الرسم إلى شقة جدي يوسف السرية لأقضي فيها معظم وقتي.

واستسلمت لحضور ريري في حياتي.

الشقة كائنة في واحدة من البنايات الكبيرة ذات المدخلين الشرقي والغربي. تلك البنايات التي تمَّ إنشاؤها في العقد الرابع من القرن العشرين، وتم احتلال معظم شققها من الأطباء، حتى أصبح مدخل البناية متخما بعشرات اللافتات التي تشير إلى اسم الطبيب ومكان عيادته. صخب بصري ثقيل على الروح خصوصا أن كل لافتة لها حجم وشكل مختلفان. مات معظم الأطباء الذي استأجروا شقق هذه العمارة وقد فرض معظمهم بالقهر أو المحبة دراسة الطب على أبنائهم، واضطر هؤلاء الأبناء المقهورون على أمرهم أن يرثوا العيادات ويستكملوا بالغصب ما بدأه آباؤهم. نشم هذا الميراث الثقيل من اللافتات المكتوب عليها اسم الأب واسم الابن الذي تخصص في نفس التخصص الطبي لأبيه. ولم يستطع الابن أن يخلع لافتة أبيه المتوفي وظلت اللافتتان متلاحمتين كتوأم متلاصق. كان أحد هؤلاء الأطباء من جيل الآباء صديقا حميما لجدي يوسف، وقد أصاب الحظ أبناء هذا الطبيب فلم يأتوا إلى الدنيا من الأصل حتى لا يتعرضوا للقهر والعنف الأبوي من أجل الالتحاق بكلية الطب. من حسن طالعهم أن هذا الطبيب لم يتزوج حتى سمي براهب الطب.

بعد أن تعرض هذا الراهب لأزمة صحية حادة عرض على صديقه أن يشتري الشقة حتى لا تتلوث جنباتها بطبيب مغمور يقضي على شرف المكان الذي احترم على يديه قسم «إمحوتب»، واشترط عليه ألا يرفع من على الحائط صورة إحدى البرديات الطبية المصرية التي تعتني بمعرفة الأعشاب ويعود تاريخها إلى حوالي عام ١٥٥٠ قبل الميلاد. يعدها البعض أول بردية كتبت في تاريخ البَشرية. ومن سخريات القدر، أو من مآسي العالم وقذارته الذي نعيش فيه أنها مسماه اليوم على اسم من اشتراها بماله من طيبة في الربع الثالث من القرن التاسع عشر وهو السيد «إبيرس». عالم مقزز.

كانت ريري في منتهى الجدية وهي تطلب مني ألا ألمس صورة هذه البردية. وعلى نفس الحائط علق جدي يوسف صورة زيتية كبيرة لجدتي بستان كان قد رسمها لها «روسي»، هذا الرسام السكندري الإيطالي الرائع الذي رسم حيطان فيلا «فيروبولوس» في هانوفيل.

لم يغير يوسف من تصميم العيادة، ظلت حجرة استقبال المرضى كما تركها الطبيب، ما زالت أعداد مجلات الكواكب وصباح الخير مرصوصة على المائدة التي تتوسط صالة انتظار المرضى، ومكتب التمرجي المعدني ما زال يحوي الكراسات الخاصة بأسماء المرضى. اكتفى جدي يوسف بشراء أثاث حجرتي نوم، وترك مكتب الطبيب لم يغير فيه شيئا حتى إنه لم يكلف خاطره ويرفع

اللافتة بجوار باب الشقة الخارجي المدون عليها بخط كوفي جميل «دكتور أوزوريس مجدي عادل أمراض نساء وولادة». يظل أجمل ما في هذه العيادة هو وجود حجرة كبيرة بها حوض مياه. مساحة نموذجية لمرسمي. ومنذ دخلت هذه الشقة اعتبرت أن هذه الحجرة صممت من أجلي وأرسلت، بناء على هذا، خطاب شكر إلى المعماري الذي لا أعرف له اسما وللدكتور أوزوريس على عنوان مثواه الأخير.

ضاعت تفاصيل الأيام وظلت معي ليلة زارتني فيها ريري مع جوقة كاملة من العازفات على الناي الحزين. ليلة من ألف ليلة فيها شهريار وقد تجمعت حوله جميع الذبيحات. ازدحمت شقة يوسف مراد كاظم فكان يوما كيوم الحشر.

كنت أقف أمام الحوض أغسل فرشاتي وأزيل عنها اللون القرمزي. طرقات على زجاج الباب الخارجي بأظافر نسائية صاغت نغمة موسيقية راقصة. فتحت الباب لأجد ريري أمامي وقد جاشت من خلفها الفسحة، كما يجيش القدر بما فيه، بعدد كبير من النساء حتى وقفت بعضهن على سلالم العمارة. نظرت وجوه مقتضبة، بحثت عن ابتسامة باهتة فلم أجد. يا ستار يا رب. دفعت ريري الباب بكفها الدقيقة وخطت إلى الداخل ووراءها هذا الحشد المعطر الحزين. زخمت الشقة بالروائح الرخيصة التي امتزجت بعرق تلك النساء. لمحت فتاة فارعة الطول حسنة الملامح تتساقط دموعها غزيرة في صمت وسط وجه صلد، وتمسك بيدها فتاة أخرى تسند قوامها. هناك مصاب جلل. طلبت ريري من البنات أن يجلسن في حجرة الاستقبال وأخذتني من يدي ودخلنا المرسم.

في ليلة حلمت بمحيط هادر وأنا في مركب صغير تتلاطمه أمواج عاتية. كنت وحيدة في هذا القارب أرتعش من البرد، ثم استمعت إلى استغاثة. رأيت امرأة شابة تقاوم دوامة تسحب جسدها إلى أسفل. مددت المجداف الخشبي فأمسكت به الفتاة واستطاعت أن تتسلق حتى اقتربت مني فشددتها وأدخلتها داخل القارب، ثم لمحت امرأة ثانية تواجه الموت وحدها وسط المحيط، فثالثة وعاشرة. استطعنا إنقاذ كل تلك النسوة من ملاقاة حتفهن. هذا الحلم غيَّر مجرى حياتي بالكامل. أدركت أن دوري في الحياة هو بناء هذا القارب ليكون مركز الأمان للغرقى.

عملت ريري في مجال الدعارة لفترة قصيرة، ثم باتت مغناطيسا يجذب إليها المذمومات والمقصيات من النساء من «جنة» المجتمع. كل فتاة لها قصة أغرب من الأخرى، ولكنهن يتشابهن في تعرضهن للجور من مجتمع ظالم. أجَّرت شقة واسعة ضمت فيها من لجأ إليها. ثم أتت بفكرة وجدتها نيرة. أليس تعريف الدعارة هو بيع خدمات جنسية في مقابل أجر مادي؟ فإذا ألغينا الأجر المادي انتفت صفة الدعارة، وتصبح المسألة تقديم خدمات ترفيهية دون مقابل.

«ولأننا نقدم السبت والأحد؛ فلا مانع من تلقي خدمات إنسانية غير مادية».

تحولت شقة ريري إلى مبرة خيرية تلتزم بسلسلة من القوانين والقواعد،

وعلى جميع الفتيات الالتزام بها. ممنوع أن تبادر فتاة وتذهب إلى شخص دون ترتيب من ريري، ممنوع أن يقترب رجل من منزلهم، ممنوع قبول أي أموال مهما كانت المغريات، إلى آخره من سلسلة من الممنوعات. كما كانت لهذه القبيلة احتياجات أساسية من رعاية طبية وحماية وغيرهما من الاحتياجات. وكان الحل هو تكوين شبكة من الأصدقاء ومن المتعاطفين معهن. من ضمن دائرة الأصحاب كان دكتور أوزوريس الذي قدم لهن رعاية طبية مجانية، وجدي يوسف الذي كان يرسل إليهن الأرز والسمن والعسل إلى المنزل. ومع مرور الزمن تطورت المبرة، وتخرجت نساء في جمعية ريري للالتحاق بالمقبول اجتماعيّا، والتحق غيرهن بالمبرة. مات من مات من شبكة الأصدقاء ودخل غيرهم، واستطاعت ريري في النهاية إدارة الدفة والخوض وسط الموج العاتي في سلام. لكن موجة الأمس كانت أعلى من المعتاد وأكثر ملوحة.

ـ بالأمس قبضت إدارة الآداب بالداخلية على «سها»، وأبلغني صديق أنهم ينتوون الهجوم على شقتنا الليلة. ولأن المصائب لا تأتي فرادى فقد اكتشفت ريم أنها حامل على الرغم من الاحتياطات الأمنية كافة. كان دكتور أوزوريس -رحمة الله عليه- هو من كان يجري عمليات الإجهاض، وبعده دكتور هجرس الذي هاجر إلى كندا. فأمامنا كارثتان يجب حلهما من فورنا.

ريري من نوع النساء اللاتي يتحدثن بكل حواسهن، تتحرك كل عضلة في جسدها وكأن الحروف تخرج من مسام بدنها. تأخذ عيناها الضيقتان شكل دائرتين فوقهما قوسان يثيران حالة دهشة مضحكة. لم أعرف إذا كانت بالفعل تتصور أنني يمكن أن أساعدها.

ـ أريد أن أقدم لك يد المساعدة، ولكنني لا أعرف طبيبا ولا ضابطا.

ـ أعرف بالتأكيد. أنا أحتاج لشخص في مثل عمر والدك. ما أطلبه منك هو أن نظل هنا إلى أن نعرف رأسنا من أقدامنا مع بوليس الآداب، وسوف أنزل حالا للاتفاق مع طبيب لإجراء عملية الإجهاض.

تركتنا ريري وخرجت أنا للجلوس في حجرة الصالون. ديك البرابر وسط لوحة فسيفساء لآلهات الإلهام الفني. التفت حولي آلهات الفنون والجمال والبؤس. كنت بينهم أبولو يمسك بفرشاة وألوان. جلست بجوار ريم التي كانت ما تزال تبكي. قلت لها بثقة من لا يعرف شيئا إن الإجهاض مسألة بسيطة تجرى يوميّا آلاف المرات، وعندما وجدتها جِدَّ متجهمة بادرتها بنكتة قديمة لعلها تبتسم: «خرج الطفل من بطن أمه وهو يضحك بصوت عالٍ وكفه مضمومة وعندما فتح الطبيب أصابعه وجد حبوب منع الحمل». ضحكت أخيرا وسألتني عن أحوال سوسن.

لم أفهم قطّ وجود إدارة كاملة من ضباط الأمن للقبض على هؤلاء البائسات. أفهم القانون المطبق في بعض البلدان بتجريم شراء الخدمات الجنسية وإباحة بيع هذه الخدمة. فمن يشترِ ويدفع فهو المجرم، الرجل هو الجاني في هذه الحالة بالتأكيد، ومن تبعْ جسدها فهي المجنيّ عليها. نحن في

هذا البلد «الآمن» نطارد المجني عليهن. تأملت وجوهن. جدارية من ملامح تشتعل أحاسيسها بشتى الانفعالات. صعدت من رماد الجمر أعمال العظام دييجو ريفيرا وجوزيه كليمنت أوروزكو وديفيد ألفارو سيكيروس وروفينو تمايو الذين أبدعوا الحركة الجدارية في المكسيك. أنارت روحي وجوه عمال المكسيك المكدسة المقهورة والمتأهبة للحشد والزحف من أجل انتصار الحركة العمالية المنتظر. كانت هذه أكبر لوحة رسمتها في حياتي: صورت وجوه نساء متهيئة للصراخ، وجوه متلاصقة متلاحمة، كتلة واحدة من الإصرار والعزم على أمل ملامسة جسد العدل الغائب.

الأمر الحزين أن المبرة لم تصمد طويلا أمام ضربات الأمن، والأكثر حزنا أنني لم أستطع الدفاع عن سوسن أمام جبروت خالتي وتابعتها أمي.

اغفر لي يا غفار.

* * *

مقتل الأراجوز من الرجل الغوريلا
وإصابة شيخ البلد من فحيح امرأة

جاءني صوت أمي المحبوب: يا شهاب.

خرجت إلى الصالون لأجدها تجلس مع ماما رفيعة.

لم أكن قد رأيت خريستيانا منذ فترة طويلة.

طلبت منها الحضور لتسألها عن الوظيفة التي أفكر أن أتقدم للحصول عليها.

أمر جديد في بلدنا أن يطلبوا لمن يريد التقدم لشغل وظيفة أن يرسل سيرته الذاتية وخطته في العمل. لا أعرف من استجلب هذه الأفكار الغريبة. منذ آلاف السنوات والمسئول يختار من ضمن رعاياه ما يرى سيادته أنه الشخص المناسب. بالتأكيد سموه سوف يختار في نهاية الأمر من يريد، ولكنني أسأل عن هذا الشكل الجديد بفتح باب التقدم. أمر عجيب. ربما جاء بند من بنود الاتفاقيات الدولية التي نضطر أحيانا للتوقيع عليها مع جهات خارجية. يفرض علينا مثل هذه الأمور والله هو الأعلم. لست واثقا من قراري بالعمل في وظيفة. إدارة متحف فني يمكن أن يكون قرارا أستطيع من خلاله أن أنفع شباب التشكيليين وأنتقل إلى الحياة في الإسكندرية أحد أحلام الصبا مع أفروديت. ما أعرفه بالتأكيد أنني أحتاج إلى تغيير يقتلع أركاني، إلى فيل إفريقي ضخم يهز بخرطومه جذع الشجرة فتهرب الشياطين من مكامنها. أحتاج إلى رفرفة أذنيَّ لأغير من درجة حرارة جسدي. هل إدارة متحف يمكنها أن تحل محلَّ الفيل؟

كانت أمي غير راضية. كررت بصوتها الدمث:

ـ يا بنيَّ.. لا تتمرغ أبدًا في وحل العمل العام. سوف تغرز بقدميك في مستنقع حدد إطاره قانونيون كان دورهم الوحيد إبداع بقعة مياه راكدة لإعاقة العمل، أعلنوا أن الوحل الذي أبدعوه هو لمحاربة الفساد والحق أنه لتشجيع هذا الفساد. أطلق ساقيك للريح واهرب من الملاريا المستوطنة في المستنقعات مأوى الطحالب والبعوض وافرد شراعك واهرب من الدسائس.

عندما انتهى قراري لتقديم أوراقي لشغل وظيفة مدير متحف في الإسكندرية اعترفت لأمي وبحت لها بما عزمت فعله. لم تنم المسكينة ليلتها. قالت لي: «إن الموظفين مجرمون محترفون يمكنهم إن ساءت علاقتهم بك لأي سبب أن يرموا بك في السجن، فإن كيدهم عظيم». كان معنى حصولي على الوظيفة بالنسبة إليها هو غيابي الكامل عن القاهرة وهو ما لم تكن تتحمله. لم تصل قطّ عايدة إلى سن الرشد، ظلت الصبية الشقية المشتاقة دوما إلى الحماية والضحك والمرح. لكم كنت صادقا يا لطيف عندما قلت لي إنها أول ابنة أرزق بها. وعندما وجدت أبوابي مغلقة لم يكن أمامها إلا أن تسأل من تثق بها ثقة عمياء: ماما رفيعة.

* * *

كانت عايدة تعد القهوة كما كانت تفعل بستان، وتستمع لما تقوله العرافة العجوز. جلست بجوار ماما رفيعة. لم تتغير على الرغم من تقدمها في العمر. مشدود جلد وجهها الأسمر على إطار من العظم الناتئ، ربما أصبحت أقصر قليلا. هل يا ترى من كثرة ما انحنت للنزول داخل المقابر؟

حكت لي جدتي بستان أنها عندما بلغت السادسة عشرة من عمرها تقدم للزواج منها ابن عمها بولس. فرحت جدتها وأبلغت القس الذي بارك الزيجة. انتحت خريستيانا ببولس وقالت له إن قبل أن يفكر في الزواج بها فعليه أن يعرف بعض الحقائق. أعطته موعدا في ظهر اليوم التالي على تخوم الصحراء. جلسا تحت ظل شجرة وارفة. وقالت له:

ـ يا بولس أنت من دمي ومصلحتك تهمني. يجب أن أصارحك بأشياء من الصعب تصديقها، ولكن عليك أن تصدقني دون سؤال.

ـ تكلمي وثقي بأنني أعرف أنك إذا تكلمت صدقت.

ـ إذا تزوجنا فسوف تفقد بصرك بعد شهرين من تاريخ الزواج. سوف أتدبر أنا مصاريف الحياة. هل تقبل أن تفقد البصر؟

ـ أكملي حديثك.

ـ سوف نرزق بولدين؛ نطلق على الأول اسم إبراهيم، وعلى الثاني إسحاق.

ـ أقبل أن أفقد بصري من أجلك.

ـ وسوف تموت بعد عشرين عاما من زواجنا.

ـ الأعمار بيد الرب.

ـ لك أن تعلم أيضا أنني سوف أختفي أحيانا لفترات قصيرة. كما سوف أتركك في معظم الليالي وممنوع عليك أن تسأل.

ـ أسوف تكونين وفية لزوجك؟

ـ بالتأكيد.

ـ وسوف أكون كذلك وفيّا لك.

ـ لن نستطيع الزواج قبل عام من الآن. أمامك هذه المدة لتتدبر وتقرر.

ـ موافق.

ـ لن نعيش هنا. سوف نسافر بعد زواجنا إلى القاهرة، وهناك سوف نقيم في منطقة البساتين.

ـ أسوف نسكن في المدافن؟

ـ نعم.

كررت عليه بعد مرور عام ما سوف يحدث له من مصائب، لكنه أصرَّ على الزواج بها قال لها إنها سوف تكون نور عينيه. قبَّلت يديه وأكدت له أنها سوف تخدمه في السراء والضراء، وطلبت منه أن يعلن بعد الزواج انتقالهما للحياة في القاهرة.

اجتمع في كنيسة العذراء الأهل والأحباب وكانت السعادة ترفرف على الجميع. صلى الكاهن من أجلهما كثيرا، وتمنى أن يكون الزواج مرحلة براقة تنير طريقها في خدمة الحق.

سافرا بعد الزواج بثلاثة أيام إلى القاهرة. وجدا حجرة صغيرة وسط المقابر في البساتين. استيقظ بولس من نومه بعد مرور شهرين فاقد البصر. آمن بولس حينها بقدراتها وقال لها: يا ابنة الحلال.. أنا سوف أخدمك طوال حياتي فأنت ممن منحهم الرب السر الدفين، وعلى يديك سوف تتحقق المعجزات. في اليوم التالي تركت خريستيانا بولس وهو نائم وذهبت إلى قبر فتحت بابه، وهبطت للنوم مع من رحلوا عن دنيانا. ظلت هذه عادتها تقضي مع بولس ليلة في الأسبوع، وباقي الأيام الستة تنام تحت الأرض تحاور الجان.

* * *

ربتت على كتفي وقالت لي إنني لن أحصل على هذه الوظيفة، وهذا لحسن طالعي. أنارت ابتسامة وجه عايدة وكأنها حصلت على كأس الخلود.

قلت لها إن هناك لقاء مع المسئولين بعد أيام ثلاثة، فردت ماما رفيعة ردّا قصيرا: حظ سعيد إن شاء الله. وسوف يتحول هذا الاجتماع إلى لوحة على جدار.

* * *

جلست على مائدة بيضاوية. جسدها أصفر، مغطاة بزجاج سميك. داخل غرفة حيطانها خضراء مرصعة بلوحات مبهجة مصرية الرائحة. شدت نظري لوحة كبيرة لشيخ البلد على حماره وهو يمسك بشمسية كبيرة، وحوله تجري الكلاب. ومن خلفه رسم الفنان أبراج حمام عملاقة.

ارتفعت فوقي قبة عالية التف حولها هواء قادم من فتحات المشربية التي تقع خلفي؛ مما أعطى للحجرة شعورا مريحا. ومن فتحات المشربية انساب صوت بائع التين الشوكي ينادي على بضاعته من بعيد، ومع غناء المنادي تسربت إلى أنفي رائحة التين فشعرت بغصة جوع تقرص معدتي.

يبدو أنني حضرت مبكرا. على الرغم من العناية التي أوليتها لاختيار البدلة، واهتمامي ألا تكون ضيقة أكثر من اللازم، أو كبيرة أكثر من اللازم، فإنني شعرت فجأة أنها تطبق على أنفاسي وكأنني تضخمت على حين غرة. كيف لي أن أتضخم وأنا لم أفطر صباحا، ولم أتغدَّ ظهرا؟ بدأت كفي تنز بحبيبات عرق غبية. قبضت على مقبض المقعد الذي أجلس عليه ومسحت عرق كفي في جلده الناعم. تسربت برودة الجلد إلى مسامي، فتوقف النز قليلا. حاولت أن أضبط مشاعري المضطربة؛ فاختياري متوقف على هذا الاجتماع. نعم، مرت أوراقي بسلاسة من مستوى إلى آخر لتعييني مديرا لمتحف في الإسكندرية، إلا أن هذا الاجتماع هو الفيصل.

لماذا اختاروا هذا المكان تحديدا للقاء المرشحين للوظيفة؟ لا أعرف.

كانت أمامي مباشرة لوحة لأراجوز يطل من نافذة وأمامه اصطف صبية يرتدون ألوانا زاهية، ويفترشون ساحة في قرية مجهولة. كان أحد الصبية

يرتدي طاقية مرتفعة قليلا للتشبه بالأراجوز الذي يفتخر بطاقيته العالية ذات اللون الأرجواني.

لا أعرف بمن سوف ألتقي اليوم. أجريت مقابلة واحدة مع رجل خمسيني عن الوظيفة الشاغرة، كنت أعرفه منذ فترة طويلة. هل سوف يكون في مقابلة اليوم؟ كم منهم سوف يأتي للقاء؟ بدأت أعد عدد الكراسي، واحد، أربعة. سبعة. لاحظت أن الأراجوز يحرك طاقيته يمينا ويسارا. ربما يكون قد أصدر أيضا صوتا. وعندما نظرت إليه، عاد إلى سكونه.

يبدو أنني جننت من التوتر.

انفتح الباب ودخل عليَّ ثلاثة رجال وسيدتان.

خمسة في عين اللي ما يصلي على حضرة النبي.

انجذب نظري بشكل تلقائي إلى أحدهم. هذه التلقائية التي أتحدث عنها نتجت عن حجم الكتلة الخرسانية التي يشكلها جسده. وقفت ومددت يدي. سلم عليَّ الجميع. وجاءت جلسة الرجل الغوريلا أمامي، وإلى جانبه جلست امرأة قصيرة، صغيرة الحجم، محجبة بحجاب لونه لون طاقية الأراجوز.

نظر لي الرجل الغوريلا وبدأ الحديث بجملة ترحيب تقليدية سحبت الأكسجين من الحجرة حتى شعرت أنني سوف أموت من فوري بإسفكسيا الخنق. كانت عيناه على شكل دائرتين عملاقتين، بياضهما شاهق، وفي وسط كل دائرة بقعة سوداء صغيرة ملقاة في هذا الخضم الأبيض، بقعة ميتة تماما. تعرفون بالتأكيد هذا الموت الناصع الذي يمنح الإيحاء بالغباء المطلق. وحول الدائرتين وجه قُدَّ من مجموعة عظمية تليق بأعظم الحيوانات صلابة. مرتاح هذا الوجه ببلادة على رقبة تنفر فيها عروق ثلاثة أحصنة إنجليزية من أصول منحطة، وتخرج من هذه الرقبة أكتاف دائرية تمت صناعتها في أفخر أنواع صالات الجمنيزيوم.

لم أستطع في البداية أن أرفع عيني عن كتلته الصماء المحاطة ببلوفر رمادي ضيق.

كيف يمكن أن يكون هناك رجل في هذا العصر ينتمي هكذا إلى إنسان الغاب؟

وعندما بدأ حديثه معي عن الفنون البصرية، تساءلت: كيف يمكن أن يجتمع في إنسان واحد كل الصفات التي أمقتها في الإنسانية؟

هو بلطجي. بالتأكيد.

يكره كل ما يتعلق بالمشاعر الإنسانية. لا شك عندي في ذلك.

يعشق العنف ويفطر صباحا ثلاث سلاسل حديدية مرشوش عليها بودرة العفريت. هذا أمر مفروغ منه.

ما لي أنا واللقاء بمحارب أقرب إلى البهيمية منه إلى الجنس الذي أنتمي إليه؟

بدأت أبحث عن هواء أتنفسه دون جدوى. انخفض معدل الأكسجين في

جسدي لدرجات خطيرة. شاهدت عزرائيل يقترب مني.
بدأ الأراجوز يرقص ثانية.
وبدأ الصبية يضحكون من حركات الأراجوز.
ابتسمت الغوريلا فظهرت أسنانها التي تستلقي على فك ذئب. مدت يدها لتمسك بأوراق مكتوب عليها سيرة حياتي. بدأت أتهاوى.
قبضت على عيني بيد مستميتة؛ لعلي أتمكن من أن أحول نظري عنه.
صرخ الطفل الذي يرتدي طاقية مرتفعة عندما لكزه آخر فاستطعت حينها، وقبل أن أموت مباشرة، أن أحرك وجهي يمينا قليلا.
تجرعت جرعة هواء أنقذت حياتي.
كانت المرأة صغيرة الحجم تبتسم لي. عيناها المضمومتان حازتا في العام الماضي لقب الأكثر خبثا. نظرت إليَّ وأصدرت فحيحا دار حول القبة التي تعلونا.
طارت الحمائم فزعة، فضحكت الغوريلا ضحكة أسقطت شيخ البلد من على حماره، ونبحت الكلاب التي تجري في الحقول.
كيف يمكن أن تكون لهذه المرأة علاقة بالفن، أي فن؟
ماذا أفعل هنا؟
هؤلاء يجب أن يعملوا في عصابة داخل هيئة مالية، أو البورصة، أو واحدة من هذه الهيئات التي يعمل فيها الوحوش والقتلة ومصاصو الدماء.
وقف شيخ البلد بصعوبة بالغة وركب حمارته وبدأ في السير، لكن شمسيته كانت قد تحطمت للأبد. جذبني الرجل الوحش من وجهي بعنف وهو يسألني عن سطر في سيرتي الذاتية.
هو يقرأ إذن؟ يا للغرابة.
لكن سؤاله قتل الأراجوز.
فقفزت فوق المائدة وجريت خارج حجرة الاجتماعات لا ألوي على شيء.
* * *

ضحى تسكن في الجناح الشرقي
في صراط الضمير الإنساني

كان وجهها عابسا جهما، جَمَّدَ ملامحها الصلدة سريان الدماء في عروقي.
قلت لها:
أعرف أن الطبيب لا يمتلك دواء لكل داء. نعرف معا أن الاكتئاب علاجه طويل ولا توجد عصا سحرية في مجال الاعتلال النفسي، ولكننا في أشد الاحتياج إلى مِقْذَاف ينقذنا من الدوران في نفس الدوامة. مقذاف يساعدك على الخروج من المنزل ولو مرة في الأسبوع. من يعرف، أليس بالإمكان أن نستمع منه إلى جملة يستضيء بها العقل؟
لم ترد.
ظل وجهها على صلابته المعتادة وكأن ملامحها قد ثبتت على وضعية التجهم.
لم أستطع على الرغم من مرور خمسة أعوام أن آلف هذا الوجه. في كل مرة عندما يختنق الهواء الدائر من فرط حزنها البادي يموت في روحي شيء ما. ولكنها اليوم كانت قد ارتدت ملابس الخروج علامة الموافقة على الذهاب هذه المرة إلى الطبيب النفسي الذي ظللت أجاهد فترة طويلة لإقناعها بالذهاب إليه.
مَرَّ عشرون عاما على زواجي من ضحى. مروا بالسرعة التي نعرفها جميعنا عن العجلة غير المفهومة لهذا المجهول المدعو الزمن. سرق هذا الوغد حياتنا كما يفعل عادة وهو يدفع بكرتنا الأرضية للدوران في الدوامة دون أن تجد كرتنا المسكينة مقذافا تخرجها عن مدارها. تسبح الأرض لمسافة تتعدى مليونين ونصف مليون كيلومتر في اليوم الواحد، وأسبح مسافة تتخطى ما تعومه أرضنا في الفضاء لأستطيع رسم بسمة على وجه ضحى ولا أستطيع. انزلقت ضحى في حالة رفض للابتسام وللكلام، تباشر بصعوبة أحوال محب المدرسية، اعتادت في بداية مرضها أن تطبخ له ما يحب، ثم بعد مضي عام طلبت وجود طباخ في المنزل لأنها لم تعد تريد الدخول إلى المطبخ. فقدت بالتدريج كل رغبة في أداء أي عمل. أعلنت خالتي برلنتة بحزم أنها محسودة لجمالها الباهر، والحل أن نبحث عن الحاسد، ثم تتلو خالتي بصوتها الذي أصبح أقرب إلى صوت الرجال من كثرة ما نفثت من دخان السجائر قوله تعالى: «ومن شر النفاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد».
قررت أمي أن منزلنا في الدقي مسكون، وما بزوجتي من اكتئاب ما هو إلا من عمل الجان. الحل الوحيد أن نغير العتبة. أمام إصرار أمي من ناحية ثم اقتناعنا جميعا بأن شقتنا يعيش فيها بالفعل جان أو روح هائمة، خصوصا بعد ظهور عدد من العلامات، انتقلنا إلى شقة جديدة. لكن يبدو أن الجن لم يستطع فراقنا؛ لأن حالة ضحى لم تتحسن.

مع تفاقم الاكتئاب، زادت أعداد الحبوب الحمراء والخضراء والزرقاء التي تبتلعها ضحى كل يوم، وتحول الجن إلى غول أسر روح زوجتي، وخطَّ الحدود وبنى الحيطان والأبواب، وأخذ معه مفاتيحها.

ومما زاد الطين بلة أن حبيبة قلبي ضحى شخصية غير مرنة. برنامج اليوم الذي تحدد محطاته سلفا من الصعب أن تحيد عنه. ولو وجدت مانعا يمنعها من التقدم في يومها لاضطربت أحوالها. في أحد الأيام البعيدة وقبل زواجنا كنت أوصلها بعربتي إلى المنزل، وكان بحوزتي مبلغ خمسمائة جنيه، وحينها كان هذا المبلغ كبيرا ولم أكن أريد الصعود إلى شقتي لألحق بموعد. سألتها أن أترك معها خمسمائة الجنيه فوافقت. قمت بعدّ أوراق البنكنوت أمامها حتى أتأكد من القيمة، وأعطيتها المبلغ وشكرتها. انشغلت بعدها لمدة يومين وفي اليوم الثالث وأنا عائد مساء إلى داري وجدتها كعادتها تتسامر مع أمي في صالون شقتنا، ورأيت حقيبتها مفتوحة وبداخلها مبلغ مالي كبير فطلبت منها أن تعيد إليَّ خمسمائة الجنيه فردت قائلة إنها سوف تصعد إلى شقتها وتحضر لي المبلغ.

قلت لها:

ـ أليس معك في حقيبتك ما يكفي

ـ في حقيبتي ألف جنيه، ولكن ليس معي المبلغ الذي أعطيتني إياه. سوف أصعد حالا وأعود إليكم.

لم أفهم ما تقول.

ـ لِمَ تصعدين وتعودين؟ أعطني خمسمائة جنيه من حقيبتك. أتحتاجين هذا المبلغ الآن؟

ـ لا أحتاجه بالتأكيد. سوف أنام مباشرة بعد أن أترككم. ولكنك لا تفهم. مالك ليس معي في حقيبتي.

ـ هي نفس أوراق البنكنوت. أنا لم أكتب اسمي عليها. عندما تعطيني هذا المبلغ من حقيبتك يصبح ما أعطيتك إياه ملكا لك.

استمرَّ بيننا حوار عقيم ولم نصل إلى حل. صممت في النهاية على أن تصعد وتعطيني نفس الأوراق المالية التي كانت بحوزتي.

كيف لم أربط آنذاك ما كان بما سوف يكون؟

كنت صغيرا في السن، ولم أفكر في طبيعة المادة الخام التي تشكل هذه الذهنية غير المرنة، كان يجب أن أدرك أنها مادة معرضة بالتأكيد لحالة اكتئاب.

هذا الوعي الأخلاقي الحاد يبدو جميلا ومحترما ورائعا، ولكنه يعبر عن شخصية باترة وحزينة.

كل واحد فينا يقف على نقطة من الصراط الطويل الذي يشكله الضمير الإنساني. رسمت لوحتي «ضحى تسكن في الجناح الشرقي في صراط الضمير الإنساني»، وأنا أتخيل هذا الصراط. تراءى لي أن طول الصراط مائة

مبنى. لونت كل مبنى بلون مختلف. من يُقمْ في العمارة رقم واحد تعد علاقته بالعالم الأخلاقي محدودة للغاية، يمكن أن نقول: شبه منعدمة، ومن يقمْ في المبنى رقم ١٠٠ يكن الممثل الإلهي للالتزام الأخلاقي، الضمير الحي المتجسد على الأرض. كل واحد فينا يقيم في أحد أرقام شارع الالتزام الأخلاقي. لا شك أن ضحى أقامت دائما في البناية رقم مائة، وهؤلاء لو تعلمون يجدون صعوبة بالغة في التعامل مع عالم يقيم معظمه بعيدًا جدا عن هذا الرقم. رسمت في كل مبنى نوافذ يطل من واحد منها وجه صغير. وضعت كل من أعرفهم في عمارة بناء على تقييمي لموقفه الأخلاقي. كانت لعبة طريفة أن أسكن كل معارفي في صراط الضمير الإنساني. أما وجه ضحى فقد احتل البناية رقم مائة كلها.

* * *

كانت العيادة نظيفة وصغيرة في إحدى البنايات المخصصة بالكامل للأطباء، من جيل عيادات القرن الحادي والعشرين التي تختلف تماما عن شقة جدي يوسف. ما يسمى بمنطق اليوم «برجًا طبيًّا». لافتة واحدة في المدخل بها قائمة بأسماء الأطباء وأرقام عياداتهم. يجلس شاب خلف مكتب صغير لتسهيل مهمة السائل. وصلنا في الموعد ولم ننتظر سوى دقيقة واحدة ودخلنا إلى مكتب الطبيب. رجل في الأربعين من العمر عاش معظم حياته في إنجلترا، وعاد بعد أن ألحت عليه زوجته وأعلنت العصيان المدني. وجهه بشوش وصوته عذب. طلب الطبيب مزيدا من الوقت للرحيل معها عبر الزمن لاستكشاف ما مضى وفات. وبدأت ضحى تحكي بصعوبة.

ولدت زوجتي ضحى في ألمانيا من أب مصري وأم بافارية. سافر أبوها «يونس عبد الحميد» إلى برلين في عام ١٩٣٩م للعمل في إذاعة باللغة العربية تذيع أخبارا دعائية للنظام النازي ترسل عبر الأثير برامج وأخبارا رسالتُها الإعلامية بسيطة: « يريد الألمان لكم يا عرب الخير على عكس ما يحوكه لكم الإنجليز والفرنسيون الذين احتلوا بلادكم وسفكوا دماء أبنائكم ونهبوا ثرواتكم». والدها الشيخ يونس عبد الحميد من قرية «جزيرة شندويل» في سوهاج، سافر شابّا ليلتحق بالأزهر الشريف. عمل بعد تخرجه في الإذاعة المصرية مع شركة ماركوني. تميز صوته بالعذوبة والنقاء حتى أصبح من المستمعين من ينتظرون صوته الرقراق يطل عليهم من المذياع. كره الشيخ يونس الإنجليز من صميم قلبه كمعظم المصريين وطالب بصريح العبارة بالاستقلال التام أو الموت الزؤام. وتطبيقا لمبدأ «عدو عدوي صديقي» دعا الله أن ينصر الألمان ويذيق الإنجليز شر هزيمة، وأن تنزلق الجزر البريطانية في أعماق بحار الشمال ليختفي هذا الجنس بلا رجعة.

مع بدء الاستعداد للحرب، تلقى دبلوماسي ألماني، يعمل في القاهرة سرّا، أمرا من برلين بالبحث عن شخص يمكنه العمل في إذاعة برلين العربية. بعد بحث وتَقَصّ وقع اختياره على الشيخ يونس عبد الحميد الذي كان يعيش وحيدا في القاهرة بعد أن توفيت زوجته وهي حامل. قابل الدبلوماسي الشيخ وأشاد بطلاوة صوته وعرض عليه العمل في العاصمة

الألمانية. اعتبر الشيخ يونس أن العرض جاءه من الله مباشرة ليخرج من حالة الكمد التي تهيمن على أيامه ولياليه بعد فراق زوجته، وموت هذا الابن الذي طالما حلم بحضوره، واعتبر سفره للخارج فرصة ليطيب وتتحسن حالته النفسية.

وصل إلى برلين في نهاية الربيع قبل اندلاع الحرب بأسابيع قليلة. قابل المسئولين وتعرف على عراقي وسوري يعملان في نفس الإذاعة. حصل على شقة صغيرة ولم تمرّ سوى ستة أشهر إلا وكان قد تزوج دارسة ألمانية للغة العربية. لم تدم الزيجة إلا سنوات ثلاثا أنجبا خلالها ولدين، ثم رحلت الزوجة بأولادها. مرت سنوات الحرب ولم يفكر الشيخ يونس في العودة إلى مصر.

في خضم المراجعات والمحاكم بعد انتهاء الحرب لم يلتفت إليه أحد؛ سافر إلى ميونيخ وعمل هناك في مجال الزراعة عملا بالمثل الشعبي «من فات قديمه تاه». كانت ألمانيا تحتاج إلى سواعد وفرص العمل متاحة للجميع بعد وفاة أقل قليلا من خمسة ملايين ألماني معظمهم من الرجال. تزوج يونس فلاحة بافارية مات زوجها الأول وأبناؤها جميعا في أثناء الحرب وأنجبا ضحى. صمم الشيخ السوهاجي تسمية ابنته بحرف الضاد وطرب بحرف الحاء الذي لن يستطيع نطقه سوى أبناء جنسه. حكت لي ضحى أن أباها كان عصبي المزاج تحملته أمها المسكينة بعد أن قررت إنها سوف تحتفظ بهذا الرجل إلى النهاية مهما كان الثمن.

لم يتحدث الأب مع ابنته منذ مولدها سوى باللغة المصرية، وبدأ معها مشروع دراسة اللغة العربية منذ أتمت عامها الأول. اعتبر إجادة ابنته للغته هي انتصاره على حالة الغربة التي اختارها لنفسه.

أما ضحى فقد أعلنت في نهاية عامها الثاني أن هذه الدروس واجب ثقيل، وبعناد الأطفال رفضت الحديث بالمصرية رفضا باتّا. ووقفت أمام غضب أبيها وصراخه بإرادة صلبة.

ـ لم أنطق كلمة عربية إلا عندما ألحت عليَّ أمي ورجتني أن أتحدث معه بلغته وإلا سوف يُجن. أتذكر تماما هذا اليوم، كنت في غرفة نومي ودخلت أمي واحتضنتني حتى احتوتني داخلها وقالت لي إنها واثقة بأنني أستطيع الحديث بالمصرية ثم قبلتني وسألتني إذا كنت أحبها. فلم أجب فأكملت: لو تحبينني فحدثيه بلغته والحياة بعد هذا اليوم سوف تختلف. بعد هذا اليوم بنحو شهر تحدثت معه باللغة التي يريدني الحديث بها معه.

لم تتحدث ضحى قطُّ عن أبيها بحب. تقص علينا حكاياته وكأنها تحكي لنا طرائف أستاذ قام بتدريس مادة ثقيلة الظل لها في الصف الثالث.

ـ كان هذا الرجل فارع الطول. جذع نخل خلع جذره من طمي ضفاف النيل وسار بعيدا، وعندما سعى لزرع جذره هناك لفظته الأراضي البافارية فظل هائما حتى اعتبرني وأنا ما زلت طفلة جذره المنشود.

كنت أتعجب عندما تقول: «هذا الرجل». أقول لها: هذا الرجل أبوك. ولم تكن

ترد. اهتم الطبيب النفسي كثيرا بعلاقتها بوالدها، وكنت آمل في ظهور حل من السماء لمرض الاكتئاب الذي كانت تعاني منه.

ظل أبوها بلا كلل يدرسها كل يوم النحو والصرف ويقرأ لها المنفلوطي، وفي أحد الأيام استيقظت من النوم ووجدت أباها يستمع إلى الراديو ويبكي بحرقة، ثم دخل حجرته وتناول مئة حبة منوم ونام إلى الأبد. كان هذا اليوم هو السابع من يونية من عام الهزيمة المدوية ولم تكن ضحى قد أتمت الثامنة من عمرها.

ـ لم أكن حتى هذا اليوم أتحدث جيدا العربية. كان هناك شيء ما بداخلي يمارس الشكاسة. لكن ولغرابة النفس البشرية التي فشلنا حتى الآن في فك طلاسمها، قررت بعد موت الرجل الطويل أن أسترجع كل حرف حاول أن أعيه بوجداني.

ظلت ضحى، داخل قريتها الريفية البافارية، تتعلم وحدها لغة أبيها التي لا يعرف عنها أي ساكن في القرية حرفا واحدا. مدت أصابعها وتلقفت من الهواء أصواتا بعيدة كرجع صوت سكن في ذبذبات المكان، وظلت تنهل من نبع سقى قطرات مياهه الشيخ يونس قطرة بعد قطرة. اجترت نبرات صوته التي ظلت في روحها مع شعور ذنب لم يرحل عنها. بعد أن أنهت دراسة الأدب المقارن، قفزت بجسارة وإقدام فوق الجبال والأنهار والمتوسط وهبطت على القاهرة في زيارة هي الأولى لها لدراسة جادة للغة العربية، وهنا جمعنا هذا القدر الذي يختبأ عادة وراء الغيوم ليتجلى في أحد الأيام من عليائه.

في الدور الثالث من عمارة المنيرة شقتان يملكهما المهندس نهاد مهران. شقة يسكنها مع عائلته وشقة مغلقة كانت النية أن يفتتح فيها مكتبه المعماري ولكنه لم يستغلها قطُّ وظلت مرتعا لأنواع الزواحف كافة. ومع أزمة السكن واختفاء ظاهرة الإيجار وهيمنة عالم المقاولات على النظام السياسي قرر نهاد مهران أن يؤجر شقته بالدولار للأجانب لفترات قصيرة لا تتعدى أشهرا قليلة حتى لا يدخل في متاهات قانونية، ويستطيع التهرب من الضرائب. وتكون ضحى يونس عبد الحميد السوهاجي أول ساكنة في هذه الشقة.

* * *

كان في بنصري الأيمن حينها دبلة محفور في باطنها اسم ناريمان، رنت زغاريد الخطوبة في أرجاء البناية عاما قبل حلول ضحى على أرض المعز لدين الله. وبسبب نهاد مهران الذي اختار دون البشر أجمعين من سوف يخفق لها قلبي فسخت الخطوبة مع ابنته، وتزوجت ضحى بعد عام من دخولها الشقة في الدور الثالث.

في هذا اليوم تحديدا، يوم وصول ضحى إلى عمارتنا، لم أكن موجودا في القاهرة. عدت من الإسكندرية بعد عشرة أيام من هذا التاريخ. وصلت ليلا. فتحت باب الشقة. وجدت أمي جالسة بقميص نوم مع امرأة لا أعرفها. لم أرَ أمي من قبلُ تجلس مع غريب بملابس النوم. ما هذه الحميمية؟ ومن تكون

تلك الأجنبية؟ لم ترث ضحى من أبيها سوى اسمها الذي يحمل حرف الضاد، عدا هذا كانت ملامحها مغرقة في عالم بافاريا الشمالي. قالت لي لاحقا إنها تشبه تماما جدتها لأمها. قوية البنية، فارعة العود، زرقاء عيونها وشعرها الأشقر المسترسل يصل إلى منتصف ظهرها. أسنانها القوية تنفخ الفم عريضا، تبدو على استعداد لقضم النجوم. كيف لي أن أتخيل أن ينكمش هذا الجسد ويتضاءل حتى يصبح ليمونة معصورة وسط فضاء خاوٍ؟

راعني في بداية معرفتي بها كيف تتصرف مع جميع أبناء الحي. كانت تتعامل مع الجميع بنفس القدر من الود والانفتاح دون اعتبار لفارق طبقي أو جنسي. زيد مثل عبيد. دعت على الغذاء العجلاتي الذي كان يؤجر لها دراجة هندية بائسة بسعر تصورته رخيصا، وكان يصلح لها الدراجة كل يوم بسبب حالتها السيئة؛ الأمر الذي تخيلت بعقلها البافاري أنه عمل استثنائي، فأرادت أن تعبر له عن امتنانها بدعوته إلى الطعام في منزلها. عرفت بالصدفة ساعة واحدة قبل الموعد عن أمر هذه الدعوة، فسألتها بأدب إذا كانت لديها إمكانية أن تدعوني أنا الآخر لأن ليس لديَّ ما آكله اليوم، فرحبت وأنقذتها دون أن تعلم بمحاولة تحرش أكيدة. فسيد العجلاتي الذي أعرفه حق المعرفة وأعرف أباه وأخاه، لم يكن من الممكن إلا أن يفهم سببا واحدا للدعوة. كان اجتماع ثلاثتنا والحوار الذي دار أكثر سريالية مما يمكن أن تحلم به جماعة الفن والحرية. تتبعت ملامح العجلاتي وهو يفكر كيف يمكنه أن يخرج ظافرا بأي مصلحة مالية بعد أن تبخرت أحلامه الجنسية بوجودي الثقيل.

دخلت ضحى المطبخ فسألني:

ـ هل يمكن يا ترى أن تساعدني ضحى في استيراد دراجات من ألمانيا؟

ـ أنت لا تملك ما يمكنه من استيراد زجاجة هواء من البلاستيك من المنوفية.

ـ البركة في الآنسة ضحى، يمكنها أن تدفع ثمن الاستيراد وسوف تربح كثيرا من بيع الدراجات هنا.

جلسنا حول مائدة طعام، ذات مفرش أزرق، جزر متفرقة دون جسور ممكنة، كل يتحدث لغة لا علاقة لها بلغة الآخر، وضحى المسكينة تتخيل أننا جميعا نتحدث المصرية.

كانت قطع الأثاث هي الأخرى جزرا متناثرة وسط محيط الشقة. اصطاد نهاد مهران كل قطعة من مكان مختلف لتجميع ما أطلق عليه فرشا للشقة حتى يتمكن من تأجيرها. جلست فوق مقعد خشبي مزدان بنقوش أرابيسك كانت في منزل أخته أريج، وجلس العجلاتي فوق مقعد من طراز لويس الخامس عشر لا أعرف مصدره، والمقعد الثالث كان بريطاني الروح وجده نهاد في سوق الجمعة في إمبابة. ثم شرح لضحى أن جمع الشامي على المغربي داخل وحدة فنية فتح جديد في عالم التصميم الداخلي. لم يكن الأمر سوى سلاطة لا طعم لها ولا روح.

حرصت على أن أحكي للطبيب حكاية ظلت معي منذ بداية معرفتي بضحى

لعل فيها فائدة.

دعوتها لزيارة حديقة الأسماك، رحبت بالفكرة وتحدثنا في طريقنا إلى حي الزمالك عن العلاقة بين الحرية وانتشار الحدائق العامة في المدن. لم أجد أحدا عند وصولنا يقف على بوابة الحديقة، لم أجد كذلك الموظف المسئول عن بيع التذاكر. أمر غريب. وقفنا قليلا ثم دخلنا الحديقة. عرفت من كهل يجلس على أريكة أن هناك عراكا أدى لتدخل موظفي الحديقة. شرحت لضحى أن هناك تذكرة للدخول ولكن الموظف غير موجود. أكون قد ضحكت ربما أو ابتسمت من فكرة أننا دخلنا دون شراء التذكرة؛ وقفت ضحى ورفضت التقدم خطوة إضافية. صممت أن نعود إلى البوابة وننتظر حتى نشتري التذاكر أو نرحل. حاولت أن أقنعها بأن سعر التذكرة منخفض للغاية ولن يسبب سعر التذكرتين عجزا في ميزانية الحديقة، إلا أنها رفضت تماما أي حوار في هذا الموضوع. قلت لها إننا سوف ندفع بعد أن ننتهي من الزيارة. لكنها أصرت على أن نعود من فورنا.

يا سيدتي لا أحد يمكنه أن يسألنا عن التذاكر. دعينا نتفرج على هذا البستان الجميل.

المسألة أخلاقية لا علاقة لها بالخطر من سؤال.

دعينا ندفع عندما نخرج.

ـ وكيف نتمتع بالفرجة ونحن لم نلتزم بالقواعد؟

ـ يا سيدتي الفاضلة لا أحد يهتم بالتذكرة.

ـ ولماذا هناك تذاكر إذا لم تكن مهمة لإدارة الحديقة؟

حاولت المستحيل أن نستكمل سيرنا. لكن لا أمل. عدنا إلى البوابة وانتظرنا مدة من الزمن حتى عاد الموظف المسئول عن بيع التذاكر، واشترينا تذكرتين ودخلنا. وهنا تعجبت ضحى من أن تكون هناك تذكرة لدخول حديقة عامة وتساءلت: كيف تكون عامة إذن؟

في نهاية الزيارة ابتسمت لي ابتسامة أنارت حياتي. أظن أنني قررت أن أتزوجها في هذه اللحظة. لم تكن ضحى تبتسم إلا نادرا، لكنها عندما ينفرج ثغرها يسطع ضوء يبعث على البهجة والحبور.

كارثتي أنها منحت مادتها الخشبية هذه، هذا التيار الكهربائي غير المفهوم في كيمياء المخ، إلى ابننا محب الذي قلما يبتسم هو الآخر؛ يقيم مثل أمه في العمارة رقم مائة من أبنية الضمير الإنساني.

أندمت يا ترى على أنني تزوجت امرأة قابلة للاكتئاب؟

لم أندم. لأنني كلما نظرت في أجمل وجوه الأرض قاطبة ثم فجأة تنير ابتسامته روحي قلت: هنيئا لكم يا من تسكنون في البناية مائة فأنتم من تجعلون للدنيا قبلة يأمل الكثيرون الوصول إليها.

* * *

عرض عام لسوق النخاسة في مستشفى حكومي

سرداب في مستشفى الولادة طويل. يرتدي رجل طويل القامة بصورة هزلية سترة سوداء في نهاية السرداب، وعلى رأسه تلوح طاقية بيضاء. تشي وقفته بسلطة يمارسها على طابور النساء الواقف أمامه. تناثرت كالنجوم السوداء وسط الفضاء داخل السرداب عشرون امرأة يرتدين جلابيب ريفية تراوحت درجات ألوانها بين الأسود والفيراني، تميل امرأة منهن إلى اليسار قليلا في وسط الطابور المنضبط، تجلس الأخيرة على الأرض منهكة وملامح وجهها تكسرت من ألم يعصرها. سكن مقطف من خوص فوق رأس امرأة مكتنزة، تظهر خطوط لونية خارجة من جسد القفة، لكن الناظر لن يعرف ماذا وضعت هذه المرأة في القفة. تسلط اللوحة الضوء على امرأة بعينها. جبهتها عريضة، حاجبها مرسوم، كحل أزرق يحيط بعينيها، تتدلى شفتها السفلى لتبرز اكتناز أحمر اللون، فوقها الشفة العليا رفيعة. المسافة بين الأنف والفم أكثر اتساعا من المعتاد، وفي الوسط أخدود عميق على جانبيه ضفتان بارزتان. ترتدي سوارا حول رسغها من البلاستيك الأخضر. تضع وشاحا أزرق على رأسها، ومن عينيها يطل غضب ساطع وبجوارها تنظر لها بإعجاب امرأتان. في وسط السرداب وقف رجال شرطة يقبضون على سلاسل تلتف حول أعناق كلاب شرسة، بينما يمسك تمرجي المستشفى بحبل يدور حول رقبة خروف هزيل. وفي الناحية الأخرى البعيدة تظهر نساء من علية القوم. من الواضح أن مقاول الأنفار ذا الطاقية البيضاء يخرج الفقيرات من اللوحة، بينما يدخل الجنود وكلابهم المفترسة نساء شقراوات يرتدين ملابس على قدر من الأناقة.

* * *

رسمت لوحة «سوق النخاسة» في ليلة زيارة الهانم إلى جناح النساء والتوليد في مستشفى المازني. كلفني وزير الصحة بصورة ودية وغير رسمية بتزيين هذا الجناح. كنت التقيته في عشاء لدى سفير هولندا، وأعرب عن إعجابه بفني فشكرته على مجاملته الرقيقة وأنا أعلم أن علاقته بالفن التشكيلي كعلاقة ليزا دي أنطونماريا المعروفة باسم الموناليزا باللغة السواحيلية. تبادلنا أرقام الهواتف وكنت على ثقة بأن خطوط حياتينا لن تتقاطع مرة أخرى، لكن على عكس توقعي اتصل بي الوزير بعد شهر من لقائنا قائلا لي إنه يحتاجني في خدمة جليلة. أنا -في الحقيقة- لا أحب تقديم خدمات لذوي السلطة، ومن ينسى جزاء «سنمار» باني قصر الخورنق؟ أعلمني الوزير أن الهانم سوف تزور مستشفى وهو يأمل أن أضع في أروقتها لوحات تشكيلية، وأن أضيف بعض لمسات فنية تمنح المبنى مسحة من جمال. وعندما استفسرت عن ماهية هذه الهانم أدرك أنني لست أحد رعايا المملكة المصرية، ولكنه على الرغم من ذلك ردَّ على سؤالي بلطف قائلا إنها السيدة الفاضلة زوجة رئيس الجمهورية. حاولت التملص قدر استطاعتي ولكنه ساق لي الحجج وحلف بأغلظ الأيمان وضيق

عليَّ الخناق وانتهى الأمر بموافقتي. أرسل لي السيد الوزير سيارة أوصلتني إلى المستشفى. ذهبت فاتر الروح لا أمتلك الجزم البات لفعل شيء له قيمة، ولكن رؤيتي للأمهات وللنساء المريضات ألهبت إحساسي. لا يهم سيادة وزير الصحة أو السيدة زوجة السيد، ولكن مسحة من الجمال لهؤلاء الجميلات كفيلة بأن تدخل البهجة في قلوبهن.

حال مستشفى المازني كانت لا تسر عدوًّا فما بالكم بالحبيب. جناح النساء سراديب قاتمة تليق بسجن من سجون القرون الوسطى، أما الرائحة فكانت خانقة. لم يكن أمامي سوى أسبوعين لتحويل هذا المكان المعتم ذي الحيطان ذات اللون العفني إلى موقع بهيج. حصلت من الوزير على سلطات مطلقة للوصول إلى حالة لونية تليق بعيون الهانم. كانت الأوامر واضحة أن هذه السلطات المخولة لي لا تتضمن تغيير أو تبديل أساسات كالأرضيات والحيطان وخلافه، ولكن المطلوب هو عمل تعديلات خارجية على القائم. عدنا إلى القاعدة المقدسة «الشكل دون الجوهر». لا مانع. بدأت العمل بدهان الحيطان وتقشير الأرضيات واختيار اللوحات التي سوف يتم تعليقها. ومع تقدم العمل كان شعور بالارتياح يغمرني وأنا أرى نظرات الإعجاب تطل من عيون المريضات.

جاء اليوم المرتقب، اتصل بي وزير الصحة لكي يتفقد معي الجناح قبل وصول السيدة حرم السيد بقرابة الساعات الست. انتظرته في حجرة المدير، وصل الوزير وفي فلكه يهرول عشرة من الأطباء في منظر تعيس، كما أحاط أيضا بسيادته عشرة من رجال الأمن، ومع هذا الجمع كان هناك رجلان من مكتبه. صافحني الوزير بحرارة مصطنعة وطلب من مدير المستشفى أن نتجه من فورنا إلى جناح النساء.

سار الرجل مسرعا فرحا كطفل برجال الأمن والأطباء الذين ظلوا يتقافزون في محاولاتهم لإحاطته خوفا على سلامته الغالية. وصلنا إلى بداية الرواق الطويل الذي علّقت على حيطانه لوحات تشكيلية كبيرة الحجم.

اقترب الوزير من إحدى اللوحات وسألني:

ـ هل هناك لوحات لفنانين عالميين؟

سألته:

ـ وما معنى عالميين؟

ـ غير مصريين.

ـ نعم، هناك لوحة لفنان سوري.

ـ لا أقصد سوريّا. أقصد عالميّا.

ـ لا أفهم. أتسأل عن فنانين أوربيين مثلا؟

ـ مثلا.

ـ لا، كل اللوحات المعروضة لفنانين عرب أصدقاء، فقد تفضلوا بإقراضي لوحاتهم لمدة يومين على ضمانتي الشخصية.

ـ يجب أن يكونوا ممتنين لهذه الفرصة، فالهانم سوف ترى ما يرسمون.

لم أرد.
أبدى سيادته علامات الارتياح وشكرني بجزيل العبارات، ولكن فجأة تغضنت ملامح معاليه عندما شاهد سحنة المريضات وملابسهن المهترئة. نادى على مدير المستشفى وسأله:
هل هناك مرضى في المستشفى أنظف حالا من هؤلاء؟
لم يفهم المدير جيدا السؤال، فثار الوزير وهاج، وقال إن الهانم سوف يتعكر ولا شك مزاجها إذا رأت هذه الأشكال.
ـ وما شكل هؤلاء؟
كان سؤالي بريئا تماما. فرد الوزير قائلا:
ـ ألا ترى الفقر يقفز من ملامحهن؟
ثم أمر سيادته بتغيير المرضى فورا، وإحضار مريضات حالهن أسعد من هؤلاء النسوة البائسات.
عرفت أن جهدي راح هدرا.
ولأنه لم يكن لي أي حمص في هذا المولد، كما لم يكن لي سلطة ولا بأس، فقررت أن أجلس في هدوء وأشاهد ما سوف يجري عسى أن أتعلم ألا أحشر أنفي بعد ذلك أبدا مع من يمسك في يده أي صولجان.
حرك الوزير سبابته، هُرِعَ إليه أحد العمالقة المهرولين حوله. همس له الوزير قائلا:
ـ تصرف بسرعة. انقل هؤلاء إلى أي جناح آخر، وأحضر نساء جميلات.
ـ هل أتصل بشركة تي إم زد؟
ـ لا بأس. لا بأس.
كان أكثر ما يهمني في حقيقة الأمر أن أطمئن على اللوحات التي أخذتها، وكان عليَّ إعادتها في اليوم التالي.
ظللت جالسا أحرس اللوحات، وأتابع طرد المريضات من الجناح المخصص لهن حتى تمَّ إخلاؤه تماما. ثم دخل رجال أشداء بمزهريات بديعة، وبعد ثلاث ساعات لاح من بعيد طابور من سيدات شقراوات؛ بعضهن يرتدين شعرا مستعارا؛ والبعض الآخر دهن شعره بلون أصفر عجيب، ولكن لغير المدقق يبدو في العموم أن منظر طابور النساء كان مقبولا وأن الهانم لن تتضرر كثيرا من مرأى هؤلاء.

* * *

انتهت المأساة على خير واستعدت ما اقترضته وأعدته لأصحابه. صحيح أنني لم أغنم ولكنني خرجت سالما. والأهم أنني رسمت «عرضا عاما لسوق النخاسة في مستشفى حكومي»، ومن يومها وأنا أشعر أنني أحد من يقف في هذا السوق في انتظار أن يشتريني أحد السادة ليلقي بي ربما في ساحة الفناء.

* * *

الملاك ميخائيل يداعب فيرونا وبونا تتابع من بعيد

كنت في التاسعة صباحا أبحث خلف سينما الأمير عن الشارع، حتى وجدت أخيرا هذا العنوان الزئبقي الذي حاول عبثا أن يفلت مني. تقع شقة «بونا» في الدور الأرضي في شارع جانبي، أو ما نطلق عليه الأرضي المرتفع. دخلت البناية. صعدت سبع درجات. كان باب الشقة على اليسار مفتوحا على مصراعيه. عرفت بعدها أن باب شقتهم لا يغلق من السابعة صباحا حتى الثانية صباحا، أو بعد هذا التوقيت لو كانت واحدة منهن ما زالت مستيقظة. حجرة الطعام تلتهم الصالة في مدخل الشقة، وعلى يمين الداخل حجرة نوم مفتوح بابها تنام فيها الجدة الإيطالية العجوز «فيرونا» التي ينتظرون وفاتها منذ سنوات ولكنها صامدة. تتسرب من حجرتها رائحة مطهرات شبيهة بالرائحة المثيرة للغثيان للدوائر الحكومية «النظيفة». تقع بعدها حجرة نوم «بونا»، وتشاركها الغرفة خالتها المريضة، وعلى اليسار أمام حجرة الجدة غرفة الجلوس وتليها صومعة نوم «ماريا».

الحيطان تكسوها صور قديمة. تحتل صورة زوج «فيرونا» أو جد «بونا» الصدارة وهو يرتدي سترة سوداء وقميصا أبيض دون ياقة ويمسك في يده اليمنى بقفازات بيضاء. نموذج للأناقة. تليها في الحجم صورة زفاف «ماريا» على «مصطفى حسن» والد بونا وهي تحتضن باقة من الورد الأبيض ويقف «مصطفى» ضخم الجثة خلفها وهو يبتسم ابتسامة مشرقة، وحولهما صور من كل الأحجام لأفراد العائلة وصور الزفاف الرسمية لعدد كبير من الزيجات.

يرى الداخل إلى الشقة في مواجهته صليب خشبي كبير معلق على الحائط، وإلى جواره سورة الكرسي. تترنح في الشقة عشرات القطط الرضيعة وتقفز القطط السمينة من شرفة حجرة الجلوس إلى الشارع، وتقفز قطط أخرى من الشارع إلى داخل الشقة.

تعاملت معي «ماريا» باعتبارها تعرفني منذ سنوات طويلة. سألتني ببساطة بمجرد دخولي بصوت مرتفع:

ـ أهلا يا شهاب يا حبيبي، هل تفضل البيض بالبسطرمة، أم بالجبنة الرومي؟

ثم دفعتني لأجلس على أريكة أمام الشرفة المفتوحة على الشارع ونادت:

ـ بونا تعالي فورا فقد وصل شهاب.

جلست بين القطط وأنا لا أعرف هل أنا داخل الشقة، أم أجلس على رصيف الشارع. قفزت فوقي قطة مشمشية صغيرة وحدثتني بلغة القطط التي لا أتقنها، دخلت الحجرة «دورا» خالة بونا المريضة بمتلازمة داون، وأخذتني من يدي في صمت وقادتني إلى الجدة «فيرونا» وأجلستني على مقعد خشبي صغير بجوار فراشها ثم خرجت «دورا» من الحجرة وتركتني مع الجدة. نظرت حولي فعرفت أني انتقلت بوساطة مركبة للترحال عبر الزمن إلى عام ١٩٣٠. كل ما في الغرفة يدل على عالم النصف الأول من القرن العشرين. الأثاث

الإيطالي القديم، ولون البساط والخيوط الفضية الجميلة التي تطرز ملاءة الفراش، مرآة التسريحة البيضاوية المتحركة. كانت فيرونا مستلقية على الفراش؛ بياضها الشاهق ينافس بياض الملاءة في سطوعه. ابتسمت لي الجدة وقالت لي:

ـ ما اسمك يا فتى؟

ـ شهاب.

ـ هل تعرفني؟

ـ لم أتشرف بلقائك من قبل.

ـ هل تعرف حي شبرا؟

ـ أول مرة تطأ قدمي هذا الحي.

ـ وهل قابلت من قبل ماريا، أو بونا؟

ـ لم أقابلهم من قبل. بونا صديقة ثورة المخطوبة لصديق عزيز.

ـ سوف نتحدث لاحقا. اخرج الآن.

مررت عبر حجرة المدخل وأنا أتأمل وجه فيرونا وهي شابة صغيرة. وجلست مرة أخرى على الأريكة بجوار الشرفة. وصلت «بونفيلا» مبتسمة ورحبت بي وكأنها تعرفني. من الواضح أنها ثقافة المنزل. برؤياها عرفت أنها سوف تكون ملهمتي. بونا صغيرة الحجم، كل ما فيها دقيق عدا ثغرها واسع، وصدرها ناهد، لون عينيها أرجواني فاتح. لم أكن قد رأيت عيونا أرجوانية من قبل، ارتدت ثوبا أبيضَ قصيرا فضفاضا بأزرار في منتصفه. فتنة حقيقية أن أرى هذه البهجة تطل من مسامها. كانت «بونفيلا» كما شقتهم مفتوحة على العالم الخارجي، متواري الحائط الفاصل بين الخاص والعمومي.

استكملت أمها «ماريا» طريقتها العجيبة في الحديث معي وكأني أعرف كل شيء عن حياتهم، وقالت لي إن «إليساندرا» كسرت ساقها (عرفت بعدها أنها أختها التي تسكن الإسكندرية) ولابد أن تطمئن عليها، ولكنها في ذات الوقت لابد أن ترعى «دورا» وأمها «فيرونا» التي تموت؛ ولذلك يجب أن تعود في نفس اليوم. قلت لها إنني أيضًا يجب أن أكون في القاهرة في الليلة نفسها.

لملمت الأم أشياءها ووضعت السندوتشات في حقيبة صغيرة من قماش قديم وخرجنا وسط زعيق «فيرونا» وهمهماتها بكلمات لم أفهم معناها.

* * *

صورة فوتوغرافية لبونفيلا هي التي جذبت انتباهي في البداية، كنت وأصدقاء الفنون الجميلة في الإسماعيلية نقضي النهار أمام حمام السباحة في فندق مديره أخو لطيف زوج أمي، أخرجت ثورة صورة لها وهي تقف بجوار فلقة قمر. اختطفت من يدها الصورة ووجدتني أحدق في وجه تلك الصديقة التي جمعت بين الملامح البرية والسيماء الوديعة. اختطفتني صورة الفتاة بشكل لم أعهده من قبل. سألت ثورة: ما اسم صديقتك؟ وأمام أنفاسي

المنبهرة لم تجبني فأمسكت برقبة «حسام» ومثلت أنني أخنقه، فصرخت للدفاع عن حبيب قلبها:

ـ اسمها «بونا».

لم أصدقها. ضحكنا خليل وحسام وأنا على سرعة بديهتها في تأليف الأسماء. لكنها أكدت لنا أن هذا هو اسمها المختصر.

ـ اسمها الحقيقي «بونفيلا»، وهو يعني بالإيطالية الابنة البارة، صديقة من المدرسة في شبرا.

عدنا من الإسماعيلية وظلت صورة «بونا» في مخيلتي حتى اتصلت بي ثورة في أحد الصباحات الشتوية متسائلة إذا كنت سوف أسافر وحدي إلى الإسكندرية بسيارتي في اليوم التالي، أجبت بالإيجاب، فطلبت مني أن أصطحب «بونفيلا» وأمها «ماريا» إلى هناك. كنت مستعدّا بالتأكيد أن أصحبهما إلى أسوان لو شاءا. سألتها:

ـ وهل يمكن أن أصحب الفتاة دون أمها؟

ـ جملة أخرى وسوف أفضحك في الشوارع.

ـ إذن نقبل أمها شريطة أن تنام طوال الطريق.

ـ أنا لا أمزح معك. هل يمكنك اصحابهما؟ نعم أو لا.

ـ أين العنوان؟

ـ بجوار سينما الأمير بشبرا.

ـ سوف أمر عليهما غدا صباحا في حدود التاسعة. هل هذا الوقت مناسب؟

ـ لا داعي. يمكن أن تلتقي بهما في مكان قريب من منزلك.

ـ لا كنت ولا أكون، أمجنونة أنت؟ أتريدينني أن أرهقهما بالحضور إليَّ؟

لم أتوقع أن يستقبلوني وكأنني صديق قديم. جلست بونا بجواري في السيارة وجلست ماريا في الخلف لتفرد جسدها على الكنبة ولم تمر دقائق إلا وسمعت صوت شخير يتصاعد من جوفها. حاولت أن أمنع يدي من ملامسة فخذ بونا العارية، وعندما لاحظت توتري قالت لي:

ـ يجب أن أعترف لك بأنني إنسانة شريرة

ـ شريرة؟

ـ نعم.

ـ ولماذا أنت شريرة؟

ـ لأنني وأنا الآن مسافرة لأطمئن على خالتي لا أفكر سوى في وجبة الجمبري المشوي والسمك الذي سوف نتناوله على الغذاء. أحاول أن أقنع نفسي أن خالتي أهم من الجمبري، ولكن الحقيقة أنني وافقت على السفر فقط للذهاب إلى مطعم «قدورة».

ـ هذا لا يجعلكِ شريرة حقيقية، لتستحقي هذا اللقب، يجب أن تبذلي مجهودا أكبر.

ـ أود أن أكون شريرة. هل يمكنك أن تعلمني؟

كنت على أتم استعداد لتعليمها، لكن استيقظت ماريا وانفجرت ماسورة كلام لا تنقطع. تعمل ماريا مديرة حسابات في المستشفى الإيطالي. تزوجت طبيب أمراض صدرية توفيَ بسرطان في الرئة قبل ميلاد بونا بشهر واحد، ورفضت عائلته التواصل معها ومع ابنتها بعد أن رفضوا قبلها زواج ابنهم من مسيحية. وجدت العائلة نفسها مع طفلة تحمل اسما مسلما وهم لا يعرفون شيئا عن الإسلام. واتخذت ماريا القرار الصعب: أن تربي ابنتها كما كان يحب أبوها أن يربيها. عاشت الطفلة بلغتين الإيطالية والمصرية وديانتين، مع أم وخالة وجدة. حالة تشبه ما عشته مع أمي وخالتي وجدتي. ماريا الجيل الثالث من عائلة إيطالية قدمت إلى القاهرة في آخر القرن التاسع عشر من قرية تقع جنوب نابولي. عملوا جميعهم في ميكانيكا السيارات. سكنت العائلة في شبرا بجوار كنيسة كاثوليكية وضعوا في قلب هيكلها القديسين الذين عاشوا متلمسين نورهم لإرشادهم لطريق الرب. بعد وفاة والدها، باعت أمها «فيرونا» ورشة إصلاح السيارات المملوكة للعائلة لأنها لم تخلّف سوى البنات، أودعت القيمة في شهادات استثمار وعاشوا لفترة على قيمة الفائدة السنوية لهذه الشهادات. تزوجت البنات وتفرقن كل في مدينة ولم يتبقَّ معها سوى «دورا»، ثم عادت إليها ماريا حاملا في الشهر التاسع بعد وفاة زوجها الشاب.

وصلنا إلى الإسكندرية واتفقنا على أن أصحبهما في طريق عودتي. وفي المساء كانت معهما ابنة الخالة «مياسين» وهي أكبر من بونا بعام واحد وأصغر مني بعام. تخرجت في كلية الهندسة وحصلت على وظيفة في القاهرة، واتفقت على أن تعيش في حجرة بونا لمدة قصيرة حتى ترتب أوضاعها وتستأجر شقة لها. شكل ثلاثتنا في الأيام التالية فريقا لا ينفصل وأصبح منزلهما في شبرا بيتي الثاني أقضي فيه ساعات طويلة مع الجدة التي تموت والقطط التي تموء ودورا وبونا ومياسين الذين يضحكون بلا انقطاع وماريا عندما تعود من المستشفى الإيطالي. ومنذ هذه الأيام لم ينقطع قطُّ خيط الود بيني وبين بونا ومياسين على الرغم من كل ما مر بيننا من أهوال.

وكما أصبح بيت شبرا مكاني المفضل لفترة من عمري، وقططه بطلات لقصص ألفتها في مخيلتي، ولوحات رسمتها على خشب وورق وقماش مصنوع من ألياف الكتان ومن ألياف القنب، فقد أصبح «الكركمي» بعد هذا التاريخ بعقود من الزمن منزل بونا المفضل ثم منزل مياسين بعد وفاة زوجها بنفس سرطان الرئة الذي توفيَ بسببه والد بونا قبل هذا بسنوات طويلة.

* * *

الكركمي منزل قوي الشخصية يعرف ماذا يريد من الدنيا. في أحد الأيام وأنا في منتصف العقد الخامس، كنت في زيارة للعين السخنة فإذ به يصيح في وجهي ويطلب مني شراءه. أنا لم أستسلم بسهولة لتوسلاته. قلت له:

«يفتح الله ويغلق الطرق بين البائع والمشتري، فتمهل قليلا لنرى ماذا سوف تسفر عنه المفاوضات».

لكن أمام إلحاحه لَبَيّت نداءه وأصبحت أمتلك بيتا على البحر الأحمر في المكان الذي مَرَّ عليه موسى في كتب الأولين وشقَّ البحر بعصاه.

لم تقع «ضحى» زوجتي في حب منزلنا الجديد، وأكثرت من تهكمها على خليج السويس. قالت لي:

ـ ما هذه البركة الصغيرة أمام بهاء البحر المتوسط؟

رفضت بعدها السفر إلى هناك، وتبعها «محب» في هواها.

على عكسهم احتفظت بذكريات لا عَدَّ لها للعين السخنة منذ زياراتي المتوالية مع بطة وجيهان وناريمان وأنا ما زلت صبيّا. هي عين أوغلت نظرها في دقائق عمري، تشابكت مع خيوط حياتي وكلما ابتعدت عنها وجدتُ العين السخنة تجذبني. أستسلم وأدرك أنه ليس لي أمام إصرارها فكاك.

ألهمت الألوان الساطعة للمتوسط في الإسكندرية ومطروح وبلطيم ورأس البر الفن المصري عبر السنوات، ولم يلتفت فنان إلى اللون الأحمر في الجبال الساخنة أمام العين السخنة؛ لون كلون الشمندر، لابد أنه اسمي يناديني. أين بطة الآن وهي تتأمل تدرجات الألوان في هذه المرتفعات غير المرتفعة التي نطلق عليها لقب «جبل» بكل فخر كما نطلق على أصدقائنا لقب «أسد»؟

ظللت أحاول أن أقنع ضحى بالسفر معي، ومع رفضها الدائم استقرَّ رأيي أن المنزل يريد أن يختلي بي دونهم. أطلقت على الدار اسم «الكركمي» لأن إحدى درجات لون الرمل أمام الدار كان أشبه بلون الكركم. وأصبحت أعيش هناك بين الكركم على الأرض والشمندر في الجبل والأزرق الممتد على سطح البحر الأحمر. أسافر لأرسم وأتمتع بوحدتي. ثم تحول الكركمي تدريجيّا لمكان أستقبل فيه نساء أشعر تجاههن بانجذاب ما، ثم زارت بونا الكركمي ووقعت في غرامه ومن بعدها عشقت «مياسين» المكان.

* * *

كنا جالسين ثلاثتنا في الصالون المرمري للكركمي الذي يطل على البحر الأزرق بعد أن انتهينا من وجبة الجمبري الذي ما زالت تعشقه بونا، وأخذنا حديث الذكريات وطفنا في سماوات الجدة فيرونا، حتى وصلنا فوق جبل الاجتماع إلى أقاصي الشمال، وصعدنا فوق المرتفعات وتركوني هناك لأرسم لوحة: «الملاك ميخائيل يداعب فيرونا وبونا تتابع من بعيد».

آه يا فيرونا.

كانت للجدة عيون خضراء واسعة تأكل نصف وجهها، وأنف دقيق، وأذنان مرتفعتان كأذني حمار صغير جميل. تمدد جلد وجهها وتكرمش ليشكل موجات لا عَدَّ لها حتى تظن أنه دُبغ لوجه عملاق. وامتدَّ تحت ذقنها لغد كبير يصل إلى أسفل رقبتها. كان حديث فيرونا كله عن الرب، أملها أن تصل في عذابها إلى ما وصل إليه السيد المسيح في أثناء صلبه، فكما كانت آلام يسوع فداء عن خطايا البشرية كانت فيرونا تسعى إلى أن تحمل خطايا عائلتها، وفي طريق العذاب ظهر لها الملاك ميخائيل وكانت طلعته ناضرة

وبشرته يانعة، فكدَّت واجتهدت لتتحمل مزيدا من الآلام لتصاحب لفترة أطول ملاكها، وكلما أعياها الطريق عظم أجرها بالحضور الكثيف لميخائيل. وفي أحد الأيام رأت «دورا» هي الأخرى الملاك وطفقت هي الأخرى تتحدث معه.

قالت لنا بونا:

ـ أنا واثقة بأن فيرونا في أعوامها الأخيرة كانت قد ملت تماما من الحياة. دخلت في أحد الأيام حجرتها وسمعتها تهمس في أذن ميخائيل قائلة له: لقد بشرت النسوة حاملات الطيب وقلت لهن إن المسيح قام من الأموات، فمتى سوف تبشرني أنا الأخرى باختياري إلى جوار يسوع في السماء؟ ثم ابتسمت ابتسامة ساحرة وهي تسره: ألا تعرف أنني لم أرَ رجلا أجمل منك؟ ونظرت إلى السقف وهي تدعو: يا أمَّ النور اجعليني بقرب الملاك ميخائيل.

ابتسمت مياسين قائلة:

ـ أثق بأنها في الجنة. جدتي المرحة المحبة للترحال والضحك والاكتشاف، كانت تصل إلى الإسكندرية فتملأ الدنيا ضجيجا وفرحة. لولا إيمانها لتركت زوجها الكئيب المكفهر دائما، وعشقت رجلا في جمال ما رآها خيالها في ملاكها الأثير.

تراءت لي ذكرياتي مع فيرونا، مددت ذراعي لأستجلب اللبن من السقف، والدقائق من الذاكرة، وجمعت القطع المنثورة وعدت وحدي إلى لحظتي معها:

نادت عليَّ فيرونا وأجلستني بجوارها على الفراش على نفس المقعد الخشبي الصغير. قالت لي إن الملاك ميخائيل يجلس هو الآخر على الفراش معنا، ثم طمأنتني قائلة: لا تخف من وجود الملائكة في الغرفة، ثم سألتني إذا كنت أرى زوجها يقف هناك، فأجبتها بالنفي. فقالت لي إنه لابد قد غادر الآن المكان لكنه سوف يعود بعد قليل.

ابتسمت لها فأكملت حديثها بسؤالي:

ـ ألا تعرف لماذا حضرت إلى منزلنا؟

ـ طلبت مني ثورة أن أصطحب ماريا وبونا إلى الإسكندرية.

ـ ليس هذا هو السبب.

ـ وما السبب إذن؟

ـ لأنني استدعيتك.

ـ وكيف هذا؟

ـ طلبت من الملائكة إحضار من لا أعرفه ولا يعرف عني شيئا لأعترف له. وعلى الرغم من كوني أعترف كل أسبوع في الكنيسة، لكن ظلت هناك أشياء تخصني لم أستطع الاعتراف بها. ومع تقدم الزمن عرفت أنني لن أموت قبل أن تخرج من مسامي أحداث قابضة على روحي تمنعها من الانطلاق خارج هذا القارب الزائل الذي أقيم فيه. أنت قد حضرت إلى هنا لتستمع إليَّ. فاصمت الآن واسمع ما عليَّ أن أعترف به.

كانت فيرونا تتحدث بصعوبة وتتنفس بشق الأنفس. قالت لي في وهن:
ـ لقد سرقت. نعم، سرقت وكذبت.
شعرت بأن حملا ثقيلا سقط من فوق كاهلها.
استكملت اعترافها:
ـ ولدت في شبرا على مبعدة شارعين من هنا، ومنذ معرفتي بالدنيا علمت أنني سوف أتزوج بابن عمي الذي سوف يرث ورشة إصلاح السيارات التي يمتلكها أبوه وأبي. كان الابن الوحيد مع خمس أخوات بنات، وكنت الابنة الكبرى لأخت وحيدة. لم يكن هناك شخصان مختلفان عن بعضهما البعض أكثر مني ومن باولو زوجي. يمكنني أن أختصر الخلاف في الآتي: كان جادّا وعابسا ورزينا ومجتهدا ومحترما، وكنت مستهترة ومازحة ومهملة وكسولة. كان دائم الخوف من الغد، هذا النوع من الخوف الذي يكبل مسارات الحياة، وأنا ولدت بـأجنحة لا ترهب الارتفاعات الشاهقة. يمكن أن يكون هذا الاختلاف في الطبيعة إيجابيّا للبعض، ولكنه كان كارثيّا في حياتنا الزوجية. عشت حياتي تعيسة ولم يكن لي سوى الرب ألجأ إليه. ولكنني في الخمسين من عمري سقطت أمامي التفاحة فصرخت: «وجدتها». ما ظهر أمام أرخميدس ونيوتن من اكتشافات مبهرة ظهر أمامي فجأة. اكتشفت أنني لا أريد أن أموت قبل أن أحيا. ضربت عرض الحائط بكل التعاليم. هل تعرف ماذا قال الرب لموسى في الإصحاح التاسع عشر؟
ـ لا أعرف.
ـ أمرنا الرب ألا نسرق أو نكذب. وهذا ما فعلته. يمكن لذهنك الخبيث أن يتصور أنني أقمت علاقة آثمة خارج الزواج.
ـ لم أذهب إلى هذا الظن.
ـ هذا ما لم يحدث قطُّ. لكن ما حدث أنني سرقت زوجي لأصرف على رحلاتي التي لم يكن يعرف عنها شيئا. طلبت منه مالا لمصاريف المنزل وادخرت منها دون علمه. كذبت عليه لمدة خمسة عشر عاما. ثم مات فجأة قبل أن أعترف له بخطيئتي. ظللت أحاول عاما بعد الآخر أن أعترف بأنني سارقة ولكن لم تخرج الكلمة من فمي. استدعيتك أنت الغريب لأصرخ في وجهك وأقول لك: «أنا لصة».
ـ لا تحزني. إنه مالك كما كان مال زوجك.
ـ في التاسعة والأربعين من عمري وأنا أشعر بأن قطار العمر قد اقترب من نهايته، تمنيت أن أزور أديرة المنيا وأسيوط. لم يقتنع باولو قطُّ بهذا النوع من المصروفات. «ألا تعرفين يا رفيقة الكفاح أننا في أزمة مالية لا نعرف متى تنتهي؟». الأزمة التي يتحدث عنها طالت العمر كله. كذبت عليه وقلت إن صديقتي مريضة، سوف أقيم معها لمدة أسبوع. واتفقت مع صاحبتي على أن تكذب هي الأخرى. تحملت بدل الذنب ذنبين وسافرت لزيارة دير العذراء بجبل الطير، ثم سافرت إلى دير المحرق بجبل قسقام. وبعد أن عدت إلى المنزل لم أصبر سوى شهر واحد ووجدت نفسي في حافلة متوجهة إلى

بورسعيد. وانفتحت شهيتي للخروج والسفر. زادت سرقاتي وأصبحت خبيرة في فنون الكذب. زرت معابد الأقصر وأسوان وأبي سمبل، وفي كل زيارة كنت أتنفس وأعيش ويمتلئ صدري سعادة. تحررت مع كل رحلة من الشعور بالخطيئة وكأن الشيطان تمكن مني تماما. أصبح الكذب جزءا أصيلا من حديثي اليومي. ولما انتقل باولو إلى السماوات هبط الاثم ليجثم فوق صدري. لم يعد هناك من أسرق منه أو من أكذب عليه. ضاعت من أمامي الاتجاهات الأربعة. فقدت بوصلتي وحبست نفسي داخل عجزي في الاعتراف.

ـ يا فيرونا، أنت لم تفعلي سوى الصواب.

ـ هل يمكنني الآن أن أموت في سلام؟

انتظرت مني إجابة ولكنني لم أجد ما أضيفه.

تغير أمامي صفاء حدقتي عيني فيرونا. انتقلا من مياه شاطئ هانوفيل إلى شاطئ روميل. أصبحت أرى قاع عينيها. حالة شفيفة صار معها جسد فيرونا كله شفافا. امتزج جسد ميخائيل في قارب فيرونا، ورسم هذا الامتزاج بسمة باهرة على وجهها.

* * *

نظرت إلى بونا فرأيت أوجه الشبه الكثيرة بينهما. اقتربت منها واحتضنتها في حنان وشممت رائحة الملاك ميخائيل.

* * *

بوسي ترفض اللعب مع بنت وردان

لم تكن الصراصير كبيرة ولا صغيرة، كانت بحجم نصف ثمرة الجوز، تسير متمهلة على ذراع أم فريال الملحم وعلى ساقيها المشحمتين وعلى رقبتها الضخمة وعلى شعرها وعلى جلبابها أخضر اللون. تهش المرأة بكسل كل دقيقة صرصارا واحدا دون أن تبالي بعشرات يمرحون على لحمها. لونها بنيٌّ ضارب للسمرة، لها قرنا استشعار طويلان ورائحة كريهة تمتزج مع شذا عيدان بخور من عود الصندل وضعته أم فريال داخل مبخرة من نحاس أخذت شكل فانوس علاء الدين. كانت الصراصير تسير كذلك فوق القطة «بوسي» التي تشبه قليلا الحمار الوحشي الصغير، خطوط بيضاء وخطوط سوداء، تجلس مستكينة بجوار قدم أم فريال دون أن تنتبه إلى الصراصير فوق ظهرها. تعجبت من استسلام بوسي على الرغم من حداثة سنها لآلاف بنات وردان الموجودات في الغرفة دون محاولة منها لمهاجمتها أو حتى اللعب معها. تساءلت وأنا أتابع صرصورا يحاول الاقتراب من قدمي: لماذا أطلق العرب على هذه الحشرة أيضا اسم «بنت وردان»؟ من يكون وردان هذا؟ على أي حال، تعيش هذه الصراصير على هذا الكوكب منذ خمسين مليون سنة؛ فوردان هذا أقدم من أن أعرفه.

كانت بنات وردان في كل مكان في حجرة جلوس منزل أم فريال، تزحف على البلاط القديم، وعلى الحصيرة المفروشة المنسوجة من نبات البردي، وتتسلق الحيطان وتحاصر بوسي التي كانت خطوط جسدها البيضاء من فرط اتساخها رمادية اللون.

تجلس أم فريال على أريكة عريضة متينة الصنع لتتحمل وزنها، تأخذ هذه الأريكة المساحة الأكبر من الصالة الضيقة، بينما نجلس جميعنا على مقاعد خيزران تشبه مقاعد المقاهي الشعبية في حواري القاهرة.

تأملت أم فريال أمي بعينين ككرتي الدم، ثم أطالت النظر وهي تحدج في وجهي، تتفرسني، وبعدها مالت برأسها ببطء لرؤية وجه برلنتة وقالت بصوت رخيم:

«القمح لا ينبت إلا في أرض طيبة».

ولأننا لم نفهم مغزى القول فهمهمنا جميعنا علامة الموافقة.

أم فريال سيدة طاعنة في السن، ذات جسد منبسط كجوال أرز، صدرها البارك يرتاح على ركبتيْها في كسل، وجهها الضخم ينتهي بلغد هائل الحجم، وشعرها أشعث قصير يصل إلى رقبتها بصعوبة، جفونها الثقيلة تميت ألق حدقة عينيْها. يمكن أن أقول إجمالا إنها تشبه تماما الضفدع. لجأت بطة إلى أم فريال للقيام بعمل من الأعمال السفلية لمنع أمي من العودة إلى المنزل، ونصحتنا ماما رفيعة الذهاب إلى صانعة العمل الأسود لفكه.

كان الطريق إلى أم فريال وعرا، تسكن في منطقة على تخوم القاهرة، حي هجين بين المدينة والقرية، الطرق إليه مهدمة. وصلنا بعد عناء ووجدنا بناية

قديمة من دورين في حارة قذرة تغطيها مياه المجاري. وفي الدور الأول كانت تنتظرنا وسط صراصيرها.

* * *

ولأن لكل نبع منبعا، فقد بدأت الأمطار في الهطول وشكلت أصل زيارتنا لأم فريال عندما زارنا في العام السابق عم خليفة عامل التلفونات بعد أن تعطل هاتف منزلنا، وعرف، وهو يصلح ما خربه بيده، أنني رسام فبدت على وجهه علامات سعادة لم أفهم سببا لها إلا عندما قال لي إن لديه ابنة ترسم بلا توقف، واستأذنني أن أرى ما ترسمه إذا كان وقتي يسمح. كانت ابنته «زكية» صبية موهوبة بالفعل، تطوعت بكل حب أن أعلمها بعض المبادئ الأولية في الرسم. وأصبح عم خليفة يزورنا مع ابنته مرتين في الأسبوع لفترة توطدت خلالها معرفتي به. كان رجلا فطنا، سريع البديهة، يعرف من أين تؤكل الكتف، يتقن فن تلقى الخدمات ويعرف جيدا كيف يردها. وعندما عرف أن خطيبتي ناريمان تسكن في الدور العلوي قال لي:

ـ ثلاثة لا تأمن لهم: السكير والجائع وذات النهدين. فالمرأة خائنة بطبعها؛ خلقها الله كذلك. والخيانة مثلها مثل الموت لا رجعة فيها، فعليك أن تعرف مقاصد المرأة وتدرس سلوكها الخفي. دعني أقدم لك نصيحة أخ أكبر: راقب أفعال خطيبتك.

ـ أتعرف شيئا لا أعرفه؟

ـ لا أعرف خطيبتك ولكنني خبرت جنسها. أريد أن أقدم لك خدمة لوجه الله. سوف أركب لك هاتفا في حجرتك تستطيع من خلاله أن تستمع إلى كل حوارات خطيبتك.

ـ وكيف؟

ـ هذا عملي. المسألة سوف تكلفك ملاليم. قيمة بضعة أمتار سلك وهاتف إضافي. وعندما ترفع السماعة سوف تسمع ما يدور من حوارات من ورائك، وتعرف الأسرار وتستكشف المخفي.

ظللت صامتا أفكر ولكنه عاجلني بالقول:

ـ ساعة زمن ويكون الهاتف في حجرتك، ولكن لا تخبر والدتك مع احترامي العميق لها، فهي -في النهاية- امرأة لا يمكن أن تأمن تماما لها.

ما قاله عم خليفة نفذه بالحرف الواحد، وانفتح عالم غزير من السرائر لا تكفي لرسمها ألف ألف صفحة. أصبحت أخرج من المنزل لأعود إليه مسرعا لأتنصت على المكالمات. شعرت بالمتعة التي يحصل عليها المخبرون والبصاصون والمتسمعون بالسطو على المستور بفتح كوة في جدار المكنون يضعون عليها أعينهم للاستمتاع بالكشف عن المحجوب.

بدأت بالاستماع إلى محادثات ناريمان مع صديقاتها، ثم اهتممت أكثر بأسرار أختها جيهان، ووجدت أن أحاديث بطة أمهما لا تقل إثارة. الوحيد الذي لا يتحدث إلا نادرا في الهاتف كان نهاد مهران فلم أعرف عن أسراره شيئا. لم أكن قد حصلت على التدريبات النفسية التي يجب أن يحرزها البصاصون

المحترفون والمتسمعون وأصحاب الخط الجميل الذين يكتبون التقارير لذوي الأمر على أمل الانضمام إلى عالم السطوة والنفوذ، ولذلك لم أعرف كيف أتعامل مع طوفان المعلومات الخاصة الذي اندلق فوق رأسي حتى غرقت داخله.

جاء أول خبر كالصاعقة. فقد اكتشفت أن جيهان، هذه الطاقة الجنسية المتفجرة، إلهة الشبق في القرون الوسطى، قد غيرت من ميولها الجنسية ووقعت في غرام فتاة تدعى زينب. انفتح عالم المثلية الذي لم أكن على علم به في القاهرة المغلقة على مبادئ الأسرة المثالية؛ تلك الأسرة التي تغنت بها دوما نظمنا السياسية المتتالية، مستلهمين دعاية هتلر وجوبلز عن «قيم الأسرة» في العصر النازي «السعيد» والتي أخرجت تيارا تشكيليّا طويلا وعريضا ومستطيلا لرسم لوحات «فنية» عن أب وأم وأبناء صحتهم جيدة والدماء تجري في عروقهم المنتفخة، والسعادة بادية على وجوههم المبتسمة وهم يقفون في منتهى الفخر والعزة وسط الحقول الخضراء، ومن ينسى الأعمال العظيمة التي تستحق أن تلقى في أقرب سلة مهملات للتشكيلي النازي «أدولف زيجلر» الذي لم يبتكر في الفن سوى الأعمال التي سوف تحمل للأبد قيم القومية الألمانية؟ أين أضع أحاديث جيهان الهاتفية داخل هذه اللوحات اللهم إلا أن تكون حسب المصطلح النازي ضمن ثقافة الانحطاط الأخلاقي. رسمت جيهان بحواراتها مع زينب الرسوم الممنوعة من المنظومة النازية الفاشية القومية، والذين أطلقوا عليها «فن الرذيلة والشذوذ». أتحدث عن هتلر باعتباره المعبر الأفضل عن حكوماتنا التي شكلت ذهني في هذا التوقيت وأنا ألصق سماعة الهاتف فوق أذني وجعلتني في حالة صدمة حقيقية.

الصدمة التالية التي تجرعتها هي اكتشافي أن أخا زينب ويدعى إبراهيم معجب إعجابا كبيرا بخطيبتي ناريمان. حاولت زينب إقناع حبيبتها بدفعي خارج الصورة حتى تكون لأخيها فرصة في التقدم لخطوبة ناريمان. جن جنوني. اكتشفت حينها لأول مرة كم أنا شخص متملك. لم أكن واثقا من حبي لناريمان ولكن أعتبرها ملكي، الاقتراب منها محرم على الجميع. فقدت أعصابي تماما وأصبحت أنتظر الحوارات بين خطيبتي واللزج إبراهيم. كانت ناريمان على موقفها الواضح أنها تحبني ولا تريد أحدا سواي، وعلى الرغم من ذلك أشعل هذا الإبراهيم نارا كادت أن توقف نهر حياتي. ظللت أتابع الموقف عن كثب. حبست نفسي في غرفتي لأستمع إلى كل محادثة تلفونية، ومع الزمن اكتشفت أنني يمكن أن أسجل هذه المكالمات على شريط كاسيت. أصبحت رجل الجاسوسية الأول في حي المنيرة. ثم جاء يوم فاصل في قصتي مع ناريمان: في هذا اليوم اتفقت زينب مع جيهان أن يخرجا مع إبراهيم وخطيبتي للذهاب إلى السينما ثم الخروج لتناول العشاء. استمعت بعدها إلى حوار بين خطيبتي وإبراهيم للتأكيد على الموعد أمام سينما كايرو بالاس. صعدت كالمختل إلى شقة نهاد مهران لأمنع ناريمان من الخروج ثم اكتشفت وأنا أَهُمُّ بالصراخ في وجهها أنني لابد أن أخرس، فكيف

بالله عرفت أنهم سوف يذهبون إلى السينما؟ لم يفهم أحد من سكان المنزل لماذا هجمت عليهم كالمجنون، ولماذا صمتت فجأة. كان صوت شادية يخرج من المذياع رائقا: «يا دبلة الخطوبة عقبالنا كلنا»، وبطة في المطبخ وسط رائحة ثوم تملأ المكان. ألفت قصة لا معنى لها ونزلت ثانية إلى شقتي.

قررت أن أطور من أدوات البصاص الذي كنته وأخرج من داخل سلك الهاتف إلى أرض الشارع وأتابع تحركاتهم عن بعد. لمحت في هذه الليلة يد إبراهيم وهي تحاول أن تقترب من يد ناريمان التي أبعدتها وراء عجيزتها.

انفتحت عوالم الأسرار وانغلقت أبواب التعاطف والرحمة بيني وبين عائلة نهاد مهران، وجاءت من الضفة الأخرى ضحى يونس عبد الحميد لتنقذني من هذا اليم الذي كنت أغرق فيه.

فسخت خطوبتي من ناريمان قبل أن أقدم على خطوة يمكن أن أندم عليها، وانصدع حائط الجنة وانبلج حائط النار وأعلنت عائلة مهران الحرب علينا. لم تتقبل بطة خروجي من قبضة عائلتها. قالت لي صراحة إنني بمثابة خطيب ابنتي منذ ميلادها ولا يمكن أن تسمح لي بكسر قلب حبيبتها، ذكرتني بتاريخ عشرين عاما من تضافر أيامنا حتى أصبحنا واحدا، كيف أجرؤ على أن أمزع بيدي حياة كاملة؟ حاولت الرد فلم تقبل. اضطررت إلى أن أخرج النزر الزهيد مما في جَعْبَتي، وفي مواجهة دامية في شقتهم دار حوار عنيف بيني وبين الأربعة:

ـ أتعرفون أن خطيبتي الحبيبة ناريمان هانم كانت تخرج دون علمي مع المدعو إبراهيم أخي زينب؟

صمت مدوّ.

ـ أقالت لكم إنه أمسك يديها ووضع كفه على ساقيها في السينما وهي صامتة تستمتع بملمس يده عليها؟

ردت بطة بحدة:

ـ لا يمكن أن تفعل ابنتي هذا. أنت تهذي.

ـ اسأليها. هي أمامك؟

نظرت ناريمان في الأرض ولم ترد.

ـ كما أنها خرجت معه لتناول العشاء أكثر من مرة، ويمكن أن تشهد على هذا جيهان فقد كانت معهما بصبحة صديقتها الحبيبة زينب.

سأل نهاد مهران ابنته بحدة:

ـ أصحيح ما يقول؟

ردت ناريمان بصعوبة:

ـ صحيح.

طال الحوار وتشعَّب وامتدَّ، بالغت في رفع صوتي ولعب دور الحبيب الذي تخونه خطيبته، مثلت بكِفاية كبيرة الشاب المطعون في كرامته. وانتهى الحوار بانتصار فادح أحرزته عليهم جميعهم. فمن يمتلك المعلومات يفزْ عادة

في مثل هذه المواجهات.

صحيح أن المسألة في هذه الليلة مرت على خير، ولكنني تابعت عبر تنصتي على المحادثات الهاتفية أن الحرب بيننا مستمرة ومستعرة. وفي تصعيد درامي للأحداث، قرروا الذهاب إلى أم فريال المعروفة بالأعمال السفلية لربط حركتنا ونحن خارج المنزل حتى لا نستطيع العودة إلى شقتنا مهما حاولنا؛ وبذلك نضطر إلى الانتقال للحياة في أي مكان آخر بعيد عنهم.

قالت بطة لأختها في حوار هاتفي:

ـ هذه عائلة من الحثالة، لابد من التخلص منهم وطردهم خارج بنايتنا. الحل الوحيد هو أن يخرجوا ولا يعودوا أبدا. لابد من عمل يربط حركتهم.

ـ هي أم فريال وليس غيرها أحد.

ومن التهديدات إلى الترتيبات، استمعت إلى كل شيء حتى كانت الزيارة والوعد والربط. خرجت أمي في يوم لزيارة قريبة لها ولم تستطع العودة. قوى خفية منعتها من الرجوع إلى المنزل. حالة نفور مطلق.

اتصلت بي أمي وقالت لي: لا أريد العودة.

اضطررت حينها إلى أن أبلغها بالحكاية.

ادعيت أنني استمعت مصادفة إلى حوار بين بطة وابنتها وهي تهدد بالذهاب إلى أم فريال في منيل شيحة.

في صباح اليوم التالي سألت أمي عن هذه المرأة، وتأكدت من قوة بأسها في مجال السحر الأسود. وبعد مشاورات كان علينا الذهاب إليها في عقر دارها لمعرفة ماذا سوف تطلب لتصفية المسألة بصورة ودية.

* * *

بدأت برلنتة الحوار مع أم فريال:

ـ نحن كالثمرة الناضجة، في منتهى الصلابة تحت قشرة رقيقة، لكن إذا جرحها سكين ضرب العطب أجسادنا.

ـ كلام سليم.

ـ أمامك يا أم فريال أختي عايدة، خرجت من منزلها، تقدم الخير كعادتها، وضربها ضارب فلم تستطع العودة إلى دارها مرة أخرى منذ أسبوع وحتى الآن.

ـ وهل قدمت الخير فعلا؟

ـ فسخ ابنها خطوبته مع جارته بعد أن خانته مع غيره، وإذ أهلها يشنون حربا ويروجون لأكاذيب ربما تكون قد وصلت إليكِ.

ـ يخبرني القطا بكل صغيرة. هذا الكدري الحبيب ذو البطن الأسود والظهر الأرقش.

ـ لعل هذا الطائر أخبرك بالظلم الواقع علينا.

ـ إنه يختبئ في صفصافة، وأنتظر عودته ليقص عليَّ حقيقة الأمور.

ـ دعيني أحكي لك من رحيق قلبي ما سطرته الأيام في هذه القصة، ولدينا دليل ساطع.

كان حديث أم فريال لقلقة أشبه بصداح طائر القطا، صوت فيه حركة واضطراب، أما صوت خالتي برلنتة فكان رائقا كخرير جدول. اكتفيت بسماع جرس الأصوات ولم أعد أتابع الحوار المتمرس بينهما فقد احتوى على درجة من التعقيد النسائي بحيث يصعب على أي رجل أن يفهمه، هذا التراكم الطويل من آلاف السنوات من تدريب النساء على تطوير اللغة، بينما نحن الرجال تائهون وسط رحى الحروب المخرسة. اكتفيت بمتابعة بنت وردان وهي تتنزه فوق ذراع هذه الجسيمة وعلى ساقيها. ومن سطوة الحر رأيت الصراصير تخرج من فم أم فريال ثم من أذنيها، وتخرج قرون استشعار طويلة من أنفها، طالت القرون حتى لامستني ثم اقتحمت طبلة أذني وقفز الجميع رعبا من الصرخة المدوية التي أطلقتها.

* * *

شيفا والألوان الأربعة

انفتح الباب الأزرق فهبت الأعاصير وتنامت إلى أذني أهازيج غريبة الألحان. حاولت الابتعاد عن مجرى الإعصار المستطيل الهيئة، ولكن اشتدت الريح وعوت عواء ممتدّا عكّر رتابة الأهازيج الأولى. اندفع من البوابة جيش من حصى الرمال الناعمة وهاجم مقلتي. أغلقت عيني ولكن الرمال البغيضة كانت قد بدأت تثقب الحدقة. لمحت يدا تهبط بنصل حاد لتمزيق عيني. تساقطت الدماء في حنجرتي. ابتلعتها مرغما لعلمي بذنبي. اقتربت بحذر لغلق الباب وكان عليَّ أن أحارب الأعاصير بقوة جبار عتي. بحثت عن المفتاح الأزرق في جيبي وأنا أدفع الإعصار المستطيل بروح حديدية، حركت أصابعي يمنة ويسرة فلم أجد في جيبي أي مفتاح. تسرب الألم الذي بدأت تزداد حدته من الحدقة إلى الإبهام، فانفتح حينها على يميني الباب القرمزي واندفعت في وجهي كيانات ذات أشكال دائرية بأجنحة أسطورية بدأت في التهام خلايا من مخي. صرخت من الألم واندفعت لأغلق الباب وبدأنا عراكا مريرا وسط أصوات أزيز طائرات نفاثة مرعبة انتهت بنجاحي في أن أغلق الباب. أخذت ألهث من التعب وأنا في حالة فرحة فسمعت صوت ابتسامة سوداء وانفتح الباب ثانية فبدأت أصرخ كالمختل وأنا أبحث عن المفتاح القرمزي لأغلق هذا الثقب نهائيّا ودون رجعة. تقلبت في فراشي وأنا أبتلع لترات من الهواء عسى أن أجد بها أي مفتاح تائه، وحين امتلأ صدري بالهواء انفتح الباب الفستقي، فظهرت بستان ووضعت كفها على جبهتي، فانغلقت كل الأبواب وساد السكون المكان واختفى الألم من الكون. تقلبت مرة أخرى في فراشي وغفوت للحظات. استيقظت بعدها فلم أجدها ووجدت الباب الفستقي مغلقا حاولت أن أفتحه فلم أعرف. بحثت عن مفتاحه دون جدوى. خبطني اليأس فانفتحت بوابة هيكل أسود كان يختبأ في رعونة خلف الوسادة. خرجت منه كل الأكاذيب. بدأت تتلاعب وتتراقص أمام عيني في مداهنة الثعابين وسط موسيقى شرقية هادئة تمنيت معها أن تنفتح أبواب الجحيم. شددت اللحاف فوق وجهي وكرمشت جبيني لطرد بعض الأكاذيب الراقصة الممطوطة التي بدأت في لعق أذني بمخاطها ذي الرائحة الكريهة. هذا الهيكل يحتاج إلى مفتاح أسود هائل الحجم رأيته يوما في يد جنكيز خان.

ركبت الحصان «بيجاس» وانطلقت إلى منغوليا. وفي الطريق الممتد بالمستنقعات انفتح باب البرونز وقبضت يد برونزية اللون على قلبي لانتزاعه. شهقت فشممت رائحة الثوم وشعرت بطعم الملوخية الذي أعدته سوسن لي. يجب أن أنام بأي شكل، وأن على الأبواب أن تحترم نفسها وتغلق حتى دون أن أجد مفاتيحها. أخذت نفسا عميقا ورفعت يدي اليسرى إلى أعلى وفتحت عيني فلم أرَ شيئا. تساءلت وأنا في وهلة وئام: هل نمت أخيرا؟ وعندها بدأت عشرات الأبواب تنفتح وتبخ في روحي وجوها بأقنعة تاريخية وأسئلة كونية وأخرى وجودية وسط سلاطة من النخاع الشوكي المشدود

بسبب عدم تنجيد المخدات منذ زمن سحيق. وضعت يدي على أذني لأمنعها من الاستماع إلى صرير الأبواب المتصل حتى اكتشفت بعد فترة طويلة وبعد أن آلمتني أذني من شدة الضغط أن هذا الصوت يأتي من داخل أنفي. فتمخطت وقررت أن أكون صانعا للمفاتيح، أغلق أبواب خطاياي وأفتح أبوابا أجد خلفها بعضا من الحنان ويد أم وكلمة صديق. لكن يجب في البداية أن أنام ولكي أنام يجب إغلاق الأبواب بالترابيس. تحولت إلى «شيفا» وبحثت بأذرعي الكثيرة على المفاتيح المتناثرة داخل جمجمتي ولما تمايلت واختفت برعونة داخل تلافيف زهرية اللون، هشمت بيدي الرابعة الجمجمة فظهرت مفاتيح من كل لون تفتح كل الأبواب. أمسكت بها وتيقظت ونهضت من فراشي فالنوم أصبح مستحيلا.

* * *

صراع مرير وقرع طبل. أصرخ: متى بت رجل قرع؟

منذ عدت من حفل تخرج ابنتي التي رزق بها جدي يوسف ياسمين من المدرسة.

حصلت ياسمين يوسف مراد كاظم على شهادة الثانوية العامة الشعبة العلمية. دعتني سوسن لاحتفال صغير بهذه المناسبة السعيدة، وطلبت مني الحضور مبكرا لتناول الغذاء معهما. لم أكن قد رأيتهما منذ أكثر من عام، كما لم أكن أعرف ماذا يمكن لسنة أن تفعل بوجه إنسان. قام الحلواني يوما بعد يوم بنحت تفاصيل وجه ياسمين بإعجاز فني مبهر لتكون نسخة من بستان. صرخت لما فتحت لي الباب: «البنت بالحق لعمتها كما يقول المثل الشعبي. فولة وانقسمت لاتنين».

حاولت إقناع عايدة بمصاحبتي في هذه المناسبة فياسمين -في النهاية- هي ابنة خالها الوحيد، ولكنها ظلت على عنادها وقالت لي إنها لا تستطيع أن تمد يدها لتصافح أمها العاهرة. علا صوتها وهي تقول لي:

ـ ماذا يمكن أن نتوقع من تربية أم لم تتلقَّ هي نفسها أي تربية، يقول المثل: «من لها أم لا يخرج من فمها العيب»، ولكن من لها أم كسوسن لن تعرف من الدنيا سوى العيب.

مللت من الحوار مع أمي بخصوص زوجة خالها وابنة خالها. قلت لها مرارا إن سوسن أثبتت لسنوات طويلة أنها امرأة جديرة بالاحترام. لم تتزوج، لأنها لم ترغب في إحضار زوج أم لياسمين. قررت لسبب لا أفهمه بل أرفضه جذريّا أن تمنح حياتها كلها لابنتها. ماذا تريدين أكثر من ذلك؟ وأجد الرد من أمي باردا كالنصل:

ـ سوسن كالنبات المتسلق، نبات ضعيف لا يقوى على الوقوف دون أن يزحف فوق أجساد الآخرين. انتظر وسوف ترى أنها تبحث عن صيد جديد.

ـ أتريدين أن أنتظر لمدة قرنين قادمين؟ توفيَ خالك من أكثر من ثمانية عشر عاما. كانت في الثانية والعشرين وأصبحت في الأربعين. أي صيد تتحدثين عنه؟

انتقلت سوسن وابنتها للحياة في شقة زوجها في وسط البلد بعد أن ضاقت بمضايقات برلنتة وعايدة. وسمح ميراث زوجها أن يعيشا في السنوات العشر الأولى في وضع مالي مريح، ثم مادت بهما الأرض واهتزت اليابسة تحت أقدامهما بسبب موجات الغلاء وضربات التضخم المفزعة. اعتبرت أن ابنة خال أمي مسئوليتي، وخصصت راتبا شهريّا لهما دون علم أمي وخالتي وبتشجيع كبير من زوجتي ضحى. زرت يومها سوسن وقلت لها: اعتبري خال أمي على قيد الحياة واطلبي ما تشائين لتغطية جميع مصروفات المنزل والمصاريف الدراسية لياسمين وبالغي فيما تطلبين، فما كان منها إلا أن طلبت مبلغا زهيدا وأثبتت لي للمرة الألف أنها من معدن أصيل.

سوسن من مواليد أسيوط، عمل والدها في بناء المساجد في حقبة الخمسينيات والستينيات وهي فترة كثر فيها بناء المساجد حتى قيل إن عدد المساجد التي بنيت في فترة حكم جمال عبد الناصر يساوي عدد المساجد التي بنيت في مصر منذ دخول الإسلام حتى عام ١٩٥٤. الأمر الأكيد أن والد سوسن كان يعمل بصفة دائمة والأحوال على ما يرام والعائلة في بحبوحة. لكن مثله مثل العديد من البنائين الذين يتعرضون للسقوط من سقالات مرتفعة دون وجود تأمين على حياتهم يكفل لعائلاتهم حياة كريمة في حالة تعرضهم لحادثة في أثناء تأديتهم عملهم. مات الرجل وترك أربع بنات وأمّا لا تفرق بين الألف وعود الذرة. وعندما يسقط الجمل تكثر السكاكين التي تريد الفتك بعائلته من بعده. وحين يدب الفقر تكثر الخلافات وتتفسخ العلاقات ويعلو الصوت وينتشر الكذب وتمتد الأيادي وتكثر الاتهامات، وينظر السادة من أعلى في تقزز إلى هؤلاء ذوي الصوت المرتفع ويتساءلون: لماذا منح الله لمثل هذه الحشرات حق الحياة؟

كانت سوسن الابنة الكبرى تصغر أمها بخمسة عشر عاما، نشأت بينهما علاقة حب وتنافس وغيرة واحتياج، حظ سوسن العاثر أدخلها في طاحونة أكثر العلاقات تعقيدا بين أم وابنتها. تقيأت الأم كل كوابيسها داخل أذن ابنتها وحمَّلتها في سن مبكرة ما لا يمكن أن تحتمل من مخاوف وأكاذيب وآلام. تشبه أم سوسن إنسان ما قبل اكتشاف النار: كل ما حولها مجهول، كل صوت مصدر لخوف، وكل برق مصدر لقلق. لم تعرف من الدنيا سوى ما تنقله لها حواسها وتترجمه غريزتها. وأمام السكاكين وتدهور الحال والفوضى وسورات الغضب والصراخ، هربت سوسن من أسيوط. أخذت قطار الصباح في اتجاه القاهرة ولم تعد قطّ. تلقفتها الأيادي وانتقلت بسرعة إلى قوادة رئيفة بأحوال المستجدات من أمثال سوسن. ساعدتها في حفر الطريق والمسالك الأكثر أمانا حتى طرقت في أحد الأيام باب شقة يوسف مراد. وقررت بعد زواجها أنها سوف تثبت لنفسها أن الأمومة ممكنة، رافعة شعار «لا للصراخ ولا للعراك وأهلا بالعطاء».

ما لم أقله لأمي إن سوسن تعاني من مرض الاضطراب الوجداني ثنائي القطب. تنتقل بين الكآبة المطلقة والنشوة الكاملة. أنقدتها أكثر من مرة بعد محاولات انتحار. قلّت النوبات مع تقدم السنوات، ولكن ما زالت تقوم بأفعال

جنونية.

* * *

وصلت قبل موعد الغذاء وقد تسللت رائحة الطعام الزكي حتى أترعت المجال الجوي للكون. استقبلتني سوسن بابتسامة واسعة وهي تحملق في الهدية التي حملتها بين يدي؛ محاولة أن تخمن ماذا أحضرت لابنتها ياسمين بمناسبة تخرجها في المدرسة.

لم تعد الشقة تشبه هذه العيادة التاريخية التي كانت عليها في زمن مضى. اختفت الملامح وذابت السحنة وانقضى عصر، لكن ظلت هناك تلك البردية الطبية المصرية الخاصة بالأعشاب معلقة على الحائط ما زالت كما وضعها بحرص دكتور أوزيريس مجدي. أصبح مكتب الطبيب حجرة للجلوس. وضعت سوسن في مكان مكتبه التلفزيون، وعلى الناحية الأخرى حيث كان هناك فراش صغير جلسنا على أريكة ومقاعد وثيرة. بدت سوسن أصغر من عمرها بعشرة أعوام بعد أن أقلعت تماما عن التدخين وتناول الخمر. كانت ترتدي فستانا بسيطا أخضر اللون وتسير حافية القدمين. جلست سوسن على مقعد أمامه مسند للقدمين، وفردت ساقيها. قدمها فرعونية، طويلة ونحيلة، أصابع قدمها متقاربة في الطول. قعدت ياسمين بجواري على الأريكة. ناولت ياسمين هدية النجاح وهي عقد ذهبي وعين حورس لحمايتها من العين. انسلَّ شعاع من نور أضاء وجهها كله، قبلتني وقالت لي وهي في حالة من الانفعال الشديد:

ـ أتعرف أن هذه أول هدية ذهب أحصل عليها في حياتي. قالت لي أمي إنها سوف تشتري لي عقدا من الذهب عندما أتم العشرين من عمري ولكنك سبقتها في ذلك.

ـ لقد أتممت الثامنة عشرة من عمرك، وحان الوقت لارتدائك الماس وليس فقط الذهب.

أعشق انفعال البنات المبالغ فيه، هذه الحالة من الانتشاء والإثارة، ابتهاج وكأنها امتلكت الدنيا وما فيها. كانت هذه حالة ياسمين في هذه الليلة. حصلت على تقدير ممتاز في شهادة الثانوية العامة وسوف تلتحق بكلية الألسن التي كانت ترغب في الالتحاق بها، كما تمر أمها بفترة هادئة.

ابتسمت الحياة وهدأت الأمواج.

سألتني:

ـ هل تفضل البحر، أم البحيرة؟

ـ البحر.

ـ وهل تعرف ماذا يعني هذا؟

ـ لا.

ـ معناه أنك رجل لا يخشى المخاطر العاطفية، تتوق للإثارة ويمكنك التلاعب بعواطف الآخرين.

ـ وأنتِ ماذا تفضلين؟
ـ المحيط.
ـ يا للهول.
ضحكت وتذكرت أحاديث المراهقين الممتعة والتمتع بالمقارنات الساذجة بين الأشياء بعضها وبعض. قامت سوسن ووضعت الطعام على مائدة السفرة. كنت قد طلبت منها ملوخية بالأرانب، ووجدتها أعدت بالإضافة إلى ما طلبت طاجن فريك بالكلاوي، وطاجن بامية باللحم الضاني وتنويعة كبيرة من السلاطات. ولأن مستوى ما تقدمه سوسن من طعام ارتبط دائما بحالتها النفسية فكنا في هذا اليوم وكأننا نتناول طعاما طهاه أفضل طاهٍ في العالم، حتى اضطررنا إلى أن نأكل أصابعنا أيضا. عدنا إلى حجرة الجلوس وأنا أتأمل وجه ياسمين. لم تأخذ من جدتي لون عينيها الخضراوين، استقت اللون العسلي من أمها؛ لونا بين البنفسجي والعسلي، لكن هذا البريق الذي يشع من عينيها هو نفس بريق عيون بستان، جبهتها عريضة، شعرها غزير، حاجبها كثيف، فمها واسع والشفتان عريضتان، بشرتها بيضاء مشمشي وكانت أمها تعايرها بالقول إن السمرة نصف الجمال، وربما كانت كل الحلاوة وهي تشير إلى لون بشرتها السمراء. تبدو أن ياسمين وكأنها في الخامسة والعشرين من عمرها.
دخلت سوسن بعد أن شربنا الشاي أمام فيلم إسماعيل يس في مستشفى المجانين للحصول على قسط من الراحة قبل وصول الضيوف. مددت ساقيَّ فوق المائدة ووضعت رأسي على وسادة وضعتها فوق ظهر الأريكة. مالت ياسمين لتسند رأسها على كتفي. ساد صمت بيننا وعلا صوت التلفزيون وممثلة إغراء تَدَّعي أن كلب الجيران اختبأ في حجرة نومها. وضعت يدي فوق رأس ياسمين وبدأت أداعب بأناملي خصلات شعرها. اقتربت مني حتى التصقت بي تماما، ثم وضعت رأسها فوق صدري وأغمضت عينيها. أحطتها بذراعي وتلقت حواسي المشحوذة كل نبض لقلب ياسمين، استقبلت كل نفس، ومع كل حركة طفيفة تتحركها تفور دمائي. تحولت إلى جهاز لاستقبال صمت السكون. ثمة حالة فوران تجرى في دمائي. شيء غريب ومريب لكن بدا لي الكون خلابا. ملَّست بهدوء على أجزاء جسدها. ومع كل ضغطة كانت تموء بصوت لا يكاد يسمع وتزيد من التصاقها بي. بعد زمن لا أعرفه أدارت وجهها لتواجهني ووضعت قبلة على وجنتي. ارتعدت خوفا. أبعدتها وقمت أجري قائلا لها: إنني سوف أعود بعد ساعة.
لم أنم في هذا المساء، رسمت الأرق والأبواب وشيفا والثعابين وبيجاس وشفتي ياسمين والمفاتيح ووجه جنكيز خان ولون الأكاذيب، وأنا أتمنى أن أجد المفاتيح التي سوف تفتح لي يوما أبواب الفردوس. واشترت لوحة «شيفا والألوان الأربعة» زوفين.
* * *

تاج إينانا ربة السماء في مرآة الحمام

قيل على لسان مجهول في الذخائر العربية: الرجال ثلاثة:
رجل عاقل يأْتَمر في الأُمور إذا أقبلتْ، فإذا وقعتْ خرج منْها برأْيه.
ورجل ليس له رأي فإِذا وقعَ الأمر أتى ذا الرأي والمشورةِ فشاوره واسْتأمرهُ ثم نزل عند أمره.
ورجل حائر بائر لا يأْتمر رشدا ولا يُطيع مرشدا.
وبغض النظر عن إطاعة المرشد وهي ذميمة من الذمائم، فأنا أصبحت بعد لقاء استمرَّ عشر دقائق ولأول مرة في حياتي هذا الرجل الثالث الحائر البائر. لكنه بوار وهلاك كاملان. جاء هذا اللقاء بعد أن أتممت الخمسين من عمري بأسابيع قليلة.
خرجت زوفين وإينانا من مرسمي وأنا في حالة تيه يفوق في عنفوانه تيه الأربعين عاما. أتلعثم بين مصادفات الحياة والزمن اليسير بين كن ولا تكون، بين الانفجار العظيم والسكون الذميم.
بعد ثمانية وعشرين عاما انشقت البيضة وفقست.
هل هذا معقول؟

* * *

ظهرت «زوفين» في كلية الفنون الجميلة ونحن طلبة مازلنا. لفتت أنظارنا بمظهرها. كانت أطول من المعتاد، أكثر جنونا من المتعارف عليه، شعرها الأسود المنسدل يصل إلى عَجُزِها حتى يكاد ينافس ممثلات الهند، أما أنفها فأعظم شأنا ممن نعرف ضمن طَالبات الكلية. لكن أكثر ما جذبنا -نحن الطلبة الرجال- كان اتساع عينيها وسطوع السواد المطل منهما.
سألنا وقيل لنا إنها في القاهرة لمدة عام لجمع المادة العلمية لرسالتها في الماجستير.
ـ وما اسمها؟
ـ زوفين آسيا.
استغربنا الاسم فقيل لنا إنها من الحسكة في سوريا، ولكنها تعيش في إنجلترا.
ـ ومن أين جاءت بهذا الاسم الغريب وهي سورية؟
ـ إنها سريانية.
لم يكن أحد من الطلبة قد سمع هذه الكلمة من قبل. كنا مجموعة من الجهلة يرتدون زي طلبة.
عندما يهبط من أعلى كائن سماوي يتشكل جسده من العسل تلتف حوله دوائر من النمل. وكنت فردا من جيش الجراد الذي اقترب على أمل الاستماع إلى صوتها وهي تتحدث باللهجة السورية التي تتموج حروفها على مقامات القانون.

فاجأتنا في إحدى المحاضرات بالحضور بعد أن طلب منها الأستاذ أن تتحدث إلينا عن مشروع الماجستير، وتسأل إذا كان أحد من الطلبة يريد أن يمنحها يد المساعدة.

وقفت بجانب الأستاذ فبدا قزما بجوارها، وقالت لنا بصوت أسمهان:

ـ أبحث في موضوع جماعة الفن والحرية، والسريالية، وأعمال جورج حنين وأثرها على الفن السريالي المصري. أعيد قراءة ما كتب: «عن الوطن والولع بالبراز، الجنس الإباحي، الأدب». استمرت الجماعة عشر سنوات قدموا خلالها خمسة معارض تشكيلية من عام ١٩٤٠ إلى ١٩٤٥ وأعلنوا في معرضهم الأول: «في الوقت الذي لا يهتم فيه الناس في العالم أجمع إلا بأصوات المدافع، نجد أنه من الواجب علينا أن نعطي لتيار فني معين فرصة ليعبر عن حريته وحيويته». والآن وبعد أربعين عاما على هذه الكلمات أرى أنها الجملة الأكثر أهمية لكي يفهمها عالمنا خصوصا بعد أن ترسخ في ذهنه العقيم أنه يجب ألا يعلو صوت فوق صوت المدافع.

أنهت كلامها بالحديث عن جماعة الفن والحرية، وقالت إن كتلة الجليد تحت سطح المياه في هذا الموضوع أكبر كثيرا مما يمكن أن نراه، وإنها جاءت للقاهرة حيث تأسست الجماعة وحيث أقيمت المعارض الخمسة الفنية لتستكشف الخبيئة وتستجلي الغامض، فهل من مساعد؟

كنت أول من رفع يده لإعلان رغبتي في أكون مساعدا لها في جمع المادة. تعجبت أن عدد من تقدم كان أقل كثيرا مما كنت متوقعا. فأين إذن جيش النمل؟ من المحتمل أن رائحة البراز قد أبعدت الأغلبية من الاقتراب. بعد أسبوع كانت قد اتفقت مع ثلاثة طلبة للعمل معها. كنت الرجل الوحيد بينهم. أتتني حماسة ألهبت جسدي. سوف أسافر عبر الزمن وآتيها برمسيس يونان وكامل التلمساني وفؤاد كامل وجورج حنين هؤلاء الذين أضاءوا شعلة الجديد ثم أطفأتها تماما جحافل التتار الذين جاءوا لوأد كل ما هو جميل أمام لامبالاة جدي يوسف. لكنني سألتها على الرغم من حماستي:

ـ وهل يمكن أن تحيي العظام وهي رميم؟

ردت قائلة بحسرة:

ـ أعرف أن بقعة ضوء صغيرة لن توقف طوفان الظلام.

كنا موقنين أننا من القوم الخاسرين. في عام ١٩٤٠ وفي أثناء الدمار الشامل كان هناك شعور بالرجاء في الحرية، أما في عام ١٩٨٠ فلم يكن لدينا نحن طلبة الفنون الجميلة هذا الاستشعار بالأمل. أدركنا أن مهمتنا تتلخص في نقل الحديث عن الثورة المستمرة للجيل الذي يلينا، وليكن الحظ في صفه بعد أن تخلى عنا. تنتمي زوفين إلى المدرسة السريالية؛ ولذلك كان اهتمامها كبيرا بالحركة الفنية السريالية في مصر. أخذتني من يدي وشرحت لي ما استغلق على فهمي.

يا عزيزي.. أي فن لا يثير التساؤل والتعجب والاندهاش والصدمة في أذهان المتلقي لا يكون فنّا. تدرسون اللافن وترسمون الجمال البشع، ولكن أين

طريق كل فنان للتفكير وللحب وللبغض؟
لا شك أن حياتي رساما تنقسم إلى ما قبل زوفين وما بعد زوفين. سألتها:
ـ ما معنى اسمك؟
ـ زوفين هو «العطر» باللغة السريانية، وآسيا وهو اسم أبي معناه «الطبيب». فيمكن أن تقول إنني المداوي بالمسك.
ـ وأين رائحة البراز في كل هذا؟
ضحكت قائلة:
ـ اسأل جورج حنين، أو ربما أندريه بريتون.
زوفين سريالية في الفن والحياة، في المأكل والمشرب، في الداخل والخارج. تنظر في عيني وكأنها تغوص في أعماقي وتقول: إن الفنان لابد أن يكون سرياليّا أو لا يكون. فغير السريالي ممن يعملون في مجال من مجالات الفنون هم بالتأكيد يستحقون لقب موظف في الإدارة التجارية لمصنع باتا أو في الدعاية السياسية لأي نظام أو لمن يدفع، أما الفنان فيجب أن يكون سرياليّا، أن يستطيع التعبير عن العقل الباطن ويظهر مناطق اللاوعي بصورة غير رياضية أو منطقية. فلو كتبت أو رسمت وفقا لبناء محكم فأنت تقدم للأغبياء علبة شيكولاتة للاستهلاك السريع، عليك في هذه الحالة أن تعمل رقيبا مع الدولة، أو أن ترسم صورة طبيعية لوجه طفل ودمعتين على وجنتيه لاستجداء التعاطف المتخلف من المتسكعين في الشوارع وصناعة طابور أطول من المتخلفين عقليّا الذين يملئون الكون.
تلمع حدقتها بوميض متوهج، توقد يشبه الجنون. لا شك لو كانت تعيش في أوربا في العصور الوسطى لكان مصيرها الحرق بتهمة مزاولة السحر، أو مزاولة إخافة البشر بقوة عينيها. هل يلعب كحلها الأسود الفحيم دورا في هذه الحالة التي تشبه التنويم المغناطيسي؟
دعوتها في أسبوعها الأول على العشاء في منزلي مع خليل وسلوى وحسام وثورة ومهند ومها، وحضر العشاء برلنتة ورزق ولعة وأمي ولطيف، حتى جدي يوسف جاء ليتعرف لأول مرة في حياته على شابة سريانية.
دعوت الله أن تسلم من لدغة برلنتة القاتلة، والتي زادت حدة بعد وفاة بستان. تمنيت أيضا ألا تهجم زوفين على زوج أمي وتشرح له المقت التاريخي بين الفنانين ورجال الجيش من أمثاله، لكنها جلست بصورة تلقائية بجوار ثورة فكلاهما مهجَّر من بلده، وبين الشامي والفلسطيني دماء مشتركة. بعض أفراد عائلة ثورة قتلوا في مجازر إسرائيلية، وبعض أفراد عائلة زوفين ماتوا على يد الأتراك في مجازر قديمة. لكن في خلال دقائق قفزت زوفين من مقعدها وجاءت لتجلس بجواري وهمست لي: لا أتحمل تلك الثورة الخامدة.
كانت زوفين حرة إلى آخر مدى وثورة تسعى بصفة دائمة إلى أن تريح من تتحدث إليه، أن تخدمه. تكمن راحتها في سعادة الآخرين. إذا سألت ثورة: ماذا تشربين؟ فلن تفكر فيما تريد أن تشرب ولكن في أسهل شراب يمكن أن

تعده لها كي لا ترهقك، أو يمكن أن يكون ردها: وماذا سوف تشرب أنت؟ شخصية للبعض نموذجية، وبالنسبة إلى زوفين غرائبية.

بعد أن تناولنا الطعام، أخرجت زوفين من حقيبتها أوراق لعبة التاروت ونظرت إلى الجميع وفي أعينهم هذه النظرة المرعبة وقالت لنا:

ـ هل تعرفون لعبة التاروت؟

لم يكن يعرفها أحد فاستكملت:

ـ يقال إن هذه اللعبة جاءت من مصر أيام المماليك، ومنها إلى إيطاليا. كما كانت تلعب في الأندلس. لعبة أوراق عادية تضم إحدى وعشرين ورقة رابحة بالإضافة إلى المهرج. كل ورقة رابحة تحمل رموزا. لعبة للغوص في أعماق العقل الباطن.

سألتها ضاحكا:

ـ هل لعبة التاروت سريالية هي الأخرى؟

ـ بالتأكيد

ـ يحيرك كثيرا هذا العقل الباطن.

ـ على العكس.

ـ وباعتبارنا عائلة لها تاريخ طويل في الإيمان العميق بالعرافين؛ فقد انجذبت أمي وبرلنتة للحديث وسألت أمي:

ـ وهل يمكن أن تعرفي المستقبل من هذه الأوراق؟

ـ الكثيرون يستخدمون أوراق التاروت للتنبؤ بالمستقبل. هل ترون مثلا هذه الورقة؟

فتحت ورقة شفرة النجمة رقم ١٧. فتاة عارية ذات شعر أرجواني تمسك في يديها إناءيْن أحمرين وتقف أمام نهر بنفسجي، وفي السماء تلمع نجوم مختلفة الألوان وقالت:

ـ هذه الورقة حددت حياتي. النجم هو مرشدك نحو مجهول غامض يقودك نحو الأمل الساطع. لو ظهرت لأحد فيكم هذه الورقة ففي هذا بشرة لخطوتك القادمة في الحياة. هي الورقة التي تجلب الانسجام الكامل، شفرة النجمة سوف تغير حياتك للأفضل. هذا ما حدث لي.

تحولت الجلسة إلى طابور طويل ينتظر دوره ليجلس أمام الساحرة السريانية وهي تفتح لعبة التاروت. تتحدث في البداية باللغة السريانية، وبعدها تترجم إلى السورية العربية. عندما جاء دوري قالت لي:

ـ سوف تبحث عن نفسك ولن تجدها. لن تعرف معنى كلمة «صدق». تظل على حد السكين في حالة تمني أن تغوص في لاوعيك لكنك لن تمتلك الشجاعة أبدا للغوص. وعلى الخط الرفيع بين الفنان والتاجر سوف تتأرجح. كل خطوة سوف تخطوها في اتجاه السريالية سوف تتلوها خطوة مقابلة في اتجاه أن تبيع ريشتك لمن يدفع. أهم إنجازاتك إنجابك فتاة رائعة الجمال سوف ترث منك الفن، ومن أمها الإصرار على الصدق، وسوف تكون ما وددت

دائما أن تكونه.

انتظرت الابنة لكنها لم تحضر ورزقت بدلا منها بولد وحيد. أصبحت زوفين بعد هذه الليلة الضيف المرغوب فيه داخل منزلنا حتى تعرفت على كل تاريخنا، وأصبحت صديقة لبستان التي كانت قد تركتنا ورحلت منذ سنوات مضت، وحبيبة برلنتة التي لم تحرمها من بعض اللدغات.

سرت معها في طريق البحث عن خطوات رمسيس يونان، وعبد الهادي الجزار، وجورج حنين الذي رحل عن مصر وأنا في الرابعة من عمري. ارتحال يومي داخل ماضٍ رفيع قامت به من منزل إلى آخر في إصرار عجيب أثار إعجابي واندهاشي. لعبتها المفضلة في أثناء حوارنا مع من سوف تجري معهم مقابلة بخصوص جماعة الفن والحرية هي أن تسأل الشخص بعفوية: هل أنت من برج الميزان، أو الأسد أو غيره من الأبراج؟ وعندما يجيب بالإيجاب تبدأ في شرح بعض من خصائص هذا البرج في محاولة لوصف الشخص نفسه. الغريب أنها لم تخفق قطّ في التكهن بفترة ميلاد كل من تطوعت وسألتهم، حتى إنها أحيانا كانت تقول له: أنت في بداية زمن هذا البرج أو في نهايته. وبعد أن ينبهر بحديثها تبدأ في طرح الأسئلة الخاصة برسالتها في الماجستير. كانت تبحث عن الأفكار والجميع يتوق للحديث عن أسعار اللوحات والمخطوطات. بون شاسع يفصل بين عالمين.

قالت لي يوما:

ـ أكره رجال الأمن والجيش والشرطة، ورجال الأعمال والبنوك، ورجال الدين، يسيطر هؤلاء على عقول البشر؛ فهم يدفعون لنشر أكاذيبهم وينفقون ببذخ لكتابة التاريخ المقرر في المدارس والجامعات. وسؤالي بسيط: هل من الأفضل أن أنهي حياتي بيدي الآن؟

وقالت لي أيضا:

ـ نعيش حالة إغراق. طوفان من الأشياء وأشباه الأشياء أفقد الفن معناه. ألن يتوه في الطريق بيت شعر أصيل وسط ملايين الأبيات الزائفة؟ وحتى لو وجد السبيل لمن يريد تلقفه فلن يقلق أي شهريار؛ فطوفان القبح قادر ولا شك على طمس أي زهرة فواحة.

كانت زوفين تجيد التحدث باللغات التركية والفارسية والإنجليزية، بالإضافة إلى لغتيها الأم السريانية والعربية. واستطاعت في فترة سريعة إقامة علاقات صداقة مع عدد من الأجانب المقيمين مثلها في حي الزمالك. لم تمر ليلة إلا وهي مدعوة على حفل استقبال هنا وعشاء هناك وكنت أصاحبها في معظم هذه الحفلات؛ الأمر الذي نتج عنه ما لا يسر.

زارني في أحد الأيام وقبل أن أذهب إلى الكلية صباحا أمين شرطة ومعه استدعاء إلى أمن الدولة. ارتجفت ركبتي واهتزت كتفي وجريت إلى زوج أمي فطمأنني وطلب مني أن أذهب في الموعد. الزمن: العاشرة والنصف مساء. المكان: أحد شوارع حي الدقي. الموضوع: زوفين. من هي؟ ماذا تفعل في مصر؟ من قابلت؟ ماذا سألت من أسئلة؟ ولأننا في بلدنا الحبيبة مدربون

على الكذب في مثل هذه الأمور، ولأن الضابط مصري هو الآخر وأعرف أنه مدرب على ألا يصدقني بغض النظر عما أتفوه به من كلمات. فكان دورنا المحدد أن أكذب أكاذيب يمكن أن يصدقها، وعليه أن يبلغني أنه لا يصدق حرفا مما قلت، وأنه عليَّ أن أراجع نفسي.

سألني في نهاية التحقيق أن أكتب أسماء من قابلنا والأسئلة التي سألتها زوفين، وقبل أن يتركني أرحل طلب مني ألا أتفوه بكلمة عما دار بيننا وأننا في النهاية صديقان نسعى لحماية بلدنا من أجانب يمكن أن يكون دورهم إلحاق الأذى بنا وبأهلنا.

أبلغت في اليوم التالي زوفين بما دار في أمن الدولة. ضحكت قائلة: لا تهتم بهؤلاء المهووسين بالجاسوسية.

دعتني زوفين في أسبوعها الأخير في القاهرة على الغذاء في منزلها لأول مرة بعد أن عملنا معا قرابة الأشهر العشرة. فتحت لي الباب وهي ترتدي قميص نوم أسود اللون مطرزا بأحجار لامعة، وارتدت فوقه رداء فضفاضا من نفس اللون مطرزا بدانتيلا بيضاء. كانت المرة الأولى التي أرى عينيها غير مؤطرتين بالكحل فبدتا ذابلتين.

لم أكن قد رأيت رأى العين من قبل امرأة ترتدي ملابس نوم احتفالية بهذا القدر سوى في المسلسلات المصرية الهابطة. ولأن زوفين طويلة وعريضة ومهيبة؛ فبدت في مثل هذه الملابس وكأنها أميرة أتت من زمن سحيق.

سعيت على قدر الاستطاعة ألا أظهر استغرابي من سريالية ما ترتديه، وابتسمت ابتسامة واسعة على أمل أن تبتلع كل إيحاء آخر على وجهي. قالت لي بصوت أنثوي محبوب:

ـ طبخت لك مأكولات حلبية تظهر معزتي لك.

ـ أخاف على أصابعي فهي كل ما أملك.

طلبت مني أن أخلع الحذاء، ثم أن أخلع سترتي. سألتني بعد أن جلسنا:

ـ وماذا تنتوي فعله بعد التخرج؟

ـ ليس أمامي إلا أن أكون رساما.

ـ بالتأكيد. ولكن ألا تفكر في استكمال الدراسة؟ ماجستير؟ دكتوراه؟

ـ لم أكره في حياتي قدر كراهيتي للدراسة. أبشع اختراع أنتجته البشرية بعد أدوات الحرب والقتل والتعذيب. على أي حال، هو نوع آخر من التعذيب عن طريق مرضى ساديين.

ـ أتمنى أن تنتج فنّا منحطا.

ـ بالتأكيد فليحيا الفن المنحط.

كان بالفعل الطعام يأخذ العقل. مستوى آخر من الطبخ. فلتحيا حلب حرة مستنيرة. بعد أن أكلنا مباشرة سألتني ببساطة:

ـ ألا تريد أن تنام قليلا بعد الغذاء؟ لديَّ ثلاث غرف للنوم وأنام في واحدة فقط. وبعد أن تستيقظ يمكن أن أراجع معك بعض التفاصيل التي لم أدونها

في حينها في أثناء مقابلاتنا.
لا أنام عادة في وسط النهار ولكن أعجبتني الفكرة. دخل كل منا إلى حجرة. حاولت النوم ولكنني لم أستطع. خرجت لأشرب فوجدت باب حجرة نومها مفتوحا. رأتني فسألتني:
ـ أتجد مشكلة في النوم؟
لم تكن هناك إلا إجابة وحيدة. فقالت لي: تعالَ بجواري وأنا سوف أساعدك على أن تنام.
دخلت في فراشها فاحتضنتني بحنان، قبلتها فذاب الحنان وانقلب إلى جمرة نار، اندلعت بعدها نيران شبقة حتى انسلخنا وذاب الكحل فأغرق الجسد.
هذا ما كان.
لم أرها بعد ذلك سوى مرة بدعوى انشغالها بترتيبات السفر. ثم رحلت إلى إنجلترا وتبخرت بفعل هبوب رياح الخماسين على مصر. حاولت رؤيتها أكثر من مرة على مدى العقود التي تلت رحيلها عن القاهرة، ولكنها انماعت في ملكوت الله.

* * *

طرقات على الباب.
أجدها بعد قرابة الثلاثين عاما أمام مرسمي ومعها شابة جميلة.
أقول لنفسي: أين كنت يا زوفين؟
لكم تغيَّرت. باتت أكثر ضخامة واتسعت مساحة الكحل حول عينيها. لكن ظل الإشعاع الذي يطل من مسامها حاضرا كما كان.
ـ اشتقت إليك يا شهاب.
ـ وأنا كذلك.
ـ نحن في زيارة خاطفة إلى القاهرة. سألت عنك وها نحن هنا لإلقاء التحية.
ـ أما زلت تذكرينني بعد كل هذه السنوات؟
ـ كنت أسأل عنك بصفة دائمة. تتبعت مسيرتك الفنية باهتمام وأنت من نجاح إلى تألق.
ثم استطردت بابتسامة لطيفة:
ـ هذه ابنتي إينانا. إنها للأسف لا تتحدث العربية.
ـ دعينا نتحدث بالإنجليزية.
تبادلنا الحوار التقليدي عن مصر، فعرفت أنهما زارتا مصر أكثر من مرة من قبل. ثم قالت لي عرضا باللغة العربية إنها اكتشفت أخيرا أنها مصابة بالسرطان. ثم بعد عدة دقائق أبلغتني دون أن أفهم سببا لذلك بتاريخ مولد إينانا. وعلى الرغم من مستواي الضعيف في علم الحساب فإنه لم يكن من الصعب أن أعرف أن مولدها جاء بعد قرابة الأشهر التسعة من رحيلها من

مصر. تأملت وجه إينانا. إنها تشبهني. تشبهني تماما. نظرت إلى كفها الذي وضعته على المائدة، نفس تعرجات عظام كفي. شكل أظافرها أظافري. هذه المادة الصلبة التي تتكون من الكيراتين لها شكل يختلف من إنسان لآخر. ظفر محب يشبه ظفر أمه، أما هذه الفتاة فنسخة مني. فقدت فجأة القدرة على التنفس. استأذنت ودخلت إلى غرفة أخرى لاستجلاب عطف الهواء. خرجت إليهم مرة أخرى وأنا في حالة توتر واضحة، وتركتهما ينصرفان على أمل لقاء سريع.

اتصلت بي زوفين بعد ساعة من لقائنا وطلبت مني في حال قيام عزرائيل بقبض روحها أن أتابع مسيرة إينانا. قالت لي إن الفتاة لا تحتاج شيئا، فلديها المال والموهبة الفنية والقدرة والشخصية. ولكن يمكن أن تحتاج إلى نصيحة أو إلى معونة.

لم أسألها، ولم تصرح، لكنها ألمحت.

ظللت في حالة تشبه سكون موجة كهرومغناطيسية في فراغ مطلق. ذرة في حيز خالٍ من أي مادة. لا أعرف المدة الزمنية التي ظللت فيها خارج الكون، ولكنني عندما عدت إلى كوكب الأرض كنت إنسانا أكثر تعاسة.

دعوتهما على العشاء في اليوم التالي. مطعم فرنسي في قلب القاهرة تديره سويسرية، النبيذ هنا يمكن ابتلاعه. نعم، تشبهني إينانا بالفعل. هل تعرف ما لا أعرف؟ ألابد أن أسأل هذا السؤال البسيط.

ـ لماذا لم يحضر معكم والدك إلى أرض المحروسة يا إينانا؟

ـ لم أعرفه. اختفى بعد أن وضع نطفته في رحم أمي.

صياغة لغوية لم أتوقعها. قلت لها:

ـ هذا ممن نطلق عليهم رجالا أنذالا.

تدخلت زوفين في الحوار:

ـ لا نطلق الأحكام هكذا على عواهنها، ربما لم يعرف أنني أصبحت حاملا.

لم أخض أكثر في هذا الموضوع الشائك. تحدثنا عن الفن والسريالية وشاهدت صورا للوحات لإينانا. ظل صدى الصمت حاضرا في جلستنا. لم أستطع العودة إلى المنزل بعد أن تركتهم. توجهت إلى مرسمي ورسمت مع بزوغ أول شعاع ذهبي للشمس وجه إينانا، وعلى رأسها تاج الرباب وأنا أتابع صورتي في المرآة.

* * *

ضباع ونعام والبحث عن الأكسجين

انتفضت مذعورا. وجدت محب نائما كما هو والخراطيم ما زالت ممتدة في عروقه وأنبوبة الأكسجين متصلة برئته. يبدو أنني غفلت لدقائق بعد ثلاثين ساعة من الرعب الدامي. عاد لون بشرة محبوبي إلى الدرجة الوردية. وجهه هادئ. لكم أعشقه. تسلل صوت ضحى الخافت من الحجرة الخارجية وهي تكرر: اللهم إنّا ندعوك في ظهر الغيب. امنن عليه بالشفاء وردّه إلينا سالمًا من كل داء وبلاء. يا حنّان يا منّان يا ذا الجلال والإكرام، اللهم شافه وعافه إنّك نعم المولى ونعم السميع المجيب. أخذت عدتي وعتادي وجلست بجواره لأحرسه من عزرائيل. رفعت إصبعي مهددا ومتوعدا، ثم رجوت ملاك الموت إذا قرر زيارتنا فليقبض على روحي العجوز ويترك محب في حاله. يرقد ابني في المستشفى بعد أن تعرض لحادث سيارة داخل نادي الجزيرة الرياضي. صدمته عربة تسير بسرعة خمسة كيلومترات في الساعة. أمعقول هذا الأمر؟ كان ينظر إلى الجهة المقابلة ولم ير قدوم سيارة، أما السائق فقال لي: إنه كان ينظر إلى الخلف على أمل وجود مكان يضع فيه عربته. عندما اكتشف الرجل أنه صدم شخصا، توقف وعاد إلى الخلف متمهلا ليمرَّ على صدر ابني المستلقي على الأرض من جراء الصدمة الأولى. تضاءل حجم رئة محب حتى صارت في حجم المشمشة. يشاء المجيب أن يكون الإسعاف في النادي حاضرا ومعهم أنبوبة أكسجين ويتم إنقاذ محب. جلبة وصراخ. أقترب لأعرف سبب هذا الصخب واكتشف أن هذا ابني. هول ما بعده هول. انتقلنا من فورنا إلى المستشفى في سيارة الإسعاف. أنابيب صناعية وتنفس صناعي وعملية جراحية وانتظار ممض. سألت «إمحوتب»: كيف يتنفس وقد تقلص حجم الرئة إلى هذا الحد؟ رد «من يأتي في سلام»: تمسك بالعلم. بينما ذهبت أمي إلى خريستيانا وقضت معها الليلة في شقتها الجديدة في المنيل. اتصلت في اليوم التالي مستبشرة خيرا وقالت إن ماما رفيعة طمأنتها وقالت لها إن الشفاء التامّ قريب.

هل يمكن أن يضيع مني ابني في ثالث يوم العيد وهو في السادسة عشرة من عمره؟ لا يجوز يا رب العالمين. هل كنت له أبا حاضرا ومؤثرا؟ هل قضيت معه وقتا كافيا، أم هربت من مجلسه مكتفيا بإعطاء أوامر من بعيد؟ أمسكت يده وبكيت. تأملت قسماته الجميلة الآتية من بعيد. انتصر الجانب البافاري على المصري. لا تتركني يا محب. لم أشبع منك. أموت ألف مرة ولا تمس بسوء. هل كان عليَّ انتظار هذه اللحظة لأدرك كم كنت أبا فاشلا.

وضعت يدي على صدره أتحسس رئته. إنه يتنفس. سألته وهو نائم:

هل أعرفك يا محب؟

لا أظن.

* * *

هَلَّ هلال العيد وترنم صوت أم كلثوم: يا ليلة العيد آنستينا/ وجددتِ الأمل

فينا. أتذكر يا محب؟

لكم ضحكت وأنا أقص عليك ذكريات العيد مع رزق ولعة وحلاوة مذاق البسبوسة بالقشدة. سألتني عن زمن مضى وحكايات صبا عم رزق مع الفتيات الصغيرات والموسيقى. سألتك إذا كنت تحب أن نخرج سيرا على الأقدام وندور في شوارع وسط المدينة نأكل حلويات شرقية من أحمد عطية ونستمتع بالقاهرة الخالية من المارَّة والسيارات. ارتدينا أحذية رياضية وخرجنا ولدينا توق أن يجدد العيد الأمل ويأتي إلينا السعد. وكيف لا نأمل في الأفضل ونحن في عيد الألوان والملابس الجديدة وركوب الدراجات وألعاب الأطفال المفرحة والضحكات الصادقة؟ كان هذا هو العام الأول الذي تتخطاني في الطول، وصل طولك إلى المتر وتسعين سم. كنت يومها تبدو سعيدا بضخامة حجمك وصلابة قبضتك وعضلاتك المفتولة ودوران كتفك. سرت بجوارك وأنا أنظر إليك بفخر. كل ما فيك يا محب سويّ وجميل. كنت أظن قبل هذا اليوم أنني أعرفك: هادئ الطباع، خجول، لا تتحدث كثيرا، مبتسم، تمتلك الحجة عندما يحتد الحديث، محكم أخلاقيّا، بنيت سورا منيعا بين ما تعتقد أنه الصواب وما تتصور أنه الخطأ، تعشق الطعام الطّعم، تخطط بكل جد لتكون طبيبا للعظام، تمارس رياضة السباحة بانتظام، أراك متعلقا بأمك حتى ظننت أنك لم تفطم بعد. وفي مساء يوم العيد اكتشفت شخصية مختلفة تماما عما كان في مخيلتي. كنت الأب الذي يرى في ابنه ما يريد فقط أن يراه ويترك المنطقة الغاطسة دون تبصر. ما لم أكن على علم به كان أنت. هل كان من الممكن أن أتخيل أنك انضممت إلى «ألتراس أهلاوي»؟ تأملتك في وسط الصورة التي أخرجتها من حافظتك: على وجهك علامات الإصرار والتحدي، ترفع ذراعا بعلامة النصر وتمسك باليد الأخرى أحد الشعارات الثورية المطالبة بالتغيير. لم أصدق عيني. بالتأكيد هناك خطأ ما. هل ما أرى هو توأمك الذي تربى في عائلة لا نعرفها؟ يخلق الله من نفس الشبه أربعين نفسا. سألتك فأجبت ببساطة أنك تنتمي لجماعة المشجعين. لكنك يا محب لم تتابع يوما كرة القدم. جاء صوتك رقراقا كعادتك: أحتاج إلى أن أنتمي لجماعة من نفس عمري نتشارك في الأحلام، ونجبر من أغلق الأسبلة أن يتراجع. علينا أن نملأ الفراغ القاتل الجاثم على أرواحنا. دون فتح مسارات للتعبير عما تجيش به صدورنا لا معنى للحياة.

بون شاسع بين الشخصيتين.

أتعرف يا ابني الحبيب أنك ممن يطلق عليهم «رجل ذو وزن»، على عكس «رجل خفيف»؟ لطالما فكرت في الفارق بين هذين النوعين من البشر، وانتهيت إلى أن من لديه القدرة على رؤية درجات الطيف وهو يتأمل النفس البشرية وعلاقتها بمن حولها، من الأبيض إلى الحليبي والدخاني والخزامي والفضي والرمادي والفيراني حتى الأسود هو من نطلق عليه شخصا «ذا وزن»، أما من لا يرى سوى عدد زهيد من الألوان في تأمله للأفكار فهو من نطلق عليه «شخصا خفيفا». هذا بالتأكيد ليس ذمّا في الإنسان الخفيف؛ فأنا أعرف عن قرب بشرا على قدر كبير من الدماثة والطيبة ولكن هذا لا يمنع

أن أطلق عليهم هذه الصفة. أنت يا محب دون شك ذو وزن، شاب جاد يتألم على حال البلد ويفكر بإيجابية لإيجاد مخارج للوضع الكارثي الذي نعيشه، على عكس أبيك. لم أهتم حقيقة سوى بالفن والجمال، لم يشغلني الشأن العام كثيرا. نعم، كان انحيازي دائما للعدل والحرية، لكن لأنني لم أقرأ قطُّ عن حكم يتصف بالعدالة ويوفر مجال حرية فقد عشت فاقد الأمل في المأمول. هيمنة جماعات من القتلة أو من المؤتمرين بأمرهم على حكم البشر كانت القاعدة في تاريخ الإنسانية كله. هل يمكن أن أكون في اللحظة التاريخية التي سوف تغير مسار السياسة؟ لا أظن. ليس أمامي إذن سوى أن أتجاهل دوائر الحكم وأنشغل بمبدعي الجمال المجهولين، هؤلاء الذين ظلوا بلا أسماء، ولم يدخلوا حديقة الخالدين المحجوزة فقط لأصدقاء القاضين.

* * *

تأملت وجه ابني النائم وعدت بالذاكرة إلى رحلتنا القصيرة منذ يومين، سرنا في الشوارع شبه الخالية نتنسم أريج العيد ونأمل أن نتابع مهرجان الألوان، لكننا ويا للحسرة لم نرَ في الطرقات سوى ضباع ونعام. وضعت على الورق هجينا مما رأينا وما جنح خيالي به: صبية ضباع وفتيات نعام. لاحظنا تشكيلات متنوعة من الضباع الصغيرة غير المدربة تنهش الأسفلت في البحث عن أسراب نعام لافتراسها. تسير الضباع في تشكيلات هجومية ثابتة: اثنان في المقدمة، أربعة أو خمسة في القلب. ضبع صغير في الميمنة للمراقبة، وضبع في الخلف في حالة حركة دائرية مستمرة لالتقاط الإشارات. تتحرك التشكيلات مسرعة مصدرة أصواتا بهيمية أشبه بضحكات الآدميين المكتومة. تتالت من أمامنا تشكيلات متنوعة بشكل متسارع. أكثر من عشرين مجموعة من الضباع تتراوح أعمارها على الأغلب الأعم من أربعة عشر عامًا إلى ثمانية عشر عامًا. صبية لم يمتلكوا بعدُ خبرة الهجوم الحكيم، أو ما يطلق عليه في عالم القنص بالقتل الرحيم. هجم خمسة فتيان بصورة غشيمة على نعامتين مسالمتين. كسروا قدم نعامة، وقاموا بتصفية عين الأخرى. لم تأكل الضباع ولم تمت النعامتان. بعد إتمام الهجوم الأول استكملت الجماعة الهجوم على فتيات أخريات دون كلل أو إشباع لرغبة. من أين يأتي الكلل والضباع صغيرة وفي حالة استكشاف لمتعة التفرج على الدماء؟ أما أفراس النعام فهن يسرن بتمهل، وفي كثير من الأحيان برعونة، دون خطط دفاعية حصيفة. أعدادهن أقل قليلًا من مجموعات الضباع. تتكون في الأغلب جماعات الأفراس من ثلاث فتيات صغيرات، مبتسمات. يباغتهن الهجوم الضاري. تحاول نعامة أن تدافع. تمتد يد. تنطلق صرخة مكتومة. ينهش فك شرس لحم عنق. تسيل دماء. تنتشي القوى المهاجمة. تتجمد الأفراس في مكانها من الرعب وكأنها تستسلم لموتها. لا تعرف الضباع الصغيرة ما عليها أن تفعل بعد هذه المباغتة. يقطعون الشارع إلى الرصيف الآخر. يستكملون المسير. أما الأفراس فتنتظر أن تبتعد القوة المهاجمة. ثم يستكملن التقدم، هذه المرة بتمهل أكبر. تسيطر حالة هوس انفعالي جماعي على شوارع المدينة. يسير ولد وبنت هنا وهناك، تهيمن حالة حب

جميلة على خطواتهم. أعمارهم لا تتجاوز العشرين. البنت مستسلمة لوجود حبيبها في ذراعها. أما الأسد الذي لعب سابقا دور الضبع فيعلم تماما مواطن الخطر. عيناه حائرتان تدوران في حلقة كالساقية، مرتابتان وسط ذبذبات النشوة المرعبة.

قلت لي إنك بعدما رأيت وشاهدت تحمد الله أنك لست امرأة. يتطلب الأمر شجاعة كبيرة أن تكون أنثى في عالم من الضباع ذوي الرائحة النتنة.

وصلنا إلى شارع الألفي. مقاعد المقاهي مصطفة تملأ الشارع. بائعون على الأرصفة يبيعون ألعابا من البلاستيك تشبه الألعاب التي كانت تباع إبان الحرب العالمية الثانية. هجوم جاد من صبية المقاهي على كل سائر على القدمين: «اقعد هنا». كل خطوة بهجوم من أحد العاملين على أمل أن تجلس وتطلب وتدفع. في هذا الزحام الشديد المنظم من صبية المقاهي، تسير جماعات الضباع وهي تعلم أنها هنا بلا أظافر حقيقية. يكتفون وسط الزحام بهمهمات حيوانية من العصور الجيولوجية الأولى. تنتشر أوانٍ من الفخار مغطاة بقطع صغيرة من القيشاني، المقصود منها أن تحتوي على زهور أو نباتات زينة. ولكن النبات تمَّ خلعه، لتجلس عليه نساء تخطت الأربعين من العمر. امرأة منهن كان وزنها يتخطى مائة الكيلوجرام وقد خلعت حذاءها وفردت ساقيها أمامها. اقترب منها ضبع لم يلتفت في البداية إليها. وعندما رآها ارتدَّ مبتعدا. ضحكت يا محب وأنت تتساءل: لماذا لا تقوم هذه النسوة بحماية الفرائس الصغيرة في الشوارع غير المزدحمة فهن كفيلات بردع الضباع، أو حتى بالتهامهم أحياء؟

قلت لك: لم يبقَ من منازل صباي غير العنف الكامن والنشوة المرعبة لاحتفال بعيد فطر بهيج. مَرَّ رجال شرطة يتفقدون موطئ رزق محتمل، قلت لي:

ـ أتخاف من الشرطة كما نخاف؟

ضحكت قائلا:

ـ هم ضباع بنادقهم في يد وسلطة القانون في اليد الأخرى، أمامهم كلنا نعام وفرائس.

ثم سألتك بعد أن سرنا طويلا:

ـ كيف تفسر كل هذا العنف الذي شاهدناه؟

ـ غياب منافذ للحياة. لو لم يجد كل واحد فينا متنفسا للموهبة التي يتمتع بها فسوف ينتهي به الأمر مسجونا داخل زجاجة ترضع هواء فاسدا.

ـ أتسعى لإيجاد تبرير لتحول الصبية إلى ضباع شرسة؟

ـ عندما يختفي الأكسجين توقع الأسوأ. عندما ينغلق المجال العام اعرف أن ما شاهدناه ليس إلا مقدمات لتفجر الغضب.

تحدثت يا محب عن الأكسجين قبل أن تفقد كل الهواء من صدرك وتضطر الآن أن تنام وبجوارك نائمة أسطوانة مستطيلة الدوران تمنحك الهواء اللازم

للحياة. لكم نحتاج إلى هذا العنصر الكيميائي عديم اللون وعديم الرائحة والذي يحمل معنى غير مفهوم: «الذي يُوَلّد الأحماض». نحتاج من يولد الأحماض كي نرتفع فوق الأرض ولو قليلا، نحلق ونصبح أحرارا ونهرب من هول ما يجري على الأرض من بربرية الضباع الكبيرة؛ لنتخلص من الغباء المستحكم الحاكم ونلتقط حبات الدر المنثورة بين الكواكب البعيدة.

* * *

استيقظ ابني في اليوم التالي وما زالت رئته في حجم المشمشة. أعطاه الطبيب عُودا مجوَّفا من البلاستيك به ثلاث كريات وطلب منه أن يضع العود في فمه ويشفط الهواء قدر استطاعته. لو شفط الهواء بقوة كبيرة فسوف تصعد الكريات الثلاث، وبقوة أقل كرتان، أما لو سحب الهواء بضعف فلن تصعد سوى كرة واحدة. ظللنا ضحى وأنا بجوار محب لدفعه إلى سحب الهواء من العود المجوف. كرة واحدة فقط. اسحب بقوة أكبر. كرة واحدة مرة أخرى. أرجوك ابذل مجهودا أكبر. يوم وآخر وما زالت الرئة في حالة انكماش. كل يوم يمر دون عودة الرئة إلى حجمها جحيم لم نعرفه من قبل. مَرَّ أسبوع من شفط العود المجوف حتى أصبحت بصورة لاإرادية أشفط أنا الهواء وكأنني أساعد ابني على إجبار رئته على العودة السالمة للحجم الطبيعي. رسمت أمام فراشه لوحة «ضباع ونعام» ووضعت في الوسط رئة ضخمة يحيطها هجين بين رتبة الرئيسيات وفصيلة الضبعيات والطيور في تداخل صفاتهم وأشكالهم. اعتبرت الرئة هي المقابل المأمول في صراعها ضد الضباع التي تسعى لافتراسنا.

أبدى محب إعجابه بما رسمت وقال لي:

ـ عندما داست السيارة على صدري ولم أستطع التنفس أدركت كم نحن معلقون بين زفير وشهيق. نخرج ما في جوفنا من أكسجين فنشعر بالاختناق، ثم نبتلع هواء يمنحنا الأمل. موت يليه حياة.

ـ هكذا حياتنا انتقال دائم من ضيق وسقم إلى براح واتساع.

ـ لم أعد أرى براحا. سرقوا مني الهواء.

سألته:

ـ قل لي كيف أرسم الأكسجين؟

ـ كيف ترسم ما لا وجود ماديّا له؟

يتحرر الفن عندما يتحرر الفنان من نقل ما تراه عينه، لكن أسفي كبير أن الإنسان لم يتحرر بعدُ من الفكرة السخيفة المسماة «حقيقة». لا توجد يا محب حقيقة ولا يوجد واقع وإنما انعكاسات لانهائية من تصورات وخيالات وأفكار الإنسان عن نفسه وعلاقته بما حوله.

ضحك قائلا وسألني: وكيف إذن سوف ترسم الأكسجين؟

ـ الرجاء في عيني النعامة.

بعد عشرة أيام ودون مقدمات، عادت الرئة إلى حجمها ولكنه ما زال يبحث

عن الأكسجين ولا يجده.

* * *

الوقواق في عزاء الصالون النحاسي

معركة نحاسية الجرس داخل صالون نحاسي بين أعمامي وأبناء أعمامي في منزل أبي المتوفَّى من ساعات قليلة، يتابع المعركة أبناء عمومته. يرتدي أعمامي الأقبية التترية، تمر حاشيتها على الصدر من اليسار إلى اليمين، يُمنطق الحياصة وهو حزام من المعدن الوسط، ويُلبس أبناءه زي مماليك الأمراء وعلى صدورهم دروع نحاسية، أما أبناء عمومة أبي فهم أجناد الحلقة يرتدي كل منهم فرجيات من لؤلؤ. فوق الرءوس طواقٍ تجمع بين اللونين الأصفر والأحمر. يقبض الرجال على سيوف وخناجر ورماح وأقواس، بينما يحلق طائر الوقواق عاليا لمتابعة مصير المعركة. ومن بعيد رسمت نفسي في أقصى يسار اللوحة وأنا أرتدي معطفا تركيّا ذا أكمام واسعة وطويلة. اللون الأحمر والأصفر غالب والدماء زرقاء تنزف من أجساد الرجال.

حضرت هذه المعركة وشاهدت تفاصيلها وجسد أبي في قبره ما زال ساخنا.

* * *

تلقيت في هذا الصباح مكالمة هاتفية. صوت متهدج أفزعتني نبراته على ريق النوم.

ـ البقية في حياتك.

ـ صباح الخير.

ـ فقدنا والدك الحبيب منذ دقائق.

لم تخرج الحروف من حنجرتي. فاستكملت حديثها:

ـ تعالَ من فورك.

كانت السيدة عائشة زوجة أبي تعلمني برحيل زكي الشمندر في قريته البطالحة.

بدأ أبي إذن خطواته الأولى عبر الطريق البري الأسود نحو ما وراء غروب الشمس، سوف يجنح بعدها إلى الممر الأزرق المائي ويستكمل طريقه حتى يصل إلى العالم الذي لا نعرفه.

عاد أبي إلى مصر منذ أربعة أعوام بعد أن تعرض لانتكاسة مرضية من حالة فشل كلوي بعد أن أقام في بلدان عربية مختلفة طيلة عقود طويلة. زرته بعد وصوله مباشرة وتعرفت خلال هذه الزيارة لأول مرة على زوجته. تزوج أبي عائشة منذ نحو عشرين عاما عندما كانت في الخامسة والثلاثين من العمر بعدما طلقها زوجها الأول. فلاحة من قرية لا تبعد عن البطالحة سوى عشرة كيلومترات. بشوشة الطلعة، متوسطة الطول، تَوَقُّدُ ذكائها في لمعان عينيها بادٍ. رحبت بي ترحيبا دافئا، احتضنتني وقبلتني ثم نادت على أبي قائلة: ابننا الحبيب شهاب وصل. خرج أبي متجهما وسلم عليَّ باليد دون أن يقبلني. سألني دون مبالاة عن الأحوال. تحدثت قليلا، وفي وسط حكاية عن حفيده

الوحيد محب، طلب من زوجته أن تحضر له صحف اليوم وتركني جالسا أمامه وبدأ في قراءة الجرائد. لم أعلم ماذا عليَّ فعله. تدخلت عائشة وسألتني عما أريد أن تطبخه لي وأثبتت بعد ساعتين أنها طباخة لا يشق لها غبار.

تعجبت من سلوك أبي العدواني، ولكنني عرفت لاحقا أنه يمر بحالة اكتئاب، فقد تدريجيّا القدرة على التواصل مع البشر، وربما فقد التركيز الكافي لإقامة حوار. تقطع الخيط الرقيق الذي يربطه بمن حوله من بشر. ينغمس بعد خمس دقائق من الحوار داخل بقعة مظلمة يخرج منها أحيانا وفي الأغلب يظل داخلها لفترة طويلة من الزمن. لا شك أن المرارة لوَّنت بلونٍ قاتمٍ الجذورَ التي تربطني به. لم نتواصل لعقود طويلة بسبب إصرار أمي الغبي على أن أبتعد عنه. وإذ فجأة أسعى لرأب الصدع. قدمت للأسف متأخرا.

سافرت إليه بعد نحو شهر واصطحبت معي حفيده محب لكي يتعرف على جده. ولكنه ظل في هذه المرة أيضا معظم الوقت يقرأ الصحف. قامت زوجته بواجبات الضيافة على أكمل وجه بما يليق بفلاحة مصرية أصيلة، وزارنا في هذا اليوم عدد من أعمامي وأبناء أعمامي، وأعدت التعرف على صالح ابن عم أبي الذي قاد السيارة يوما وأنا ما زلت صبيّا في أثناء محاولة اختطافي.

عاودت الاتصال بأبي بعد ذلك أكثر من مرة، لكن بدا لي أنه في مرحلة اكتئاب حقيقية.

اشترى أبي بمدخرات عمره أراضي زراعية في البطالحة، وبفضل نشاط زوجته وحسها التجاري بنى منزلا على النيل من أربعة أدوار. حمدت الله وشكرته كثيرا أنه استطاع التكيف مع الأحوال المصرية بعد سنوات الغربة الطويلة. ثم عرفت من زوجته ثم من صالح الذي بدأ يتصل بي هو الآخر أن حالة أبي تدهورت في العام الأخير حتى أصبح لا يقوى على الخروج من المنزل في الأشهر السبعة الماضية. كررت عائشة اعتذارها عبر الهاتف لعدم اهتمام أبي بالاتصال بي مبررة ذلك بمرضه، وأوضحت أن تقلباته النفسية أصبحت أكثر حدة وعنفا من تدهور حالته الصحية. قلت لها إن جسر المحبة بين الأب والابن يتم تشييده بصبر وأناة عبر الزمن، ولو توقف أحدهما عن رعاية الجسر يتداعى البناء. في حالتنا كنت أنا من لم يبذل الجهد لرعاية جسر المودة. أنا الملوم.

أيقظت ضحى وأعلمتها بوفاة والدي. احتضنتني وطلبت مني أن أبكي لو أردت. لم تكن هناك دموع. سألتني إذا كنت أفضل أن يسافر معي محب. أجبتها بالنفي.

لم يكن جثمان أبي قد استقر في مقره الأخير عندما وصلت إلى البطالحة. حملت زكي الشمندر على كتفي وصوت هادر يلف المكان:

«اللهم أرجع نفسه إليك راضية مرضية، وأدخله في جنتك مع عبادك الصالحين. اللهم وأظله تحت عرشك يوم لا ظلَّ الا ظلك ولا باقي إلا وجهك. اللهم بَيّض وجهه يوم تبيض الوجوه. اللهم وثبت قدمه يوم تزل فيها الأقدام. اللهم اكتبه عندك من الصالحين والصديقين والشهداء والأخيار والأبرار».

نزلت الدرج إلى الحجرة الداخلية في مقبرة الشمندر، سعيت قدر الاستطاعة أن أمنع نظري من تأمل تفاصيل المكان. وضعنا جثمان أبي وقرأت الفاتحة.

وقفت أمام المقبرة مع أعمامي وأبناء أعمام والدي في صف واحد نتلقى العزاء. لم أكن على علم أنني قد وقعت في فخ خطة جهنمية لخلع كتفي وتحطيم عظام كفي. طابور لا ينتهي من رجال أشداء يمسك كل واحد فيهم بيدي وكأنني ملاذه الأخير في هذه الدنيا الفانية، يشد عليها بعنف صعودا وهبوطا وهو يتمتم بحروف لا أسمعها وكيف أسمع وجسدي كله يهتز من فرط قوة المصافحة. في البداية كنت أصدر صوتا خافتا يشبه «في حياتك البقية» ثم توقفت عن إصدار همهمات واكتفيت بهز الرأس في تأثر. كان تأثري أساسا من الألم غير المحتمل الذي يتسلل إلى عظام ذراعي. ثم لاحظت بعد أن أخذني الإنهاك إلى المنتهى أن هناك من يصافحون من يتلقون العزاء ثم يعودون مرة أخرى للوقوف في طابور المعزين للمصافحة مرة جديدة وقد استعادوا قوتهم الجبارة. عرفت بعدها أنه كلما كان الطابور ممتدّا ارتفعت عزوة الميت. سوف أترك لخيالكم المجال لتصور مدى قوة عضلات هؤلاء الفلاحين الذين اعتادوا رفع الفأس في وجه الأرض السوداء كما اعتادوا خفضها أمام السلطة، يرتبط أهالي البطالحة مثلهم مثل أهل الريف بالعادات المرعية في هذه المناسبات؛ ولذلك ظل عدد المعزين في زيادة لمدة طويلة حتى تساءلت إذا كنت سوف أستطيع مرة جديدة أن أمسك فرشاة لأرسم. انتهى الطابور أخيرا وتوجهنا إلى منزل أبي. كانت عائشة قد أعدت وليمة فتة باللحم يمكن أن تكفي لأبناء القرية كلها. أجلسوني بجانب الشيخ عبد الرحمن إمام مسجد الشمندر الذي سوف يقرأ لاحقا آيات بينات في سرادق العزاء. التهم الرجل وحده نصف بقرة وأنا أتعجب من قدرته على ابتلاع الطعام دون مضغه. جلس بجواري صالح الذي أدرك غربتي في هذا المكان.

انتقلنا بعد الغذاء إلى الصوان الذي تمَّ نصبه في إحدى ساحات القرية وعشرات الشباب يستكملون وضع مقاعد مذهبة في المنطقة التي سوف يجلس فيها أبناء عائلة المتوفَّى. بدأ الشيخ عبد الرحمن في القراءة. وبدأنا مرة جديدة مشروع التسليم بالأيدي وتبادل الهمهمات، لكن في هذه المرة تمت إضافة الأحضان والقبلات ومزيد من جمل العزاء وأحمد الله أن المصافحة كانت أكثر حنية.

* * *

توجهت مع صالح إلى منزل أبي بعد انتهاء العزاء. جلسنا في غرفة واسعة كل ما فيها نحاسي اللون: الموائد أطباق دائرية من نحاس تحتها حامل خشبي، سور من القرآن الكريم محفورة في صفائح من نحاس معلقة على الحيطان، الأرض مفروشة بحصر لونها نحاسي. توافد الأعمام وأبناء الأعمام واحدا وراء الآخر. لفنا الصمت لبرهة في الصالون النحاسي حتى دخلت علينا عائشة واستأذنت الحضور وطلبت مني الدخول معها إلى حجرة داخلية.

سرت معها في ممرات طويلة حتى وصلنا إلى غرفة نوم أبي. أجلستني

على فراش نحاسي عملاق وجلست أمامي على مقعد صغير دون ذراعين ولا ظهر؛ هذا النوع من المقاعد الموجودة في حجرات نوم بدايات القرن العشرين.

قالت لي:

ـ رحمة الله واسعة.

ـ البقاء لله.

صمتت لوهلة ثم تكلمت بصوت هادئ:

يجب يا بني أن أصارحك بالحقيقة.

تفضلي.

ـ أبوك كان رجلا مفتريا وجبارا.

لم أتوقع على الإطلاق هذا المدخل في الحوار. لزمت الصمت فاستكملت:

ـ لم يكن والدك يحبك. أنت ابنه الوحيد، ولكنه لم يفكر فيك ولو للحظة قبل وفاته.

ـ لديه الحق فأنا قصرت معه. أنا المخطئ.

ـ كما لم يكن يحبني أنا أيضا. كان رجلا قاسي القلب.

ـ ماذا فعل معكِ؟

ـ ماذا فعل معنا؟ لقد باع كل يملك من أرض زراعية لإخوته وبعض أبنائهم بعقود سجلها في الشهر العقاري. باع شركته كذلك لأخيه. والأدهى أنه باع الدور الثالث من هذه العمارة التي نعيش فيها لسيد وباع الدور الرابع لمحمود.

ـ الحياة أسرار ولابد أنه يحتاجون منه هذا الدعم. كان يعرف -الله يرحمه- أنني في وضع مالي مريح.

ـ أبوك كان شديد الثراء وصمم ألا يترك لك أو لي مليما واحدا.

ـ يتبقى لك الدور الأول والثاني.

ـ هذا ما أود الحديث معك بشأنه.

ـ تفضلي.

ـ فاجأ المرض الأخير والدك فلم يجد متسعا من الوقت لتسليم عقد الدور الأول والثاني لمصطفى وسعيد. أمرني قبل وفاته بساعة أن أحضر ظرفا بني اللون من دولابه، وأعطاني المفتاح الذي لم يكن يفارقه. ثم طلب مني بعد أن أحضرت له المظروف أن أسلمه لسعيد دون أن أفتحه. ثم طلب مني أن أحلف بالله أن ألتزم بأمره. مات الرجل وكنت أعرف طبيعة الأوراق المختبئة: عقود بيع الدور الأول والثاني ولا شك عندي في ذلك. تسليمي هذه الأوراق معناه فقداني لسكني.

تفرستْ في ملامحي لوهلة، ثم أخرجت من تحت مرتبة الفراش المظروف البني وسلمته لي وقالت:

ـ لقد ذهبت إلى الشيخ عبد الرحمن شيخ مسجد الشمندر الذي بناه والد جدك العظيم. حكيت له القصة بالتفصيل وطلبت منه الفتوى بما أنزل الله. قال لي إنه لا يمكن الاعتداد بحديث الرجل في سكرة موته، وإنه حرام شرعا أن يوزع تركته بنفسه فالله جلَّ جلاله شرّع الميراث. اتفقنا في النهاية أن المشورة شورتك باعتبارك ابنه الوحيد. فقل لي ماذا أفعل؟ لو طلبت مني تسليم العقود إلى عمك سعيد لفعلت ذلك الآن، ولو أمرتني بإحراق هذه الأوراق لحرقتها أمامك.

وهل لديك مكان آخر تعيشين فيه؟

ـ يمكنني أن ألتحف السماء، إذا أمرتني أن أفعل.

ـ أقترح أن تتخلصي من هذه الأوراق طالما الشيخ عبد الرحمن لم يجد في ذلك مخالفة شرعية.

أنارت وجهها ابتسامة عريضة، وقامت وقبلتني واحتضنتني وتلون صوتها وهي تقول لي:

ـ أدام الله بقاءك، وحفظك من كل سوء.

ألقت المظروف في صندوق معدني وأخرجت كبريتا، وأحرقت العقود أمامي وطلبت مني أن أخرج إلى أعمامي.

خرجت إلى الصالون، ووجدت أعين أعمامي متلهفة لأحكي لهم عما دار بيني وبين زوجة أبي. بدأ عمي مصطفى الحديث:

ـ قبل أن تخرج زوجة أبيك من الخارج يجب أن أحذرك منها. عائشة لئيمة كطائر الوقواق الذي يضع بيضه في عشش غيره، فهي مثله تغير بصفة دائمة على ما لا تمتلك. عرفنا أن أباك توفيَ ظهرا ولم تعلمنا إلا في المساء، ثم أبلغتك في صباح اليوم التالي. ماذا فعلت طوال النهار؟ لماذا أخفت الخبر؟ كان أبوك -رحمة الله عليه- في شهوره الأخيرة لا يقوى على الحركة فقام بعمل توكيل قانوني يمنحها حق التعامل مع حساباته المصرفية. بالطبع كانت لا تجرؤ في حياته على أن تحصل على مليم واحد، ولكن بعد وفاته من يعلم ماذا فعلت؟ هي -في النهاية- أموالك؛ ولذلك وجب تحذيرك.

نظر لي صالح نظرة حاول أن تكون نظرة جادة وقال لي:

ـ لا أحد فينا يعرف في أي المصارف كان يضع أمواله. لا شك أنها سحبت من رصيده. سألناها اليوم فقالت إنه يتعامل مع مصرف واحد فقط. ونحن نعرف أنه كان يضع أمواله في أربعة بنوك. هذا معناه الوحيد أنها سحبت ما لديه من أموال من البنوك الأخرى.

عند هذا الحد من الحديث، خرجت عائشة إلى الصالون فلزم الجميع الصمت. جلست عائشة بجواري وسألت الجميع:

ـ وماذا سوف تفعلون في ميراث شهاب الذي حصلتم عليه؟

ردَّ أحد الأعمام:

ـ لم نحصل على شيء. إنها عقود بيع وشراء.

ـ أتقبلون أن يوزع المرحوم ميراثه بنفسه خلافا لشرع الله؟
ـ إنها حسابات عائلية لا تعرفين عنها شيئا.
ـ والبنكنوت؟
ـ أي بنكنوت؟
ـ نصف مليون الجنيه الذي أخذه صالح.
ردَّ صالح بحدة:
ـ لقد أعطاني زكي هذا المبلغ، وقال لي: سوف أعلمك لاحقا ماذا تفعل به.
سألته أنا:
ـ وهل أعلمك؟
ردَّ قائلا:
ـ لم يفتح معي الموضوع مرة ثانية
فقال له عمه:
ـ إذن يجب أن تعيد المبلغ للورثة الشرعيين.
أجاب بحدة:
ـ لم يطلب مني زكي ذلك.
سألته ثانية:
ـ وكيف يمكنه الآن أن يبلغك بما يجب أن تفعله بالمبلغ؟
ـ لا أعرف، ولكنني لن أعيد هذا المبلغ. كان حديثه معي واضحا: دع هذا المبلغ معك، وسوف أعلمك لاحقا ماذا تفعل به.
قال أكبر الأعمام:
ـ إنه حق الورثة.
ردَّ صالح:
ـ كل واحد فيكم أخذ نصيبه، وهذا نصيبي.
ثم خرج منفعلا.
قالت عائشة:
ـ جميعكم تأكلون المال الحرام دون مراعاة لدين ولا رابطة دم.
ردَّ عمي:
ـ اخرسي تماما. لا أريد أن أسمع صوتك.
ردَّت بحدة:
ـ أنا لست مسامحة في التهامكم مال النبي. ابنه أمامكم، لن يسامح ما خططتم من حيل لأكل ميراثه الشرعي.
فوجئت بحشر اسمي فجأة. كان يجب أن أتخذ موقفا بين الرأيين. فقلت بصوت منخفض:
ـ ما حدث لا يمت للشرع ولا للأخلاق بصلة، لقد تحايلتم بالفعل للحصول على ميراثي.

احتد الحوار ووصل الأمر إلى شتم المتوفّى والتمني في أن يصلى في نار جهنم. حاول عبثا مصطفى وسعيد أن يجدا وسيلة للعثور على ثغرة تسمح لهما بإيجاد عقود بيع الدور الأول والثاني دون جدوى.

لم أستطع الصمود طويلا. هربت من منزل والدي متمنيا ألا أعود إليه ثانية، وتركت المعركة في روحي جروحا لا تبرأ.

* * *

نساء أربع في الإمام الشافعي

فشل ذريع ممتد عميق أوصلني لحالة حزن دفين ثم إلى اكتئاب جازم. لم تدهش لوحات معرضي التشكيلي الأخير أحدا. لا أصدقائي ولا النقاد ولا الجمهور. عملت لمدة عامين في مشروع ظننت أنه قريب للناس بقدر قربه لي: عالم المطبخ. تخيلت قاعة ضخمة واحدة في جميع اللوحات، في كل مرة نراها من منظور مختلف. مطبخ من نهاية القرن التاسع عشر، الحيطان مدهونة بطلاء برونزي، والأوعية النحاسية تلمع في المكان. مناضد تسخين بالبخار، شواية ضخمة في الوسط. أكوام من الأطباق المتسخة وبقايا نبيذ في عشرات الأكواب الزجاجية. الطباخ عملاق يده مغطاة بالبثور، وأذناه أذنا شمبانزي، مساعده الأول أعور، مريض بمرض البهاق، والمساعد الثاني متعجر الأنف، والثالث يعاني من التهاب العنبية الشامل. في كل لوحة وجبة مختلفة. بطاطس مهروسة، كوسا وعرق اللحم، سبانخ، بازلاء وجزر، باذنجان وفلفل رومي، خرشوف. صحيح أن الألوان قاتمة، وأمراض الطباخين معدية، والطعام ذو شكل قميء، وبراز ظاهر في جوانب كل لوحة، لكن الأهم هو الأسلوب الفني الذي سلكته في رسم هذه المجموعة والتشابهات الممتعة بين مطابخ الحياة. لكن لا مجيب لمن ينادي.

دبَّ خلاف بيني وبين صاحب القاعة العارضة، وفي اليوم التالي لتاريخ نهاية المعرض سافرت ضحى ومعها محب إلى ألمانيا لقضاء شهر ونصف الشهر مع أهلها في قريتها البافارية. ودعتهما في المطار وأنا أفكر في الانتحار، وكالعادة كلما هجمت جحافل الجراد تلتهم خلايا مخي اتصل بي صديقي خليل وكأنه على موعد دائم لمحاربة جرادي بخفة ظله. قال لي ضاحكا:

ـ الفشل أول طريق النجاح؛ فلا تيأس.

ـ تنفع هذه المقولة العتيقة لمن هم في سن أولادنا.

ـ أنت نجم صغير ما زال يلمع.

ـ أنا شخص ميئوس منه.

ـ قلت لك ألف مرة: انسَ زوفين وإينانا. منذ رأيتهما تغيرت رائحتك وظهر البراز في لوحاتك.

ـ لا داعي للمزاح الآن.

ـ الشاليه في مارينا خالي الوفاض خلال شهر يولية. قررت زوجتي أنها لن تسافر إلا في بداية أغسطس. أقترح عليك أن تسافر مارينا للاستجمام. سوف أمر عليك غدا لأعطيك مفتاح المنزل، وسوف أخطفك في رحلة قصيرة إلى العين السخنة لأنني أفكر في شراء شاليه هناك. تمتع في الساحل الشمالي بالهواء، اسبح في البحر ربما تتخلص من بقايا السريالية التي عششت في رأسك.

قبلت عرضه. سافرنا في اليوم التالي إلى السخنة، والتقيت لأول مرة

بالكركمي الذي سوف أشتريه في العالم التالي. وبعدها بأيام سافرت إلى مارينا وهناك لاحت لي في يومي الأول مفاجأة سارة، وانتقلت بنظرة من شجي إلى محبور ثم مجبور الخاطر، فقد التقيت ببونا.

كنت أتعشى في أحد المطاعم وإذ بيد تمتد وأصابع تستلقي برخاوة فوق عيني وصوت باسم يسألني: «من أنا؟».

لم أكن قد رأيتها منذ سنوات طويلة. نفس عيونها الأرجوانية، وجسدها الرقيق، كان الجديد شعرها الذي أصبح أقل همجية. رسمت بخصلاته على جبهتها ثلاث علامات استفهام تتساءل عن معنى الحياة.

جلست أمامي ومدت حبل الود والوصال الذي بدا لنا أنه لم ينقطع يوما. كانت في زيارة لمدة يوم مع صديقة لالتهام طبق من الجمبري. عرضت عليها أن تقيم معي ليوم أو يومين فرحبت بالفكرة، وانتقلت بحقيبتها في صباح اليوم التالي إلى منزل خليل. كان الشاليه مكونا من حجرتي نوم وصالة وحديقة صغيرة ومطبخ لم أتصور أنه سوف يستخدم. الفرش بسيط والصالون غرفة مستطيلة أرضها بلاط ملقى عليه كليم حنطي اللون مطرز بنباتات خضراء وعسلية. الأريكة من البوص والوسائد لازوردية، لوحات رخيصة ملقاة على الحيطان وكأنها بصقات معلقة على الجدران. وضعت بونا حقيبتها في غرفة النوم الأخرى ثم لا أفهم تماما ماذا حدث، انجذاب بدني جعلنا في حالة عناق. طال زمن القبلات لساعات، انهمر العرق وامتزج وخلق على عكس المتوقع حالة إثارة نادرة الحدوث. انتقلت حقيبتها قبل أن تفتحها من حجرة أبناء خليل إلى غرفة نومي، وبدلا من أن تقيم معي ليلتين ظلت في مارينا حتى نهاية شهر يولية. أربعة أسابيع عسل تصرفت خلالهم بوصفها زوجة تطالب بحقوقها وتمارس ألعاب الغيرة الزوجية وتسأل وتحاسب. استسلمت لسلوكها وأنا أنعم بعطاياها النسائية السخية واهتمامها البالغ بكل التفاصيل، وقدرتها المبهرة على العطاء والحنان. تناغم بين جسدينا واحتراف لفن اللمس وكأننا ولدنا لنكون عميانا نرى بأناملنا. فن لم تكن ضحى ضليعة في أسراره، على العكس كانت زوجتي تشعر مع كل لمسة بسريان تيار كهربائي بغيض عبر عروقها فتصرخ كي لا ألمسها. عوضتني بونا بالتصاقها الدائم الحميم في لحمي، ومنحنا تقدم السن القدرة على التذوق الهادئ الصبور. اتفقنا في نهاية الشهر على أن أستأجر شقة لنا في القاهرة حتى ننعم باللقاء بعد عودتنا من الساحل الشمالي.

تعمل بونا مصممة ديكور، ما زالت تعيش في شقة شبرا. توفيت جدتها «فيرونا» منذ زمن وتوفيت بعدها خالتها. ولم يتبقَّ سوى أمها التي أخذت حجرة الجدة بعد أن خرجت على المعاش. تغيرت روح المكان بانفصال الشقة عن الشارع. أغلقوا الشرفات والنوافذ، واختفت القطط، وانغلق الباب الخارجي للشقة. لم تعد الصور القديمة معلقة على الحيطان ونبتت مكانها طبعات رديئة لرسوم من القرن التاسع عشر، واختفى الصليب وكذلك آية الكرسي.

تزوجت بونا من ضابط شرطة. لم تدم علاقة الزواج طويلا؛ لأنها لم تنجب له الذرية التي كان يحلم بها. ذهبت للأطباء وعرفت أن فرصتها في الحمل واحد على الألف. تمسكت بأهداب الأمل لكن مرت الشهور والسنوات ولم يأتِ المولود. كان الزوج صريحا معها وقال لها إنه يريد الولد. طلقها وعادت إلى السكن مع أمها تحت سقف ظلَّ يهبط حتى كاد أن يخنقهما.

استأجرت لنا شقة من حجرة وصالة في حي الدقي. ذهبنا معا منذ الاتفاق الأول ليفهم المؤجر والبواب والجيران أننا زوجان. ادعينا أننا أستاذان جامعيان في محافظات مختلفة لنبرر غيابنا المتكرر وحضورنا في أوقات مختلفة. بدأت لأول مرة حياة مزدوجة متوازية أزاول فيها كل يوم دوري أبا وزوجا صباحا وليلا، وأجول في رحاب الحب مع لوحاتي ظهرا، وأمارس فنون الملامسة والملاطفة مع بونا مساء.

لم أقل لبونا أبدا كلمة «أحبك». لم أتناقش معها في موضوع عام، أو في قضية تشغلني. كان حديثنا في منطقة وسط بين البرودة والسخونة حتى إنني لا أتذكر ما كنا نمضغه من كلمات. أظن أن أحاديث النميمة الاجتماعية كانت المجال الذي كنا ندور في فلكه. ما أخذ عقلي هو جسدها. رائحة فمها مسك، الشهوة بين أفخاذها مدعاة للعجب، نيران متوقدة دائما تشعل الجذوة. كانت بونا تعامل جسدي كما لو كان قطعة فنية عليها الاعتناء برعايتها. كيف تكون هذه السخونة عاقرا؟ له في ذلك حكم. حولت بونا شقتنا إلى جنة صغيرة بتكاليف زهيدة. زهور بيضاء وستائر مدهمية بحروف ذهبية. افترشت بسط من نسيج الصوف والحرير ذات زخارف هندسية وألوان مريحة للناظر. مكثنا معا لمدة عام لم أنشغل خلالها بالسؤال عما يقلق مزاجي، كما لم أضع نفسي في مكان بونا لوهلة واحدة، مارست أنانيتي خلال هذا العام حتى منتهاها. اكتشفت بونفيلا في نهاية العام أنها حامل في الشهر الرابع.

سألتها منفعلا:

ـ هل من المنطقي أن تعرف المرأة أنها حامل في نهاية الشهر الرابع؟

ـ لم تكن قطّ دورتي الشهرية منتظمة، ورحمي كما أعرف قاحل.

ـ وما العمل؟

ـ لا أعرف.

ـ لي زوجة وابن وكيان عائلي يجب أن أحافظ عليه.

ـ أعرف.

ـ لا يمكنني قبول فكرة الخلفة.

كانت بونا على العكس تنتظر هذا المولود منذ أكثر من عشرة أعوام. تفجر إعصار كاد أن يقتلعنا.

قالت لي:

ـ سوف أبحث عن رجل يقبل أن يحمل الطفل اسمه في شهادة الميلاد. لن

يكون عليك أي تبعات.
ـ يكفيني أن أعرف أن لي طفلا أو طفلة على قيد الحياة؛ لكي يهرب النوم من عيني إلى الأبد. لن يقبل ضميري أن أدع طفلي يحمل اسما أجنبيّا.
ـ لندع ضميرك جانبا الآن. أنا أريد الطفل ولن أحملك أي مسئولية.
ـ اختاري لاحقا الشخص المناسب للقيام بهذا الدور البيولوجي.
ـ اخترتك أنت.
ـ أنا لا أريد لنفسي هذا الدور.
ـ إن الطفل في رحمي أنا وليس في رحمك.
ـ أنا لا أمتلك رحما.
ـ ليتك كنت تحمل رحما لكان الحوار معك ممكنا.
فشلت كل السبل. كان من المستحيل أن نصل إلى اتفاق يرضي الطرفين. لديها منطق واضح وكذلك لديَّ أسباب واضحة لرفض الجنين. طالت المفاوضات لنحو شهر واضطررت في النهاية أن أعلن رفضي بحدة وحسم.
اتفقنا بعد معارك ضارية على موعد للذهاب إلى طبيب في مستشفى صغير على أن نلتقي أمام المستشفى.
استيقظت في هذا الصباح واكتشفت أنني أجبن من أن أظهر أمام المستشفى.
هل أخشى أن تتطور المسألة إلى أمر جلل؟ أعرف أن عملية الإجهاض في نهاية الشهر الخامس في منتهى الخطورة. إنها عملية قتل. وجودي معها قد يعرّض سمعتي وسمعة عائلتي للخطر. أدرك أنني أخلق الأعذار. لابد أن أعترف أنني ببساطة رعديد. فأر مذعور يهرب من موقف خلقه بنفسه. اتصلت بصديقتها الوحيدة التي تعرف قصة حملها، وطلبت منها التواجد للضرورة القصوى في الموعد المحدد أمام المستشفى. أرسلت مساعدي للطبيب لكي يدفع المصاريف، ويطلب منه أن ينزل لاصطحابها خوفا من ألا تصعد بسبب عدم ظهوري.
أعلنت لنفسي بوضوح وأنا جالس في محطة مصر أنتظر موعد تحرك قطار الإسكندرية، أن ما أقوم به الآن يعد موقفا مخزيا. هل يكفي الاعتراف الداخلي بفداحة نذالتي؟ المؤكد أن اعترافي لم يثنِ عزمي واستكملت طريق الهروب. عادت ذكرى هروبي وزكريا ورامي للانتحار غرقا وأنا في القطار أتابع مرور عواميد الإنارة. ماذا فعلنا آنذاك؟ ماذا أفعل الآن بيونا؟ دار في رأسي حوار حاولت أن أوقف نبضه: إذا اضطرتك العلل يا شهاب أن تقدم على ما أنت مقدم عليه فأحرى بك أن تواجه الأمر بشجاعة، أن تكون على الأقل مع بونا في هذه اللحظة المرعبة. لم يكن قراري عقلانيّا. أنا لا أومن بالعقل وإنما أومن بالحدس. أصدق جسدي ولا أصدق الأفكار التي تتوارد على ذهني. أغلب الأفكار ليست أفكاري، وإنما ما يشعر به جسدي هو أنا. تألمت مفاصلي وجهازي الهضمي من فكرة أن أكون أبا من جديد. ببساطة لا

أستطيع. أنت تستكمل مشروع الأنانية إلى منتهاه. سوف أضمد جراحكِ يا بونا، أعدكِ بذلك.

وصلت إلى سيدي جابر وأنا متهدم. اتصلت بمساعدي الذي سبقهم جميعا إلى المستشفى، طلبت منه أن يتصل بي بمجرد وصول بونا.

تحدثت معها بمجرد ولوجي غرفة الفندق. «سوف أحضر خلال نصف ساعة». طمأنتها بصوت حنون: «سوف أكون موجودا قبل دخولك غرفة العمليات». ثم كررت نفس الكذبة على مسامع صديقتها. دخلت الحمام. وقفت عاريا تحت المياه المنهمرة، وحمدت الله أن اندفاع المياه كان شديدا على غير العادة حتى يعلو صوته على صوت الضجيج في رأسي. يبدو أن أضرار هذا الوشق الذي يسكنني أكبر من فوائده.

كنت معتمدا في هذه اللحظة على شعور بونا الدائم بأنها دائما المخطئة. شعورها التلقائي الأول أنها لا شك قد أقدمت على فعل غير صائب. إحساس أصيل بالذنب الأول. يأتي تساؤلها العفوي: «هل أنا السبب؟» ليريح ضميري. الغريب أنها حالة الكثير من النساء اللاتي تعرفت عليهن. استطاع النظام العام زرع خطيئة حواء والتفاحة في روح كل امرأة قابلتها. لا أنكر أنني استفدت كثيرا من جراء شعورهن بالذنب. كنت كثيرا ما أترك الباب مفتوحا. نعم، ربما تكونين المخطئة بالفعل. في هذه المرة لا أعرف كيف يمكن أن تتصور بونا أنها الجانية. لكن خيال المرأة الخصيب يمكن أن يدلها على درب يأخذها من يدها ويشرح لها كم هي مذنبة وكيف أنني بريء.

خرجت من الحمام وأرسلت نصّا قصيرا مفاده أنني انتقلت لغرفة العناية المركزة بعد أزمة قلبية مفاجئة. طمأنني مساعدي بعد ساعتين من الزمن أن عملية الإجهاض تمت وأن بونا في الطريق إلى منزل الدقي. تمازجَ استرخاء وراحة في عضلة القلب مع بعض الجرامات من القلق والكثير من التوتر والقليل من الغبطة. درت في غرفة الفندق ثعلبا صحراويّا داخل قفص حديدي.

رنَّ الهاتف وجاءني صوتها واهنا:

ـ أرجوك لا تمت الآن.

تنفست نفسا عميقا وتقمصت دور مريض القلب:

ـ لا تهمني حياتي، الأهم سلامتكِ.

انفجرت في بكاء هادر وخرج من جوفها صوت مكسور:

ـ ماذا فعلت بنفسي؟ أنا لا أصدق. قتلت ابني. قتلت ابني.

ظلت تردد هذه الجملة دون انقطاع وهي في حالة هستيرية.

ـ سوف أخرج غدا صباحا من العناية المركزة.

ـ أريدك الآن. أنا أموت.

ـ سوف أكون معكِ غدا صباحا. أنا ممنوع الآن من الحديث.

صرخت صرخة كدوي الرعد.

جاءني صوت صديقتها:
ـ أتوسل إليك. توجه بمجرد خروجك غدا من العناية المركزة إلى بونا.
ـ بالتأكيد سوف أفعل.
* * *
لم أبت ليلتي في الإسكندرية. وصلت منزلي في الثالثة صباحا. قبلت ضحى ومحب، ودخلت فراشي ونمت نوما عميقا. استيقظت في الواحدة بعد الظهر. أرسلت رسالة قصيرة لبونا. «سوف أخرج من العناية المركزة الساعة الخامسة مساء».
قضيت النهار مع ضحى، ووصلت شقة الدقي في السادسة مساء. كانت بونا تمثالا من شمع يرتدي السواد، يحلق حولها صوت ماريا كالاس صادحا «إيفا ماريا» لفرانز شوبرت:
«السلام عليك يا مريم الممتلئة بالنعمة، الرب معك. مباركة أنت بين النساء، ومبارك ثمرة بطنك يسوع. مريم العذراء يا والدة الله، صلي لأجلنا نحن الخَطأة، الآن وفي ساعة موتنا».
يسكن الصمت كل خلجة في جسد بونا، تجلس في حالة خشوع، حالة حداد. قعدت بجوارها وأمسكت يدها وقبلت أصابعها. خفت من الهجوع في حدقة عينيها. انبجست الدماء بغتة في عروقها. قامت بعنف وجذبتني وراءها حتى المطبخ. فتحت الثلاجة وأخرجت من الفريزر قطعة قماش ملفوفة ودسّت اللفافة في صدري.
قالت لي:
ـ هذا ابنك. قبّل وجنتيه.
انخلع قلبي من صدري عندما لامس الجنين قفصي الصدري. لم أتخيل لوهلة أنها أخذت معها الجنين لتضعه في الفريزر. من الواضح أن ملامح الذعر كانت بادية على محياي.
ـ أكنت تريدني أن أترك ابننا ليلقوا به في سلة المهملات؟
ـ لم أتصور أن تحضريه معكِ.
ـ لابد أن ندفنه في مدفن لائق. هذا ابننا.
أخذته مني وأعادته إلى الثلاجة. حاولت أن أسير ولكن رفضت ساقي اليمنى أن تتحرك. داهمتني حالة شلل لمدة دقيقة. أمام حالة الرعب التي تملكتني احتضنتني بونا وقالت لي:
ـ اسمه نجيب. هو صاحب شرف وكرم وفضل. ولد ليدخل الجنة من أوسع أبوابها.
ـ لا معنى على الإطلاق أن نطلق عليه اسما.
ـ اسمه بالفعل نجيب. نجيب شهاب الشمندر.
ـ الاسم سوف يولجه داخل ذاكرتنا. دون اسم سوف تضيع بصمته وهو ما نأمله حتى لا نموت كمدا.

ـ كيف تريد أن تضيع بصمته؟ هل جننت. إنه قطعة منا. لحمنا. دون اسم سوف يهيم في عناء دائم.

ألقٌ مجنون يلمع في عينيها.

توتر خطر في الحدقة ينذر بانفجار قريب.

انفرط عقدي. تحركت بصعوبة إلى غرفة الصالون وانهار جسدي فوق الأريكة. سألتني بقلق حقيقي؛ مما أشعرني بمزيد من تأنيب الضمير:

ـ ماذا حدث لك بالأمس؟ ماذا قال لك الطبيب؟

ـ انسداد بنسبة سبعين في المائة في أحد الشرايين الرئيسة. وضع لي الطبيب دعامات في هذا الشريان المسدود.

ـ يا لها من كارثة.

ـ الحمد لله أنها مرت على خير. قال لي الطبيب إنه توتر زائد عن الحد.

ـ هل من المعقول أن أفقدك في يوم فقدي لنجيب؟ كان الانتحار أفضل في هذه الحالة.

ـ سلامتك ألف سلامة.

ـ يجب أن ندفن نجيب اليوم.

لم أعرف ماذا يمكنني فعله. أخذتها وهي تحتضن اللفافة المثلجة وتوجهنا إلى مدافن الإمام الشافعي. وصلنا وقد تعدت الساعة العاشرة مساء، وبمجرد دخولنا الطرقات الرملية التي تحدها المدافن بدأ جسد بونا يرتعش وانهمرت دمعا غزيرا.

اندفعت مسرعا داخل المجاهل حتى وجدت ثلاث نساء يرتدين السواد ويفترشن الأرض أمام دار مهدمة. وقفت بالسيارة أمامهن ونزلت. تأملت وجوههن المحفورة في صلصال حرقته الشمس. عجوز تخطت الستين وامرأتان في الأربعين من العمر سقطن من جدار معبد قديم. قلت لهن بصوت مكلوم: إن زوجتي سقط جنينها في الشهر الخامس، عشرة أعوام ونحن ننتظر هذه اللحظة وضاع حلمنا. قامت أكبرهن في السن وطلبت من بونا الخروج من السيارة. وقالت لي: خذ الطفل واتجه يسارا واسأل عن عبد الباقي؛ وهو سوف يقوم باللازم. حاولت أن آخذ اللفافة من بونا ولكنها تمسكت بها وزعقت بحدة:

ـ لن أتركه لك. أريد أن أدفنه بيدي.

ـ لا تخافي.

تحولت إلى لبؤة شرسة وصرخت من قرونها:

ـ أريد أن أطمئن عليه والأرض الطاهرة تتسلم وديعتها.

ـ أنا أبوه وسوف أفعل اللازم. أعطيني ابني.

صراخ وعويل وتدخلات من النسوة الثلاث. شد وجذب ومزيد من الصراخ وبكاء هستيري. امتدَّ المشهد لدقائق لا أعرف عددها. فترت همتي وجلست على

التراب مكدودا، وعندما بدأ اليأس يسيطر على ملامحي ناولتني بونا الطفل وسقطت على الأرض في حالة إغماء. طلبت مني المرأة الطويلة أن أتحرك بسرعة وسوف يرعون زوجتي حتى أعود.

وجدت عبد الباقي. كررت على مسامعه أسطوانة الأب المكلوم الذي انتظر دهرا ولم يتجرع سوى الحزن.

طمأنني قائلًا:

ـ هذا الطفل سوف يكون نورا داخل أي مقبرة سوف يدفن فيها. له الحظ من سوف يستقبل ابنك بجواره.

كان القمر يرسل أشعة فضية باهتة تشكل تعرجات على الأرض. سرنا حتى وصل إلى مبنى صغير وطلب مني انتظاره. دخل وأحضر جاروفا وفأسا صغيرة. توجه وأنا وراءه إلى إحدى المقابر. دخلها وبدأ في إزاحة الرمال من فوق حجر ضخم. ثم ضرب ضربتين وأزاح الحجر فانفتح الطريق نحو درجات هابطة إلى الحجرة الداخلية. هبط الدرج فقلت له: إنني لا أقدر على الهبوط معه إلى غرفة الدفن. لن أتحمل لحظة الفراق. أخذ مني الطفل وهبط به داخل الثقب الأسود. انتظرته طويلا وفي يدي مبلغ من المال. خرج أخيرا وأعاد الحجر وأهال عليه التراب. وضعت في يده النقود، ولكنه رفض بشمم الحصول على مليم واحد. صاح في وجهي:

ـ دعها تكون في ميزان حسناتي. ربنا يصبرك على مصابك الأليم.

ـ ربنا يكرمنا جميعا.

في طريق العودة لم أجد بونا ولا النساء الثلاث. ظللت أدور حتى وجدت طفلا دلني على منزل صغير. دلفت من الباب، وجدتني في صحن مفتوح غير مسقوف وحجرتان مفتوحتان تطلان على الحوش، في وسط الصحن نخلة ضامرة. النساء الثلاث جالسات على الأرض، يسندن ظهورهن على حائط مائل ويفردن سيقانهن، بونا نائمة فوق سيقان النساء الثلاث وتضع رأسها فوق فخذ العجوز، أصابع المرأة المسنة داخل شعر بونا، وأصابع الكف الأخرى تضغط على الجبهة. خطوط إضاءة القمر أكثر وضوحا هنا عن الخارج. ضجيج الصمت يفجر المكان. وقفت دون حركة. لم تلتفت لي النسوة. ظللن يحلبن القمر عسى أن يغسل حليبه همومهن.

شرعت في رسم لوحة «نساء أربع في الإمام الشافعي» في الليلة نفسها: جرحي المفتوح الذي لن يندمل أبدًا.

* * *

عواء وفحيح وعرار ظليم في الاحتفال بموتي

تعرض أصحاب مصر، الذين أثنت عليهم المصادر المختلفة، لطغيان الأباطرة، وسطرت العديد من الوثائق أحداث الجور والقهر الذي طال المصريين على مدار القرون، تجمع هذا الأذى التاريخي الذي وقع علينا في حزمة واحدة واندلق في ملامح جارتي التاريخية «جيهان» التي لم ألتق بها منذ أكثر من عشرين عاما. كان همي وأنا أرسمها بعد أسبوع من هذا اللقاء أن أظهر ما تعرضت له من ظلم وقسوة في ملامح وجهها وهي واقفة بجانب غوريلا عملاقة تحلق فوقها حمامة يقطر من عنقها الدم. تبدو فكرة اللوحة نمطية ساذجة ومغرقة في رمزية حمقاء، لكن كانت رؤيتي على عكس البادي بعيدة تماما عن كل ما هو نمطي.

زارتني جيهان في يوم شتوي قارس. كنت في مرسمي أقلب صفحات كتاب وأستمع إلى وقع انهمار الأمطار على أسفلت الطرقات الخالية. طرقات خافتة. فتحت الباب الريفي القديم الذي كنت قد اشتريته حديثا من حي السبتية. أسرَّ لي التاجر أنه أحد أبواب دار عمدة في الدقهلية تمَّ هدمه حديثا. وجدتها أمامي، سعيت ما وسعني من جهد أن أخفي حالة الصدمة التي اعترتني من مرآها. تجمعت في ذهني الأمثال الشعبية عن غدر الزمان وعن السواقي القلابة الكاذبة الغرورة وأنا أتأمل وجهها. أردت أن أحتضنها وهي تقف مترددة أمام الباب. عباب من حنان تدفق. صرخت فرحا: جيهان. ولم أستطع أن أوقف دمعة واحدة قلقة طفرت من عيني اليسرى.

أعرف جيهان أكثر مما أعرف أي إنسان على وجه البسيطة، صحيح أنني خطبت أختها ولكنني كنت أقرب دائما إلى جيهان، ظللنا منذ سن الرابعة حتى الرابعة والعشرين نتحدث كل يوم في أدق تفاصيل حياتينا. لطالما اعتبرتني ملكها الخاص، ولطالما فكرت أنها نصفي الثاني. وكما أدركتها خبرتني، فأنا كتابها المفتوح على مصراعيه، ادعاء ما لا أبطن مع جيهان كان من المستحيلات السبعة. لذلك رأت معالم الصدمة على وجهي ولم تستغربها. استأذنت في الدخول فقلت لها إن المكان مكانها.

ذاب الجليد سريعا بعد البدايات المتوترة. تبادلنا كلمات المودة والشوق والعاطفة الصادقة. سألتها:

ـ ما هذا الحزن الذي يحيطك كالهالة؟

ـ عسر لا ينفك.

ـ أعرف أن الشاي الأخضر يذيب العسر من جدار المعدة.

ـ لا مانع.

ذهبت لإعداد الشاي وظللت أتأملها عن بعد. شعرها الكستنائي الوارف غزير كعادته، نهدها كاعب ما زال، لم ينطفئ لمعان عينيها الواسعتين. فمها منفرج قليلا. شفتاها مستديرتان منتفختان بارزتان، كل ما فيها ينم عن امرأة

شبقة جامحة. فأين أرى هذا الحزن الشامس؟
كانت هي الأخرى تنظر إلى المكان في تعجب. مؤكد أنها تتساءل: كيف يعيش في هذه الفوضى؟ تلتهم اللوحات المساحة كلها دون عناية واهتمام بكائن من كان. رسوم تحدق إليها بلا اكتراث وربما بقدر من التعالي. أراها شعرت بقدر من الغربة. تتساءل الآن: كيف يعمل هذا الرجل في الفن دون أن تكون لمرسمه مسحة فنية؟ هو أقرب إلى أن يكون مخزنا من كونه أي شيء آخر.
خرجت بالشاي الأخضر والنعناع وبدأت بالاعتذار:
سمك لبن تمر هندي. أعرف.
ـ يمكنك أن تضيف أيضا حلبة حصى وكبدة جملي.
ـ تراكمت اللوحات والأخشاب والألوان والأقمشة، ثم تعودت أن أعيش وسط هذا الهرج. لا يزورني أحد في مرسمي. محب ابني زارني هنا مرة واحدة في حياته كلها.
ـ لا يهتم الأبناء عادة بآبائهم.
ـ كيف عرفت عنواني؟
ـ ناريمان ما زالت تتبع خطاك.
ـ فكرت كثيرا في أن أراكم، وكنت على ثقة أن الحياة سوف تختار التوقيت الأمثل.
ـ الحياة لا تقرر لأحد، بل اتخذت أنا القرار.
ـ هذا خلاف يقسم البشر نوعين.
ـ جئت إليك لترسمني في لوحة زيتية بالحجم الطبيعي.
ـ لقد رسمتك كثيرا.
ـ رسمت نهدي يا وقح، أريدك أن ترسم وجهي. أريد صورة لي الآن.
ـ يسعدني أن أرسمك دائما. ولكن هل هناك مناسبة بعينها؟
ـ المناسبة الأهم على الإطلاق، الطلاق.
رفعت حاجبي في تعجب. استكملت حديثها بصوت مرح:
ـ رحلت اليوم عن منزل الزوجية، وأريد تخليد صورتي في لحظة رحيلي عن وجهه.
ـ وما العلاقة بين الطلاق ورسم وجهك الآن؟
ـ لأرى بعيني الغمَّ الأزلي في صورتي، أريد أن أغوص في حزني البادي لأنتصر على الخوف؛ ولأتذكر دائما ما فعله بملامحي هذا الحيوان.
ـ احكي لي إذن عن تاريخ الندبات لكي أستطيع أن أرسمكِ.
ـ أتريد أن أحكي لك معاناة عشرين عاما؟ أحتاج إلى مثلهم.
ضمتنا الأريكة الزرقاء بحميمية. جلست جيهان على الجانب الأيسر بجوار الشرفة، وعلى الجانب الآخر قعدت مائلا وأسندت ظهري على ذراع الأريكة.

فتحت جيهان قلبها واستطاعت بشجاعة أن تحكي لي عن الجروح وكيف تقيحت. يا للنساء وقدرتهن على الإمساك بالمهم في مسالك الروح. استمرَّ الحوار دون أن نشعر بالزمن، ودارت العلل العلوية دورتها المقدسة، ووجدت نفسي هائما في تفاصيل صوتها المشروخ الشبق. قبلت أصابعها ثم وضعت كفي على ركبتيها، ثم تذكرت أنه من العيب كل العيب أن أسعى لتقبيل امرأة وهي في حالة انكسار. لكنَّ طمعا تولد في قلبي لم أكبح جماحه ولم تعترض. اقتربت بحرص بالغ. نمر يترقب صيده من بعيد بعد أن امتلك شهادة أيوب في الصبر، ولأن أيوب يعلم حق العلم أن العجلة تلحقها ندامة، ويعلم كذلك أن الأذن ترى قبل العين، فكان عليَّ أن أطرب سمعها. سألتها إذا كانت تعد نفسها مثلية فنفت بشدة، وقالت إنها مشدودة للرجال كما النساء ولكنها لم تسعد برجل حقيقي حتى الآن سوى في شبابها الغض. أنارت الابتسامة وجهي. فتحت ذراعيها لتستقبلني، ثم فتحت ساقيها. وعاد بي الزمن لعقود مضت فأتيتها كابن العشرين. وفي لحظة الضم بتر سكين صدري، ثم شقت مدية ظهري، وطعنت شفيرة كبيرة كتفي. صرخت من الوجع، ألم هائل لم أختبره من قبل. هل جاءت النهاية؟ صرخت جيهان: إنها جلطة قلبية. يجب الذهاب من فورنا إلى أقرب مستشفى.

قادتني سلسلة من الحظوظ السعيدة إلى غرفة العمليات. انسداد شبه كامل في الشريان التاجي الأيسر وعدد آخر من الشرايين. كنت قاب قوسين أو أدنى من الانتقال إلى الرفيق الأعلى. قلت لربي: احيني إذا كانت الحياة أجمل لي، وانقلني إلى جوارك إذا كانت الوفاة أصلح لي، فأنت خير العالمين.

أبلغني صديقي طبيب القلب بعد العملية أن حالتي كانت جد خطيرة.. نظر لي بوجه عابس وتكلم بصوت باتر: «لا تمزح فالمسألة لا تحتمل مزاحا. سوف تظل معنا في المستشفى لمدة أسبوع». سألته:

ـ هل سوف أموت؟

ـ الموت -حتى إشعار علمي آخر- مصيرنا جميعا. ولكنك طبيّا لن تموت الآن.

ـ أأبلغ زوجتي وابني حتى يعودا من ألمانيا؟

ـ راح الخطر. قل لهما: الأمر بسيط ولا يحتاج لعودتهما، وبعد هذه المكالمة ممنوع استعمال الهاتف.

أمسكت هاتفي لأتصل بزوجتي فوجدت رسالة من إينانا تعلمني فيها بوفاة زوفين. آه يا زوفين. كتبت لي إينانا أن أمها طلبت منها إبلاغي في حالة وفاتها. يبدو يا زوفين أنني سوف ألحقك خلال ساعات أو أيام، وسوف يكتفي كلانا بمراقبة الأبناء من ركن قصي مجهول. انقبضت روحي من الخبر وتشاءمت. لن أتصل بضحى الآن والصباح رباح. رائحة النظافة في غرفة العناية المركزة تقتلني. تفصل ستارة من قماش أبيض الأمهدة المرصوصة داخل القاعة. جاء سريري بجوار حائط من ناحية ورجل كهل تخطى الثمانين من العمر. رسم هذا الرجل بسمة على وجهي على الرغم مما أعانيه من اكتئاب بسبب خبر وفاة زوفين. كان الرجل يحول كل آهة وجع تنطلق من

حنجرة مريض إلى نوتة موسيقية، وكثيرا ما كان يستكمل النغم بآهات لحنية أخرى. تجري الممرضة وتطلب منه ألا يصدر صوتا، فيرد عليها بلطف: أنا آسف. وبمجرد ما نستمع لتأوه مريض يعيد النغمة في لحن متفرد. ولأن هناك مريضة ترقد بجواره كثيرة التأوهات والزفرات والتنهدات؛ فقد تحولت العناية المركزة على صوته إلى قاعة لتعلم النوتة الموسيقية.

قضيت معظم وقتي في العناية المركزة في تناول الأرز مع الملائكة بعد أن مرروا في دمائي أدوية لا عدَّ لها، وكلما تيقظت أستمعتُ إلى الموسيقار يدندن آهات من حوله. في اليوم الثاني تعارفنا. عازف قانون شهير لفَّ العالم وعزف في أعرق قاعات الموسيقى، كان يتمنى في صباه أن يكون مطربا، ولكن مسالك الحياة أوصلته للعزف على القانون. قلت له إن صوته ما زال وهو في الثمانين من عمره رائقا وجميلا. في اليوم الثالث والأخير لي في العناية المركزة توفيَ جاري وعمَّ صمت ثقيل. اندست الرهبة في نفوسنا وملأنا رعب.

قريب جدّا هذا الملاك عزرائيل، عبد الرحمن أقرب إلينا مما نتوقع.

كنت منهكا وحزينا وأنا أتابع الممرضة وهي تضع مزيدا من الدواء في هذا الوعاء البلاستيكي المعلق بجواري. طلبت مني أن أنام ولم أكن أريد سوى الهرب من الإضاءة الميتة التي تترع وسط رائحة موتى. الهروب هو الحل الوحيد أمامي من هذه الورطة.

* * *

وجدتني أنزلق بهدوء نحو قاع النيل.

رأسي يتقدمني نحو الأعماق المظلمة وعيناي المفتوحتان لا تريان غير عتمة غاشمة.

ألم متزايد يضغط على طبلة أذني يشعرني أنني ما زلت على قيد الحياة.

عصرني ألم محرق، فانكمشت حتى أصبحت كرة مطاطية، فزادت سرعة انزلاقي نحو القاع.

ماذا جاء بي إلى هنا؟

أتذكر الآن.

هربت من ملاك الموت.

جئت أغسل روحي، أستنشق الهواء القادم من الشمال.

لكم أعشق النيل، هواءه وهدوءه وعظمته وحضوره القدسي الطاغي، كل هذا كفيل بإعادة الصفاء للروح.

النيل هو المفرُّ من القتامة.

ثم اكتشفت عندما وصلت للنيل أنه لم يعد نيل.

كيف نسيت؟

وجدت في استقبالي جحافلَ من كتائب العويل.

كل كتيبة مقسمة إلى عدة سرايا. وكل سرية تمتلك جهازا متصلا

بسماعات عملاقة نواحة تصدر عويلا مرعبا ينوح النيل وما يجرى على ضفافه، وعلى هذا العويل ترقص الفتيات ابتهاجا، ويمسك الرجال بكاميرات التصوير يصورون الراقصات وهن في حالة مرح غريب. ومن بعيد وقفت خريستيانا تتابع المشهد.

لم أفهم كيف يمكن أن تكون حركة الأجساد مبتهجة والعويل هو بطل المشهد الوحيد.

هربت من دار الفناء إلى أرض الردى.

خرج دوي الرعد من كل سرية ينافس وبعنف دوي السرية المجاورة.

لم أعرف أن صوت الرعد يختلف بعضه عن بعض. كل دوي يتنافر مع صراخ السرية المجاورة التي تتنافر مع صياح السرية التي تجاور الثانية.

حالة من الجلبة السقيمة يشارك فيه جيش عرمرم لقتل روح النيل، وقتل أرواح البشر الذين يقتربون منه.

أخذت الأصوات المعوجة أشكال شخصيات مرعبة بدأت تهاجمنا بلا رحمة.

نهش عواء ممطوط جزءا من أذني اليسرى، والتهم فحيح أنفي، ثم افترس عرار ظليم قدرتي على التحمل.

أسرعت إلى أول مركب شراعي لأبتعد قدر الإمكان قبل أن أموت من نهش الضباع. لامست جبهتي آهة وأنا أهرول على الدرجات الهابطة من الشارع نحو سطح النيل. قفزت داخل قارب، وطلبت من المراكبي أن يفرد شراعه بسرعة ويتجه جنوبا بعيدا عن كل هذا الدوي. تحرك الرجل مسرعا ومال يمينا ويسارا في محاولة لتفادي مزق التأوهات التي باتت تمر بجانب رأسي.

تصورت من فرط سذاجتي بمجرد وصول المركب إلى عرض النيل أنني نجوت، لكنني فوجئت بمراكب حربية صغيرة تحمل على متنها نفس السماعات الخربة تصدر نفس العويل، وفوق المراكب رجال يرقصون فرحا.

هاجمتنا البوارج ورشقت أسهمها في وسط مركبتنا. حاول المراكبي الهرب، لكن بارجة، تصدر أزيزا مرعبا، اقتحمت بلا رحمة منتصف قاربنا. انكسر العمود الصلب الذي يحزم القارب حتى كاد أن يتهاوى.

تماسك المراكبي وبدأ سعيه للإفلات من هذا الهجوم المباغت.

لم نكن نعرف أن الجيوش داخل النيل عددها يفوق الجيوش على ضفافه. ظلت الكتيبة المهاجمة بسراياها وفصائلها تقصف رعودا تقصم الروح، حتى قفز هزيم، أخذ شكل محارب أسطوري، داخل قاربنا. نطّ المقاتل فوق المائدة التي تتوسط المركب، وكأنه بهذه القفزة قد أعطى إشارة شيطانية لبدء الضربة الأخيرة. فقد هبطت من حيث لا ندري جوقة من رجال بكروش ضخمة، جلسوا على الأريكة المقابلة لنا. أخذوا يزأرون وهم يصفقون. ارتفع زعيقهم حتى طاول السحاب الذي سارع بالهرب جنوبا.

لم أتحمل زئير الرعب.

قفزت من مكاني كنمر هائج للفتك بالجوقة.

ضحك المحارب وأطلق عويلا ممطوطا نترني خارج المركب وكأنني ريشة في مهب ريح.

* * *

ما زلت أغوص بهدوء.

وعندما بدأت الأصوات في التباعد التدريجي، فتحت عيني وسط العتمة الغاشمة وانتظرت توقف أنفاسي نهائيّا.

* * *

تمت

المحتويات

11 خشب الماهوجني والمزهرية وخريستيانا تجيب
15 بستان الدهر تغزل الحكايات بمغزل من ذهب
18 حركات سانتو الخفية في الغرفة المظلمة
23 جليلة وملاك هتلر الفضي
29 جسد برلنتة الشفاف في حمام سعيد السعداء
33 الجدار العظمي لقسم اللبان والسباحة مع دنيز
41 وجوه البطالحة المتطلعة للسأم الأعلى
46 انتحار سلفادور دالي في شاطئ جليم
54 أحاجي الرغبة المستعرة في زنا المحارم
62 كشك الموسيقى الياباني يهتك عرض النسيج الوطني
69 داروين والجربوع وأصل الأنواع
72 منبت البشرية
79 عراقي كوني عاري الصدر أمام فوهة مدفع قومي
87 يد الإله أوال على وجه ليلى الساطع
97 الهاربيز تطير فوق جزيرة الذهب
104 رمح داجون يخترق الجسد وحضن الربة عنات يقتل العزيز
110 أشعة السماء تنير وجه العذراء ماجدة
118 يد الجنين ترسم على بطن الأم علامة الانتصار
125 تموت السادية عندما تقضي الماسوشية نحبها
134 عاهرات مبرة ريري الخيرية
140 مقتل الأراجوز من الرجل الغوريلا
140 وإصابة شيخ البلد من فحيح امرأة
145 ضحى تسكن في الجناح الشرقي
145 في صراط الضمير الإنساني
152 عرض عام لسوق النخاسة في مستشفى حكومي
155 الملاك ميخائيل يداعب فيرونا وبونا تتابع من بعيد
163 بوسي ترفض اللعب مع بنت وردان

شيفا والألوان الأربعة 169
تاج إينانا ربة السماء في مرآة الحمام 174
ضباع ونعام والبحث عن الأكسجين 182
الوقواق في عزاء الصالون النحاسي 188
نساء أربع في الإمام الشافعي 195
عواء وفحيح وعرار ظليم في الاحتفال بموتي 203